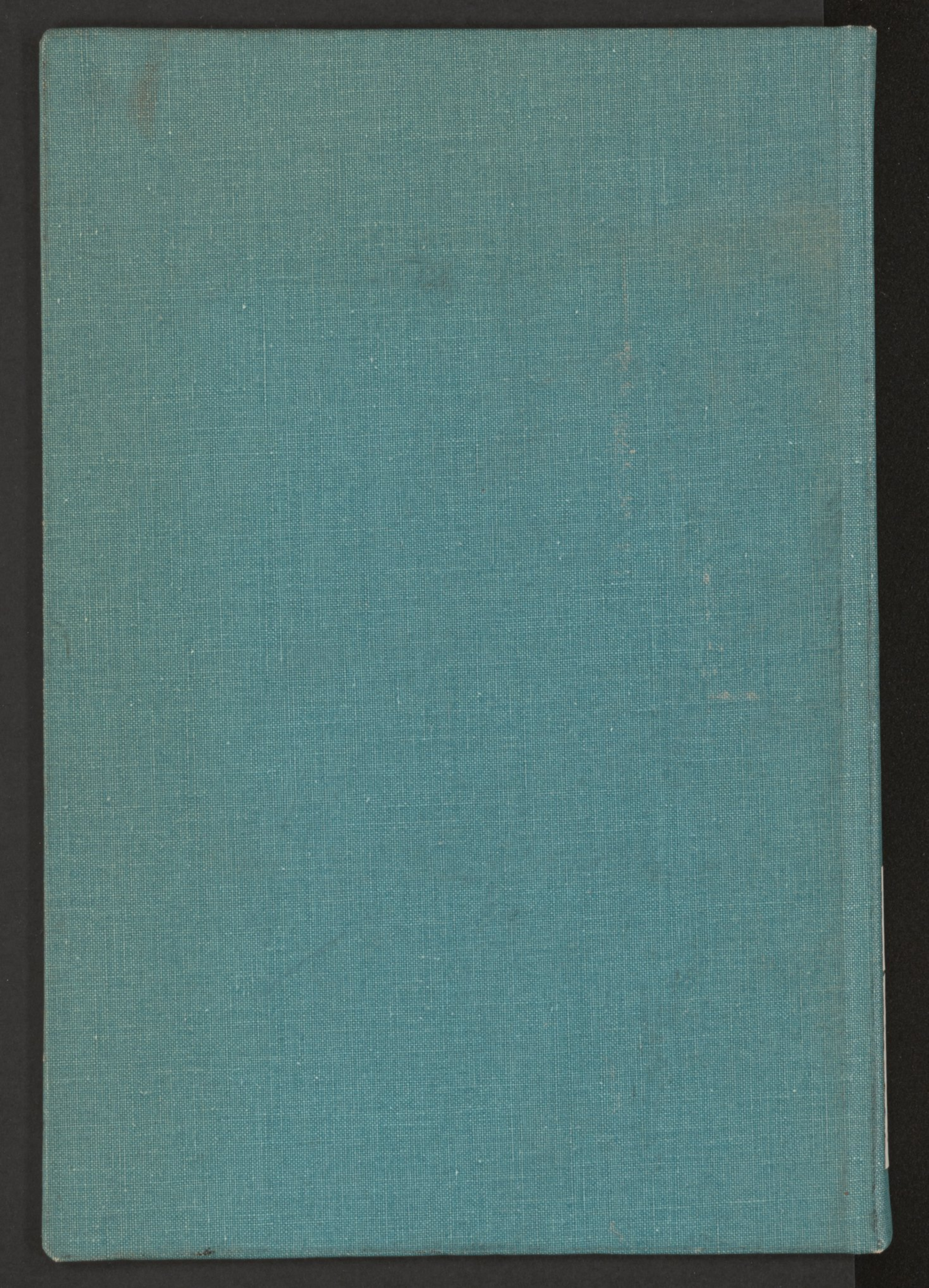


مع النّاس

تأليف

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع المكتبة الأموية
بدمشق

الطبعة الأولى
١٣٧٩ - ١٩٦٠

مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فهذا هو الكتاب الثالث عشر من سلسلة كتبي الجديدة ، اسأل الله أن ينفع به ولا يحرمني الثواب عليه ، هو المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دمشق : ١٠ رمضان ١٣٧٩
٩ آذار ١٩٦٠

علي الطنطاوي

حديث عن دمشق

نشرت سنة ١٩٤٧
وقد أمضيت تلك السنة في مصر

دخلت مخزناً (في القاهرة) أشتري منه شيئاً ، فسمع لهجتي الشامية شيخ هِمّ كان هناك ، أبيض الشعر كأن رأسه ولحيته الثغامة ، فالتفت إليّ وقال :

ـ أنت من دمشق ؟

ـ قلت : نعم .

فسطع على وجهه نور ، وبرق في عينيه بريق ، وبدت على جبينه ظلال ذكريات حلوة ، مرت في رأسه ، وأخذ بيدي هاشاً لي باشاً بوجهي ، فأقعدني معه ، وقال لي :

أهلاً بك ، أهلاً وسهلا ، تشرفنا ياولدي ، فتعال ! تعال حدثني عن دمشق ، فقد طال عنها ابتعادي ، وزاد إليها اشتياقي ، حدثني عن سهلها وجبلها ، عن غوطتها وربوتها ، عن (الميزان) . ألا يزال الميزان مثابة الطهر ، ومعبد الجمال ، وجنة الدنيا ؟ ألا يزال السراة والتجار يصلّون الصبح كل يوم ويخرجون إليه ، يقضون فيه حق النفس بالتأمل ، كما قضوا في المساجد حق الله بالصلاة ، فيجمع الله لهم الجنتين ، ويعطيهم نعيم الدارين ؟ ألا يزال زاخراً بحلق الأحباب ، وجماعات الصحاب ، عاكفين على (سماورات) الشاي الأخضر ، يشرفون

على (قنوات) و (باناس) [1] وهما يخطران على العدوة الدنيا متعانقين متخاصرين فعل الحبيبين في غفلة الرقيب ، يمشيان حالمين خلال الورد والفل والياسمين ، كزوجين في شهر العسل ، يظهران حيناً ثم تشوقهما الخلوة ، فيلقيان عليهما حجاباً من زهر المشمش والدراقن والرمان ؛ وعلى العدوة القصوى زوجان آخران حبيبان ، يمضيان يتناجيان ويتخالسان القبل : (يزيد) و (تورا) [1] ؟ وبردى ! ألا يزال يدب في قرارة الوادي على عصاه ، ينظر باسماً الى بنيه ثم يلوي عن مشهدهم بصره ، وينطلق في طريقه لايبالي . عاف الحب وملّ الغرام ، وعلّمته تجارب العمر ، أن كل مافي هذه الحياة باطل إلا ذكر الله والعمل للآخرة ، كله لعب ولهو ومتاع زائل ؟ وقاسيون الجدّ العبقريّ الذي عاش عشرة ملايين سنة وما انفك شاباً ، وشاخ ابن أخيه بردى ولم يشخ ، ألا يزال قاسيون قاعداً قعدة ملك جبار ، قد رفع رأسه ومدّ ذراعين له من الصخر ، فأحاط بهما دمشق وغوطتها ، من الربوة الى برزة ، ووطأ لها ركبته فنامت المدينة عليها ، كما تنام الحبيبة إن أضناها النعاس على ركبة الحبيب ، واحتمت الصالحية بصدره كما يحتمي الطفل الوليد بصدر الأم الرؤوم ؟ والشمس ! ألا تزال الشمس تضحك لبردى وأبنائه ، وتستحم أنوارها في مائه ، وتسبح أشعتها في سمائه ؟

و (صدر الباز) و (مصطبة الأمبراطور) و (الصوفانيـة) و (الشاذروان) ؟ حدثني عنها ... حـدث عن دمشق ، ألا يزال الناس يعيشون في دمشق للخير والجمال ؟ ألا يزال التجار يخرجون من صلاة العصر ، فيغلقون دكاكينهم ويمضون الى بيوتهم ، الى أولادهم وأهليهم . ثم يتعشون المغرب ، ويؤمّون المساجد فإذا صليت العشاء

---

(١) من فروع بردى السبعة .

خرجوا ، فمنهم من عاد الى داره ومنهم من ذهب الى الدرس ومنهم من مشى الى (الدّوز) ...

قل لي : ألا يزال (الدّوز) يجمع الإخوان المتآلفين ، والأحبة المتصافين ، يسمرون في كل ليلة في منزل واحد منهم ينشدون الأشعار ويسوقون النوادر ، ويروون المضحكات ويطالعون الكتب ، ويتجاذبون الحديث ، ويأكلون ألوان الحلويات ؛ ويشربون الشاي ، ثم ينصرفون الى دورهم ، وقد استمتعوا أوفى مايكون الاستمتاع ، ومرّوا اكثر مايكون السرور ، وما غشوا قهوة ، ولا أمّوا ملهى ، ولا جالسوا غريباً ، ولا أتوا محرماً ، ولا أنفقوا في غير وجهه مالا ؟

ألا تزال منازل المشايخ في (زقاق النقيب) و (حمام أسامة)[1] و (القيمرية) معاهد إرشاد ، ومدارس علم ، ودارات ملوك ؟ قل لي ! من بقي من تلك الاسر العلمية ؟ آل حمزة وآل عابدين والطنطاوي والعطار والحاني والطيبي والشطي والاسطواني والكزبري والعمادي والمحاسني والمنيني والخطيب ؟ ألا يزال فيها العلماء الأعلام أم تنكب الخلف طريق السلف ، واستبدلوا الدنيا بالدين ، والمال بالعلم ، والمنصب بالتقوى ؟ والعلماء ألا يزالون أعزة بالدين ، يعرضون عن الملوك فيسعى الى أبوابهم الملوك ، ويزهدون الدنيا فتقبل عليهم الدنيا ، ويهربون من الولايات والمناصب فتلحقهم المناصب والولايات ؟ ألا يزال الناس يعكفون في دمشق على العلم لايريدون به إلا الله والدار الآخرة ، يثنون لذلك ركبهم ويحيون ليلهم ، ويكدون نهارهم ، ويقنعون في أيام الطلب بما سد الرمق ، وحمل الجنب ، وستر العورة ، لايسألون عما غاب من ذلك أو حضر ، قد فكروا في غيره ، وأقبلوا على سواه ،

---

(١) عامة أهل الشام يسمونه حمام سامه بالامالة وخاصتهم يلفظونه حمام سامي

فكان العلم أملهم ، وكانت المطالعة شغلهم ، وكان ثواب الله مبتغاهم ، قد صغرت الدنيا في أعينهم حتى انهم لم يروها ليتكالبوا عليها ، ويذلوا من أجلها ، و (يضربوا) عن التعلم إن لم يصلوا اليها ؟ ألا تزال هذه المدارس عامرة ، يجيئها الطالب ؛ فينام في غرفها ، ويستمع من مشايخها ، ويأكل من أوقافها ، ويجعلها دنياه لادنيا له وراء جدرانها : العمرية والمرادية والنورية والبادرائية والقلبقجية ودار الحديث وجامع التوبة وباب المصلى والدقاق ومدرسة الخياطين وأمثالها . ألا تزال زاخرة بالطلاب عامرة بالعلم ، عاملة للاصلاح ؟

ومنازل دمشق ! ألا تزال تلك المنازلَ الواسعة الصحون ، ذات الظل والماء ، والبرك والنوافير ، والاشجار والزهور ، والدواوين والمجالس ، والصيانة والستر ، فهي من خارجها حواصل تبن ، ومن داخلها جنات عدن ، وهي مصيف ومشتى ، وهي مسكن وملهى ، وهي دار وبستان .

الا تزال في دمشق الاسرة كلها تعيش في المنزل الواحد : الجد والاب والاعمام والاولاد ، ونساؤهم واولادهم ، ثم لاتجد خلافاً ولا ولا شقاقاً ، ولا دساً ولا كيدا ، الصغير يوقر الكبير ويطيعه ، والكبير يرحم الصغير ويحبه ، وكل يؤثر على نفسه ، ولا يحب لغيره إلا ما يحب لها ؟

الا تزال المرأة لبيتها ولزوجها ، لاتقيس الطرقات ، ولا تقصد الاسواق ، ولا تعتاد منازل الخياطات . إن احتاجت شيئاً اشتراه لها بعلها ، وإن أرادت زيارة اهلها ذهب معها ، وإن اشترت ثوباً خاطته بنفسها ، والحجاب سابغ ، والشهوات مقموعة ، والزواج شامل . لايبلغ الولد عشرين إلا وله ولد ، ولاتصل البنت الى الثامنة عشرة إلا ولها ولدان ؟

والبوابات ! هل زالت البوابات ، التي كانت تغلق كل ليلة بعد العشاء وتسد الطرقات في وجوه لصوص الاموال والاعراض فلا تفتح إلا لقاصد بيته ، او ذاهب في حاجة مشروعة ؟

والأحياء ! الا يزال في كل حيّ عقلاؤه وسادته ، يسعون لخيره، ويعينون عاجزه ، ويسعدون فقيره ، ويأخذون من فضل مال الغني ما يسدّ خلة المحتاج ، واذا رأى أحدهم غريباً في الحي سأله من هو وما يكون ، فلا يدخل الحي إلا رجل شريف . وان وجد امرأة متبرجة نصحها وزجرها ، وبحث عن وليها ليحميها . وإن علم بأن داراً ترتكب فيها فاحشة ، عقد مجلساً فدعا المؤجر والمستأجر وكانت المحاكمة التي لاتؤدي إلا الى منع الفاحشة في غير ظلم ولا عدوان ، فكان الحي كله كالأسرة الواحدة ، وكان البلد مجموعة أسر كلها خيّر فاضل نبيل ؟

الا يزال الناس في وئام وسلام ، فلا نزاع ولا خصام ، يعرف كل منهم حقه فلا يطلب إلا اقل منه ، ويعرف ماعليه فلا يقصر في ادائه ، وان اختلفوا رجعوا الى العالم ورضوا بحكمه لايعرفون المحكمة إلا ان استحكم الخلاف ، وقلما كان يستحكم الخلاف ؟

الا يزال القاضي الشرعي مرجع كل خصومة ، ومصدر كل حكم ، يحكم في كل قضية بشرع الله ، فلا تطويل ولا تأجيل ، ولا مراوغين ولا محامين [1] ؟

الا يزال كل ما يحتاج اليه الناس يصنع في دمشق ، فلا يأكلون إلا حاصلات بلادهم ، ولا يلبسون إلا نسيج ايديهم ، ولا يتداوون

---

(١) معذرة ياساداتي المحامين : فقد جرتكم القافية ليس إلا ... وحقكم على الشيخ المحدث لا علي أنا .

إلا بعشب ارضهم ، لايدفعون اموالهم الى عـدوهم ، ولا يعينونه بها على انفسهم ؟

ألايزالون سعداء راضين ؟ قد انصرف العالم لعلمه ، والتاجر لتجارته ، والطالب لدرسه ، والمرأة لبيتها ، لايشتغل احد بغير شغله ، ولايدخل فيما لايعنيه ، قد تركوا السياسة لنفر منهم اخلصوا لهم فوثقوا بهم ، ورأوا امانتهم فأعطوهم طاعاتهم ، ورأوهم لايسرقون مالهم ، ولايمالئون عدوهم ، ولا يضيعون مصالحهم ، فـلم ينفسوا عليه زعامتهم . ولا ضيقوا عليه مكانتهم !

فقلت للشيخ : منذ كم فارقت دمشق ياسيدي ؟

فتنهد وقال : منذ سنة ١٨٩٧ ، فارقتها شابا ، ولم ادخلها بعـد ذلك ابداً .

فرحمت الشيخ أن أفجعه في أحلى ذكرياته ، وأن أطمس في نفسه أجمل صور حياته فتلطفت فودعته ، ولم أقل له شيئاً ، وماذا أقول ؟ أأقول له : إن اهل الشام قد انصرفوا عن صدر البـاز والميزان والصوفانية والشاذروان واهملوها حتى صارت مزابل ، لأنهم آثروا عليها العباسية والهدقنا وشهرزاد ونادي الصفا ؟

وانهم هجروا منازلهم التي كانت جنات ، ليسكنوا كالافرنج في طبقات كأنهـا سجون أومغارات ، وان ابناء العلماء الاتقياء ، صاروا من الفساق الجهلاء ، وان مدارس العلم هدمت او سرقت ، وان غرفها احتلت لتكون مساكن او قهوات او مخادع شهوات ، وان طلبة العلم الديني يطلبونه للمناصب والمراتب والاموال والرواتب ، وأن الامر انصدع شملها ، وتفرق جمعها ، وان النساء ملأن اليوم الطرقات وأمن المخازن والسينمات ، وعاشرن الشبان في المدارس والملهيات ،وان البنات كسدن في البيوت ، لما آثر الشباب اللهو على الزواج ، والسفاح

على النكاح ، وان الاحياء غلب عليها سفهاؤها ، وضعف عن حكمها عقلاؤها ، وان الناس اختلفوا وتنازعوا ، وفشا فيهم الغش والخداع ، وان المحاكم هجرت شرع الله وحكمت بقوانين فرنسا ، وان الناس تركوا أشغالهم واشتغلوا بالسياسة ، وان الزعماء طلبوا المال والجاه ، وآثروا مصالحهم على مصالح الناس ، وان الموظفين غلبت عليهم الرشوات والبراطيل والسرقات ، واننا تركنا مصنوعات بلادنا وكرهنا ازياءها ، وتعلقنا بأذناب الغربيين ، واعطيناهم اموالنا ، وانه قد ارتفع الوفاق وحل الشقاق ، وذهب الرخاء وجاء السخط ، فالرجل يختلف ابداً مع زوجته ، والاب ينازعه ابنه ، والشريك يسرقه شريكه ، وليس فينا راض ولا قانع ولا سعيد ، مافينا إلا شاكٍ باكٍ ، كاره الحياة ، متمنٍ الموت ... ثم إننا لم نحسّ ان هذا كله من لعنة هذه المدنية الغربية ، ومن ثمراتها المرة التي لايمكن ان تثمر غيرها ...

ولكن لا ، فإن في دمشق خيراً كثيراً ، لا يعرف خيرها إلا من يعيش في غيرها ، إن دمشق التي يصفها الشيخ لم تمت ، ولا تزال تتردد دِماؤها ، فإما ان تنعشها (رابطة العلماء) ويمدها الاخلاص بالقوة حتى تنقذها ، وإما ان يغلب القضاء ، فيموت المريض تحت يد الطبيب ...

ولن تموت دمشق الإسلامية بحول الله ابداً !

نحن المذنبون

نشرت سنة ١٩٤٥

اهتزت الأرض لما كرَثَ دمشق ، وزلزلت الدنيا لمـا أصابها ، وانبرت أقلام بواتر تناصرها في محنتها ، وازدلفت إليها الوفود تمسح جراحها ، وتلعن جرّاحهـا ، ولم تبق في المشرق والمغرب صحيفة لم تتل أخبارها ، وتصف حريقها ودمارها ، وأنا في فراشي قد ملكتني الحمى فلم أشارك قومي في جهاد ، ولم أبذل لهم (وطالما كنت باذلاً) قلمي هذا الضعيف ولساني .

كنت أطل من شباكي على دمشق (وداري كما يعلم من يعلم من القراء تعلو عن دمشق ضاربة في الجبل مائتي متر) فأرى مساقط القنابل وأشاهد مواقع القذائف ، وأبصر النار تأكل بلدي الحبيب ، والرصاص يحصد حصداً قومي ، فأحس في أعصابي فوق الحمى حميات ، ولكني لاأقدر على شيء .

ولم أقرأ في هذه البرهة الطويلة مجلة ولا أبصرت (رسالة) ، ولا رأيت ممن وفد على دمشق من (الإخوان) الكرام أحداً ، ولا حضرت (وقد دعيت) لتكريمهم احتفالاً . قد قيدني المرض بفراشي فلا أستطيع له براحا .. وهذي أول ساعة أقدر فيها على القلم ، وأتمكن من زمامه ، رأيت فرضاً عليّ فيها فرض الاعتراف والوفاء ، أن أكتب للرسالة .

جلست لأكتب في محنة دمشق ، فرأيتها قد سارت بحديثها الركبان وامتلأت بها الآذان ، ومشت على كل لسان ، فكدت أدع القلم ، ثم قلت لنفسي ، لئن تأخرت اليوم فلقد كنت يوماً سباقاً ، يوم هوت تحت السنابك (باريس) ، وقام كتاب (منا ..) يبكونها ، وما يبكون إلا لذات لهم فيها محرمة فقدوها ، ومفاسق خسروها ، وكنا وكان سيف فرنسا العادية مسلولا علينا ، فكتبت في الرسالة (٣٦٨) في ٢٣ يولية ١٩٤٠ كلمة قصيرة ولكنها كسنان الرمح لايضره مع مضائه قصره ، صغيرة ولكنها كالقنبلة إذا تفجرت دمرت ، ولقد شرقت شظاياها وغربت فأصابت فيمن أصابت مستشار المعارف الفرنسي ، حملها إليه بعض (الاذناب ...) ممن تبدل اليوم لان الدهر تبدل ودار . فدعاني وكان بيني وبينه كلام لو أنا نشرته خفت ألا يصدقه من لايعرف قائله ، من القراء . لاأقول ذلك فخراً ولكن ليعلم الناس ، أنا – بني الشام – ماذللنا قط ولا خنعنا ، ولا أخافتنا فرنسا يوم كانت فرنسا وكان لها في الارض سلطان ، وبين الاعزة الاقوياء مكان !

* * *

ولئن فاتني الكلام في (حادث الشام) فما فاتني أن أكتب (على هامشه) ، وإن لديّ صوراً وإن في يدي عبراً ، إذا وفق الله وواليت نشرها في الرسالة ، اجتمع منها كتاب . ولست أعيد ماقاله الكتاب ، ولا أحب أن أعرّف المعروف . ولقد فرغ الناس من الحكم على فرنسا ومدنيتها ، وخرست ألسن كانت تسبح بحمدها ، وتمجد حضارتها ، وما تمجد منها (أقسم بالله) إلا مطارح الهوى الفاجر ، ومسارح الفن الداعر ، وجفت أقلام كانت في أرضنا « جيشاً خامساً » وما حديث الجيش الخامس ببعيد .. فلم يبق إلا أن نسوق

صوراً لايراها إلا القريب المشاهد ، وعبراً لايتنبه لها إلا الرقيب المفكر وأن نقذر قومنا يوما أشد ، وخطبا أعم ، إذا لم يقطعوا أسبابه ولم يغلقوا بابه ..

وإن أول ماينبغي أن نخرج به من هذا الذي كان أن نعلم أن الله عادل لايصيب قوماً إلا بما قدمت أيديهم ، وإن من بديع صنعه لهذه الامة أن يبعث لها هذه الشدائد تنبهها من غفلتها كلـما غفلت ، وتوقظها إذا نامت ، وإن من أسرار هذه العروبة أن الابتلاء هو الامتحان ، وأن الله يمتحننا ليرى أنفوز في الامتحان أم نكون من الخاسرين .. فتعالوا ياإخواننا نحاسب أنفسنا وننظر من أين أتينا ؟

أما أنا فلقد فكرت فرأيت أن الذنب ذنبنا ماهو بذنب الفرنسيين وأنك إن عانقت الحية فلدغتك فما تلام الحية بل تكون أنت الملوم ، إن الفرنسيين قد جروا على سنتهم ، واستجابوا لطبيعتهم ، ففاض إناؤهم بالذي فيه ، وما فيه إلا الطيش والحرق والغرور والتبجح وعشر أخر من هذه الصفات ، ولقد بلوناهم ربع قرن فما رأينا من حضارتهم إلا البارود والنار وآلات القتل والدمار ، ولا أبصرنا من فنهم إلا الفسوق والعري والاستهانة بالعرض وإضاعة الذمار ، ولا شاهدنا من قوتهم إلا العدوان على الاطفال والنساء والعجائز الكبار ، ولقد طالما تبدلت علينا الوجوه ، ولكن السنّة السنّة ، والطبع الطبع ، كل في الحماقة سواء .

ولكنا مع ذلك واليناهم وقد نهانا الله عن موالاتهم ، وقلدناهم وقد منعنا ديننا من تقليدهم ، وتركنا بياننا لرطانتهم ، وفضائلنا لازيائهم ، وشريعتنا لقوانينهم ، ومساجدنا لملاهيهم ، والقادسية لاوسترلتز ، وعمر لنابليون ، ومكة لباريس ؟

نحن أعطيناهم هذا السلاح الذي قاتلونا به : جاؤونا بالخمور تهري

أمعاءنا ، وتمزق أكبادنا ، فشربناها ودفعنا الثمن . وجاؤوا بالكتالوجات فيها الازياء العارية التي تذهب فضيلتنا ، وتفسد شبابنا وبناتنا ، فعملنا بها وتركنا لها قرآننا ودفعنا الثمن . وجاؤونا بالارتستات يخربن بيوتنا ، ويمرضن جسومنا ، ويسممن أرواحنا ، فهبطنا على أقدامهن ودفعنا الثمن . وجاؤونا بكل بلية فيها الاذى وفيها الهلاك ، فدفعنا الثمن ، فأخذوه فجعلوا منه دبابات وطيارات ثم أتوا فقالوا : هذا لجيشكم السوري[1]. أليس جيشكم ؟ قلنا : بلى ، وهل في ذلك شك ؟ قالوا : هاتوا ثمنه فدفعناه مرة ثانية ، فقاتلونا بسلاح شريناه نحن ودفعنا ثمنه مرتين !

نحن أعطيناهم الجنود الذين حاربونا بهم : أبناءنا ، قلنا لهم خذوهم وخذوا بناتنا فعلموهم في مدارسكم ، ونشئوهم على مبادئكم ، واستعمروا عقولهم كيف شئتم ، فجعلوا من أبنائنا عدواً لنا ، يا أيها القراء في مشارق الارض ومغاربها اعلموا أن الذي ضرب الشام بالمدافع (بإذن اوليفا روجه وأمره) إنما هو رجل شامي ومسلم وابن شيخ واسمه (علاء الدين الامام) !

* * *

فهل استيقظنا ؟ إذا لم توقظنا هذه المدافع المدوية ، إن لم ينبهنا لذع النار ، فما والله يوقظنا شيء .

هل علمتن يا آنساتي ويا سيداتي الآن ، ان هذا (الكتالوج) إنما هو (ديناميت) إن احتفظتن به في دوركن دمر الدور واهلها ؟ وأنكن حين تكشفن عن شيء من مواطن الفتنة في اجسامكن إنما تكشفن للعدو قلعة من قلاع الوطن ، لان كشفها يفسد اخلاق الشباب فتذهب رجولتهم ويفقدهم روح الكفاح ، ويشغلهم عن الحرب بالحب ؟ وان هذا الاحمر على خدودكن وشفاهكن إنما هو دم الشهداء

---

(1) لم يكن هذا الجيش يومئذ لنا .

لولاه ولولا اشباهه ماتمكن العدو منا ، وما كان ليغلبنا لولا ان اضاع علينا اخلاق صحرائنا ، وشغلنا عنها بكن ، وشغلكن بهذا الاحمر عن كل واجب عليكن ؟

هل علمتم ايها الآباء ان من يضع ابنه في مدرسة عدوه ، إنما يخون وطنه ودينه وربه ؟

وهل سمعتم ايها القراء اللعنة التي اطلقها في الشام ، خطباء على المنابر وأئمة في المحاريب ، فتجاوبت بصداها الاودية والشعاب :

ملعون كل ينسى ماصنع بنا الفرنسيون . ملعون كل من يحب فرنسياً او يتزوج بعد اليوم فرنسية ، او يشتري بضاعة فرنسية . ملعون من يدخل ابنه او بنته مدرسة فرنسية . ملعون كل شركسي اكل خبزنا وحاربنا . ملعون كل سوري اعان على بلده عدواً . ملعون علاء الدين الامام ، لعنة مجلجلة صارخة مستمرة متجددة ، متنقلة في البطون ، ماشية في الذراري ، لعنة الام التي فجعها الفرنسيون بوحيدها ، واليتيم الذي افقدوه اباه ، والزوجة التي ايموها بعد زوجها والاسرة التي قتلوا ربها وخربوا دارها ، والتاجر الذي احرقوا دكانه وسرقوا متاعه ، لعنة مغموسة بالدم ، مغسولة بالنار .

أحسن كما أحسن الله اليك

اذيعت سنة ١٩٥٦

نظرت البارحة فاذا الغرفة دافئة ، والنار موقدة وأنا على أريكة مريحة ، أفكر في موضوع أكتب فيه ، والمصباح الى جانبي ، والهاتف قريب مني ، والأولاد يكتبون ، وأمهم تعالج صوفاً تحيكه ، وقد أكلنا وشربنا ، والرادّ (الراديو) يهمس بأغنية حلوة يلقيها بصوت خافت .

وكل شيء هادىء ، وليس ما أشكو منه ، أو أطلب زيادة عليه .

فقلت : الحمد لله . أخرجتها من قرارة قلبي ، ثم فكرت فرأيت أن (الحمد) ليس كلمة تقال باللسان ولو رددها اللسان الف مرة ، ولكن الحمد على النعم أن تفيض منها على المحتاج اليها ، حمد الغني أن يعطي الفقراء ، وحمد القوي أن يسعد الضعفاء ، وحمد الصحيح أن يعاون المرضى ، وحمد الحاكم أن يعدل في المحكومين ، فهل أكون حامد الله على هذه النعم ، اذا كنت أنا وأولادي في شبع ودفء وجاري وأولاده في الجوع والبرد ؟ واذا كان جاري لم يسألني أفلا يجب علي انا أن أسأل عنه ؟

وسألتني زوجتي ؛ فيمَ تفكر ؟ فقلت لها .

قالت : صحيح . ولكن لا يكفي العباد إلا من خلقهم ، ولو أردت أن تكفي جيرانك من الفقراء ، لأفقرت نفسك قبل أن تغنيهم .

قلت : لو كنت غنياً لما استطعت أن أغنيهم ، فكيف وأنا رجل مستور ، يرزقني الله رزق الطير ، تغدو خماصاً وترجع بطانا ؟

لا . لا أريد أن أغني الفقراء ، بل اريد أن اقول ان المسائل نسبية ، وانا بالنسبة الى ارباب الآلاف المؤلفة فقير ، ولكني بالنسبة الى العــامل الذي يعيل عشرة وما له إلا اجرته ، غني من الأغنياء ، وهذا العامل غنيّ بالنسبة الى الارملة المفردة التي لا مورد لها ، ولا مال في يدها ، ورب الآلاف فقير بالنسبة لصاحب الملايين ، فليس في الدنيا فقير ولا غني ، فقراً مطلقاً وغنى مطاقاً ، وليس فيها صغير ولا كبير ، ومن شك فاني أسأله أصعب سؤال يمكن أن يوجه الى انسان ، اسأله عن العصفور هل هو صغير أم كبير ؟ فان قال : صغير . قلت : اقصد نسبته الى النملة . وان قال : هو كبير . قلت : اقصد نسبته الى الفيل .

فالعصفور كبير جداً مع النملة ، وصغير جداً مع الفيل .

وأنا غني جداً مع الأرملة المفردة الفقيرة ، التي فقدت المال والعائل . وإن كنت فقيراً جداً مع فلان وفلان من ملوك المال .

* * *

تقولون : ان الطنطاوي يتفلسف اليوم ، كلا ما أتفلسف ولكن أحب أن أقول لكم يا أيها السامعون ويا أيها السامعات أن كل واحد منكم ، وواحدة ، يستطيع أن يجد من هو أفقر منه فيعطيه . اذا لم يكن عندك يا سيدتي إلا خمسة أرغفة وصحن (مجدرة) تستطيعين أن تعطي رغيفاً لمن ليس له شيء . والذي بقي عنده بعد عشائه ثلاثة صحون من الفاصوليا والرز وشيء من الفاكهة والحلو ، يستطيع أن يعطي منها قليلاً لصاحبة الأرغفة والمجدرة . والذي ليس عنده إلا أربعة ثياب مرقعة يعطي ثوباً لمن ليس له شيء ، والذي عنده بذلة صالحة لم تخرق

ولم ترقع ولكنه مل منها ، وعنده ثلاث جدد من دونها ، يستطيع ان يعطيها لصاحب الثياب المرقعة ، ورب ثوب هو في نظرك قديم وعتيق بال ، لو أعطيته لغيرك لرآه ثوب العيد ، ولاتخذه لباس الزينة وهو يفرح به مثل فرحك أنت لو أن صاحب الملايين مل سيارته الشفرولية طراز سنة ١٩٥٣ بعد ما اشترى كاديلاك طراز ١٩٥٨ فأعطاك تلك السيارة .

ومهما كان المرء فقيراً فإنه يستطيع أن يعطي شيئاً لمن هو أفقر منه ، ان أصغر موظف لايتجاوز راتبه مئة وخمسين ليرة ، لا يشعر بالحاجة ولا يمسه الفقر اذا تصدق بليرة واحدة على من ليس له شيء وصاحب الراتب الذي يبلغ أربعمئة ليرة لا يضره أن يدفع منها خمس ليرات ويقول : هذه لله . والذي يربح من التجار عشرة آلاف في الشهر يستطيع أن يتصدق بمئتين منها في كل شهر .

ولا تظنوا أن ما تعطونه يذهب بالمجان ، لا والله انكم تقبضون الثمن أضعافاً ، تقبضونه في الدنيا قبل الآخرة . ولقد جربت ذلك بنفسي . أنا أعمل وأكسب وأنفق على أهلي من أكثر من ثلاثين سنة ، وليس لي من أبواب الخير والعبادة إلا اني أبذل في سبيل الله اذا كان في يدي مال ، ولم أدخر في عمري شيئاً ، وكانت زوجتي تقول لي دائماً : يارجل ، وفر واتخذ لبناتك داراً على الأقل ، فأقول : خليها على الله . أتدرون ماذا كان ؟

لقد حسب الله لي ما أنفقته في سبيله وادخره لي في (بنك) الحسنات الذي يعطي أرباحاً سنوية قدرها سبعون الفاً في المئة . نعم ! (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتتْ سبعَ سَنابِلَ في كلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حبَّةٍ) وهناك زيادات تبلغ ضعف الربح (ويضاعِفُ لمن يَشاءُ) فأرسل الله صديقاً لي سيداً كريماً من أعيان دمشق [1] فأقرضني ثمن الدار وأرسل أصدقاء

---

(١) هو الاستاذ السيد سعيد حمزة نقيب الاشراف

آخرين من المتفضلين (١) فبنوا الدار حتى كملت وانا والله لا أعرف من أمرها إلا ما يعرفه المارة عليها من الطريق ، ثم أعان الله برزق حلال لم يكن محتسباً فوفيت ديونها جميعا ، ومن شاء ذكرت له التفاصيل وسميت له الأسماء .

وما وقعت والله في ضيق قط إلا فرجه الله عني ، ولا احتجت لشيء إلا جاءني ، وكلما زاد عندي شيء واحببت أن أحفظه وضعته في هذا (البنك) .

فهل في الدنيا عاقل يعامل (بنك) المخلوق الذي يعطي ٥٪ ربحاً حراماً وربما أفلس او احترق او طيرته قنبلة ، ويترك (بنك) الخالق الذي يعطي في كل مئة ربحا قدره سبعون الفا ؟ وهو (مؤمن عليه) عند رب العالمين فلا يفلس ولا يحترق ولا يأكل أموال الناس .

فلا تحسبوا أن الذي تعطونه يذهب هدراً . ان الله يخلفه في الدنيا قبل الآخرة ، وانا لا أحب أن اسوق لكم الأمثلة فان كل واحد منكم يحفظ مما رأى او سمع كثيراً منها . انما اسوق لكم مثلاً واحداً : قصة الشيخ سليم المسوتي رحمه الله . وقد كان شيخ ابي وكان على فقره لا يرد سائلاً قط . ولطالما لبس الجبة او (الفروة) فلقي بردان يرتجف فنزعها فدفعها اليه وعاد الى البيت عاريا . وطالما اخذ السفرة من أمام عياله فأعطاها السائل . وكان يوما في رمضان وقد وضعت المائدة انتظاراً للمدفع فجاء سائل يقسم أنه وعياله بلا طعام فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له فأعطاه الطعام كله ؟ فلما رأت ذلك امرأته ولولت عليه وصاحت واقسمت انها لا تقعد عنده وهو ساكت ، فلم تمر نصف ساعة حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة فسألوا : ما الخبر ؟ واذا الخبر أن سعيد باشا كان قد دعا

(١) الاخوان الكرام الشيخ عبد القادر العاني والسيد سهيل الخياط والسيد فخري الحسني.

بعض الكبار فاعتذروا فغضب وحلف الا يأكل احد من الطعام وامر بحمله كله الى دار الشيخ سليم المسوتي .

قال : ارأيت يا امرأة ؟

وقصة المرأة التي كان ولدها مسافراً ، وكانت قد قعدت يوماً تأكل وليس امامها إلا لقمة ادام وقطعة خبز ، فجاء سائل فمنعت عن فمها واعطته وباتت جائعة ، فلما جاء الولد من سفره جعل يحدثها بما رأى قال : ومن اعجب ما مر بي أنه لحقني اسد في الطريق وكنت وحدي فهربت منه فوثب علي وما شعرت الا وقد صرت في فمه ، واذا برجل عليه ثياب بيض يظهر امامي فيخلصني منه ، ويقول : لقمة بلقمة ، ولم أفهم مراده .

فسألته عن وقت هذا الحادث واذا هو في اليوم الذي تصدقت فيه على الفقير ، نزعت اللقمة من فمها لتتصدق بها فنزع الله ولدها من فم الاسد .

والصدقة تدفع البلاء ويشفي بها الله المريض ، ويمنع بها الله الاذى وهذه اشياء مجربة وقد وردت فيها الآثار . والذي يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً هو يتصرف فيه وبيده العطاء والمنع ، وهو الذي يشفي وهو يسلم يعلم أن هذا صحيح ، والملحد ما لنا معه كلام .

والنساء اقرب الى الايمان ، والى العطف ، وان كانت المرأة بطبعها أشد بخلا بالمال من الرجل ، وأنا اخاطب السيدات وأرجو الا يذهب هذا الكلام صرخة في واد مقفر ، وان يكون له اثره ، وان تنظر كل واحدة من السامعات الفاضلات ما الذي تستطيع أن تستغني عنه من ثيابها القديمة او ثياب اولادها ، ومما ترميه ولا تحتاج اليه من فرش بيتها ، ومما يفيض عنها من الطعام والشراب ، فتفتش عن اسرة فقيرة يكون هذا لها فرحة الشهر .

ولا تعطي عطاء الكبر والترفع ، فان الابتسامة في وجه الفقير مع الفرنك تعطيه له ، خير من ليرة تدفعها اليه وانت شامخ الانف متكبر مترفع ، ولقد رأيت بنتي الصغيرة (بنان) من سنين تحمل صحنين لتعطيها الحارس في رمضان . قلت : تعالي يا بنت ، هاتي صينية وملعقة وشوكة وكأس ماء نظيف وقدميها اليه هكذا . انك لم تخسري شيئا ، الطعام هو الطعام ، ولكن اذا قدمت اليه الصحن والرغيف كسرت نفسه واشعرته أنه كالسائل الشحاد ، اما اذا قدمته في الصينية مع الكاس والملعقة والشوكة والمملحة ينجبر خاطره ويحس كأنه ضيف عزيز .

ومن ابواب الصدقة ما لا ينتبه له اكثر الناس مع أنه هين ، من ذلك التساهل مع البياع الذي يدور على الابواب يبيع الخضر او الفاكهة او البصل ، فتأتي المرأة تناقشه وتساومه على الفرنك وتظهر (شطارتها) كلها مع أنها قد تكون من عائلة تملك مئة الف وهذا المسكين لاتساوي بضاعته التي يدور نهاره ليبيعها ، لاتساوي كلها عشر ليرات ، ولا يربح منها الا ليرتين ، فيا أيها النساء اسألكن بالله ، تساهلن مع هؤلاء البياعين واعطوهم ما يطلبون واذا خسرت الواحدة منكن ليرة فلتحسبها صدقة ، انها أفضل من الصدقة التي تعطى للشحاد .

ومن ابواب الصدقة أن تفكر معلمة المدرسة حينما تكلف البنات شراء ملابس الرياضة مثلا ، او تصر على شراء الدفاتر الغالية والكماليات التي لاضرورة لها من ادوات المدرسة ، أن تفكر ان من التلميذات من لا يحصل ابوها اكثر من ثمن الخبز واجرة البيت ، وان شراء ملابس الرياضة او الدفاتر العريضة او (الاطلس) او علبة الالوان ، نراه نحن هيناً ولكنه عنده كبير ، والمسائل كما قلت نسبية ، ولو كلفت المعلمة دفع الف ليرة لنادت بالويل والثبور ، مع أن التاجر الكبير يقول : وما الف ليرة ؟

سهلة . سهلة عليه وصعبة عليها ، كذلك الخمس ليوات او العشر . سهلة على المعلمة ولكنها صعبة على كثير من الآباء .

والخلاصة يا سادة ! ان من احب ان يسخر الله له من هو اقوى منه واغنى فليعن من هو اضعف منه وافقر ، وان يضع كل منا نفسه في موضع الآخر ، وان يحب لاخيه ما يحب لنفسه . ان النعم انما تحفظ وتدوم وتزداد بالشكر ، وان الشكر لا يكون باللسان ولو امسك الانسان سبحة وقال ألف مرة : الحمد لله ، وهو يضن بماله ان كان غنيا ، ويبخل بجاهه ان كان وجيها ، ويظلم بسلطانه ان كان ذا سلطان لا يكون حامداً لله ، وانما يكون مرائيا او كذابا .

فاحمدوا الله على نعمه حمداً فعليا ، واحسنوا كما تحبون ان يحسن الله اليكم ، واعلموا ان ما ادعوكم اليـــه اليوم هو من اسباب النصر على العدو ومن جملة الاستعداد له ، فهو جهاد بالمال ، والجهاد بالمال اخو الجهاد بالنفس .

ورحم الله من سمع المواعظ فعمل بها ، ولم يجعلها تدخل من اذن لتخرج من الاخرى .



كل شيء للناس

نشرت سنة ١٩٥٩

من عادتي أني لا اركب ان استطعت المشي ، ولا أمشي في الظل إن قدرت أن أمشي في الشمس ، سواء علي في ذلك شمس لبنان في تشرين ، وشمس الهند في تموز ، وكان النهـــار أمس صائفاً حاراً ، فحللت هذا الرباط عن عنقي ، وطويته ووضعته في جيبي[١] فمـــر بي صديق احبه واحترمه . ولكني انكر عليه انه يتمسك بالعادات أكثر من تمسك العابد بالدين ، ويحرص على رضا الناس اشد من حرص الزاهد على رضا الله ، فلم يكد يفرغ من السلام حتى اقبل علي صارم الوجه ، بادي الاهتمام فقال : وكيف تصنع هذا ؟ فارتعبت وقلت :

- وماذا صنعت ؟

وجعلت اذكر هل احدثت في الاسلام حدثا ؟ او آويت محدثا ؟ او جنيت جناية ؟ فلما لم أذكر قلت :

- وضـــح ياأخي ، وقل لي ماالذي بلغك عني فلعل الذي بلّغك فاسق او كاذب .

- قال ، مابلغني أحد ولكني أرى بعيني . وأشار إليّ

---

(١) الجيب في اللغة فتحة القميص ولكني استعملتها بالمعنى المشهور الذي يفهمه القراء .

قلت وما ذاك ؟

- قال العقدة (الكرافات) كيف تمشي بلا عقدة هـــذا لايليق بمستشار . ماذا يقول عنك الناس ؟

فتركت الحوار وقعدت افكر .. فاذا نحن نعمل كل شيء للناس . نخنق انفسنا بهذه العقد التي نضعها في اعناقنا كالارسان ونتكلف منها في حر الصيف ما لايطاق من أجل الناس .

والنساء يتخذن هذه الاحذية الفظيعة ذوات الكعوب العالية مع أن المشي بها اصعب من المشي على الحبل ومن لم يصدق من الرجال فليمش مئة خطوة على رؤوس أصابع قدميه ، وهي فوق ذلك تصلب عضلات الساق وتشوه جمالها ، وما للبسها معنى ، وليس فيها جمال ، ولكن هكذا يريد الناس .

ورأيت مرة امرأة واقفة في الترام ، والمقاعد خالية ، وكلما دعوها لتجلس أبت ؛ ثم تبين لي أنها تلبس ازاراً (خراطة) ضيقاً عجيبـــاً لاتستطيع معه المشي إلا كمشي المقيد بالحديد ، ولا تستطيـع صعود درجة الترام إلا بكشف رجليها واخراجهما منهـا ، فلذلك لاتستطيع القعود ، تتساءلون لماذا تعذب نفسها هذا العـذاب ، من أجل الناس .

ومن الشبان من يصفف شعر رأسه تصفيفاً فنياً يشتغل به نصف ساعة ، ويبقى النهار كله خائفاً ان تهب نسمة هواء أو أن تقترب منه يد طائشة في الترام ، فتفسد هندسته ، وربما ادركته الحكة فاحتمل ألمها طول النهار ولم يستطع ان يمد اصبعه فيحكه ، لماذا ؟ لأجل الناس ! وكل خير هو للناس .

المرأة ظرفها ولطفها للناس . تقابل ضيوفها وصديقاتها بالوجه المشرق والفم الباسم ، والجرس الناعم ، والادب البالغ ، وزوجها ليس له الا التجهم والنظر الشزر ، واللفظ الجافي ، وكذلك يصنع الزوج .

وزينتها للناس ، اذا خرجت تزينت للغرباء وتعطرت وارتدت أجمل أثوابها ، وزوجها لاتلقاه إلا منفوشة الشعر ، كالحة الوجه ، تسبقها روائح السمن والبصل والثوم ، وكذلك يصنع الزوج .

والمائدة المرتبة في غرفة الطعام للناس ، فـــاذا جاء الناس صفت الاطباق والصحون ، ونضدت الاوراد والزهور ، وإن لم يكن أحد كان الأكل في المطبخ .

وغرفة النوم ذات الاسرّة المرتبة ، والاغطية المطرزة ، ليراها الناس . وأصحابها ينامون في غرفة أخرى ، فيها أسرّة من حديد ، ولحف بلا ملاحف

نتعب أنفسنا ونقيد اعناقنا وارجلنا للناس ، وكل خير عندنا للناس وان أردنا أن نزوج البنت ، لم ننظر الى مصلحتها ومصلحة زوجها ولم نفكر في اسعاد حياته وحياتها ، ولكن فكرنا في أيام العرس وحدها وسعينا لارضاء الناس فقط .

لانسأل ـ إلا قليلا ـ عن أخلاق الرجل وطباعه بل نسأل عن المهر الذي يدفعه لنقول للناس : مهر بنتنا عشرة آلاف . وعن الجهاز ليراه الناس فيقولوا : ماشاء الله . والله جهاز عظيم . وعن حفلة العرس نتسابق لإرضاء الشيطان باضاعة الاموال في هذا وأمثاله .

ثوب العرس الذي لايلبس إلا ليلة واحدة فقط يكلف مئتي ليرة على الاقل وقد يصل الى ألفين . وعلب الملبس ثمن الواحدة ليرة على الأقل وقد تصل الى العشرين .

وفيم كل ذلك ؟ لفائدة العروس ؟ لا والله ، للثواب والجنة ؟ لا والله ، لكسب المال ؟ لا والله ، فلم اذن ؟ للناس ! والناس بعد ذلك لايرضون لأنك مهما انفقت فان في الناس من ينفق اكثر منك فيقولون : ماهذه الحفلة ؟ وما هذه العلب ؟ علب فلان كان ثمنهـــا أكثر ، وحفلة فلانة كانت أكبر .

والمآتم مثل الافراح كلها تسابق الى إضاعة المال .

وياليت الأمر يقتصر على أصحاب العرس او عائلة الميت لا ولكن كل زواج وكل وفاة فيها نكبة ثلاثين أسرة .

يكون الزوج المسكين قد أعد مشروع موازنة الشهر ، وسهر الليالي وضرب الاخماس بالاسداس ، حتى استطاع أن يسدد حاجة الاسرة براتبه الذي لايتجاوز ثلاثمئة ليرة في الشهر . يشد لحافه ليغطي كتفيه ، فيكشف عن رجليه ، فاذا ستر رجليه ، انحسر عن كتفيه ، وبينما هو في ذلك اذ خطر على بال عمة امرأة خال زوجته ان تموت فجأة فتجيء الزوجة تطلب حالاً وبلا تأخر وبالسرعة الكلية (على لغة المبايعات الرسمية) اربعين ليرة ثمن ثوب أسود للعصرية .

فيقول : اسمعي ياامرأة ان موازنتنا لا تتحمل .

فتبكي وتعول وتقول : وكيف أذهب الى عصرية الفقيـــدة العزيزة المرحومة المأسوف على شبابها عمة زوج خالي بلا ثوب أسود وماذا يقول عني الناس ؟

قد تكون هذه العزيزة المأسوف على شبابها بنت تسع وسبعين سنة فقط . وقد تكون منقطعة عن زيارتها من ست سنين ، ولكن الحكاية حكاية : ماذا يقول الناس ؟

واذا ولد مولود لزوجة ابن صديق رئيسك او معلمك فيجب أن تقتطع من مرتبك الذي لايكفي ثمن خبزك لتقدم لها الهدية اللائقة كما يقدم امثالك ، وإلا فماذا يقول عنك الناس . ؟

واذا كنت مشغولاً باعداد درسك في المدرسة ، أو حساب عملائك في المتجر ، او تمريض بنتك المشرفة على الموت ، واذا كان لديك شغل الذهب ، وجاءك فجأة بلا موعد أحد العاطلين المعطلين الفارغين ، ليقطع

الوقت باللت والعجن[1] معك ، فلا تقل له : أنا مشغول . إياك والا فانت أعلم بما يقوله عنك الناس .

واذا كان جارك او عديلك غنياً يملك الملايين ، وكنت أنت مستوراً ليس لك إلا راتبك ، واشترى لبيته ثريا بألف ليرة ، وبرادة وغسالة وعصارة كهربائية وفرناً على الغاز وسجادة طولها ثمانية أمتار وعرضها خمسة ، فاذهب حالاً فاشتر مثلها ولو سرقت ونهبت وقطعت الطريق ، وإلا أوقعت نفسك في أفواه الناس . واذا أقامت زوجة التاجر الفلاني ، او الوارث العلاّني وليمة ، دعت اليها امرأتك ، وقدمت فيها لحم الطواويس ، وألسنة الشحارير ، والحلويات المصنوعة في روما ، الواردة بالطيارة الخاصة ، فيجب ان تعد زوجتك مثل ذلك وإلا تكلم عنها الناس .

والخلاصة انه يجب أن يكون قيامك وقعودك ، وأكلك ولبسك ، وفرش بيتك ، ونفقات يومك ، كما يريد الناس أن تكون ، ولو اختنقت حساً ومعنى ، ولو نكبت في سعادتك وفي مالك ، ولو احترق نَفَسُك ، وإلا انتقدك الناس .

الناس ، دائماً الناس . فيا أيها الناس ! متى نعيش لأنفسنا ؟ ومتى نستطيع أن نقف عند حد الشرع ، وحد العقل ؟ ومتى يخرج فينا العقلاء الاقوياء ، الذين يكسرون هذه القيود ؟

أما أنا ، فوالله ما أبالي هذا كله ، ولكن أعظ من شاء ان يتعظ ، ان يتبع دينه أولاً فلا يأتي محرماً ، ثم يتبع العقل ، ثم يعمل ما يراه خيراً ، ويمد رجليه على قدر لحافه ، وينفق النفقة الضرورية ويترك

---

(١) اللت والعجن من العامي الفصيح .

التبذير ، ولو كان أغنى الاغنياء ولا تخشوا قول النـــاس مادمتم لم ترتكبوا محرماً ولا ممنوعاً شرعاً .

وهل عند الناس إلا أن يقولوا ؟! لقـد قالوا عن محمد ﷺ وهو خاتم الانبياء مجنون ، وقالوا ساحر ، وقالوا كذاب ، فليقولوا عنكم ما شاؤوا ، ولا تبالوا بسخط الناس ، ان كنتم قد أرضيتم الله .



ابراهيم بك هنانو قال لي ....!

نشرت سنة ١٩٤٦ .

هذا إنذار، أستحلف كل قارىء من قراء الرسالة في الشام ان يحدث به وينشره ثم يحفظه ... فإنه سيجيء يوم تضطره أحداثه أن يعود إليه فيقول : « ياليته قد نفعنا هذا الانذار ، ياليتنا ... ويومئذ لاتنفع شيئاً « ليت » ... إنها لاترد ماذهب ، ولا ترجع مافات !

وهذا إعذار الى الله ، ثم الى كتاب التاريخ ، لئلا يقولوا إنها لم ترتفع في دمشق صيحة انكار لهذا المنكر ، ولم يعلُ فيها صوت ناطق بحق ... وإن كتابها وأدباءها حضروا مولد سنّةٍ من « ألْعَن » سنن إبليس ، فلم يقتلوها وليدة ضعيفة ، وتركوها تكبر وتنمو حتى صارت طاعوناً جارفا ، حتى غدت ناراً آكلة ، حتى استحالت داهية دهياء أيسر مافيها الخسف والمسخ والهلاك ... ونعوذ بالله من تذكير لاينفع وإنذار لايفيد !

وبعد فقد حدثني صديق لي فقال :

كنت أمس في مجلس ، وكنا نتحدث فيما كان « يوم العرض » من « مناظر الكشّافات ... ومنظر الاسيرة ... والعروس » حديثَ إنكار وأسف لما كان ، ونعجب كيف جاز على رجال هذا العهد الوطني ، وهم فيما نرى أهل الشهامة والمروءة والغيرة على الاعراض ،

وكان في المجلس الزعيم الجليل عضو مجلس النواب : ابراهيم بك هنانو[1] ، فرأيته يُعرض عن هذا الحديث ويَصرف عنه ، وانقاد له الحاضرون فضربوا في أحاديث أخرى ... فلما انفضّ المجلس خرجت معه ، فعاد الى يوم العرض وخبره ، واختصّني بهذا الحديث وأذن لي أن انشره..

قال رعاه الله : إنك لتعجب كيف تم هذا الخزي ، وكيف مرّ على رجال هذا العهد الوطني فلم ينتبهوا له ، وأنا أخبرك بسرّ ماتعجب منه وقعت عليه مصادفة ... وذلك أني ذهبت قبل العرض بأيام في حاجة لي الى منزل « فلان » الفرنسي ، ومنزله في الميدان الذي يتقاطع فيه الشارعان الكبيران : شارع يوسف العظمة ، وشارع كلية الهندسة ، فوجدت المنزل كأنه خال ، والمتاع مرصوص مربوط ، فعلَ المتهيء للسفر ، وكان النور يسطع من شق باب غرفته ، فهممت أن أدخل عليه ، فسمعت كلاماً وحديثاً ، فانتحيت ناحية أنتظر تمام الحديث ، إذ ليس من الأدب ان ادخل على متحدثَين ، فسقط إلي كلام لايستطيع المرء ان يغلق أذنيه عن مثله ، ولم يكن استراق السمع من عادتي ، غير أني وقفت ، وقد ادركت أن « فلاناً » هذا ، يتحدث مع « رجل ... » أعرفه من أذناب القوم ومن أعوانهم ، وممن رفعوا الى المناصب العالية ، وكانا يتشاكيان الفراق ، ويتحدثان وكأنما يتباكيان . ورب كلمات يقطر منها الدمع ! ورب حروف هي قلوب تتفطر ! ويتذكران الايام الماضية ، وكيف دارت الايام ، وكان من حديث صاحبنا الشامي الذي سمعته مترجماً الى لغة القلم ولسان الادب ، قوله :

ـ لئن كتب عليكم ان تذهبوا ، فانكم ستعودون عاجلاً ، ثم

---

(١) توفي رحمه الله سنة ١٩٣٥

لاتذهبون أبداً . على أني سأنتقم لكم ، وسأعدّ وحدي العدة لعودتكم. سأصنع في ليال مالم تصنعوه أنتم في ربع قرن وتسعة أشهر ... سأريكم قوتي . وليست القوة أن تسوق على عدوك العسكر اللجب والمدافع والدبابات تضرب بها قلعته ، ولكن القوة أن تأتيه باسماً مصافحاً فتحتال عليه حتى يفتح لك قلعته بيده ، فإذا انت قد امتلكتها بلا حرب ولا ضرب . إني سأدسّ لهم دسيسة في عيد الجلاء . لاأصبر والله حتى ينتهي العيد . انها فرصة ان لم اغتنمها لم اكد اجد مثلها وانا أعْرَفُ بأهل بلدي ، وان لم يكن دينهم من ديني ، إنهم لايؤتون بالقوة ولا تنفع فيهم ، وقد جربتم ورأيتم ، فما قتلتم منهم مبغضاً لكم إلا وُلد عشرة هم أبغض منه لكم ، وما هدمتم داراً من دورهم إلا هدمتم معها ركناً من « انتدابكم » عليهم ، ولا أشعلتم النار في حيّ لهم إلا كانت هذه النار حماسة في قلوبهم عليكم ونار ثورة تتعبكم . ولا يؤخذون بالشبه تلقى عليهم في دينهم ، ولا بالثقافة التي تحمل الإلحاد والكفر تحت عناوين العلم والفنّ ، وماجئتموهم بكتاب هو في زعمكم هدم لدينهم إلا أثرتم عليكم مشايخهم وجمعياتهم ، فهبّوا يدافعون ، فإذا انتم قد قوّيتم بعملكم إيمانهم في صدورهم . وما يُنالون بالقوانين التي تبطل قرآنهم ، وقد علمتم حينما جربتم أن تأتوا بالظهير البربري مهذباً ملطفاً لابساً ثوب « قانون الطوائف » ماذا جرى عليكم حتى ابطلتموه بأيديكم ، ولا بالأموال التي تشرون بها ضمائر زعمائهم وقادتهم : لأن من هذه الضمائر ما هو كالوقف (عندهم) لايباع ولا يشرى ولا يوهب ، ولا بارهاب الزعماء وحبسهم ، وهذا هو الرجل الذي ضربه سنة ١٩٣٦ رجالكم بعصيّهم صار هو رئيس الجمهورية التي تخرجون غداً منها ...

فقال له (فلان) الفرنسي :

- ومن أين تأتيهم أنت ؟ وهل تقدر على ماعجزت عنه فرنسا ؟

- قال : نعم . ولو كنتم قد سمعتم مني ماعجزتم . إني آتيهم من الباب الذي لايستطيع أن يراه أحد مفتوحاً إلا ولجه ، إني أحاربهم بغرائزهم فأجعلهم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، وأثير عليهم نساءهم وأثيرهم على نسائهم ، وألقي الضعف والخلف فيهم ، فأفسد عليهم رجولتهم ، وأخرّب أُسَرَهم ، وأجعل رجالهم أخشاباً قد شغلت كل خشبة بهواها ولذتها . إني آتيهم من باب « الغريزة الجنسية » الذي لم تدخل منه أمة إلا دخلت جهنم التي تحرقها ولا تخرج منها من بعدُ أبداً ...

- قال الفرنسي : أما أدخلناهم نحن من هذا الباب ؟ أما قلنا لهم ، إن تعريض أجسام الشباب والشابات للهواء والشمس صحة لهم وقوة ، فأبوا وقالوا ، كلا ، إنه تعريص (بالصاد) ؟ أما قلنا لهم ، إن هذا الحجاب همجية ووحشية ، وان التقدم والمدنية بالسفور ؟ أما أنشأنا لذلك جمعيات ... ؟ أما فتحت هذه الجمعيات مدارس ؟ أما صنعت هذه المدارس أكثر مما صنعت الفرنسيسكان ؟ إننا لم نصل بعد ذلك كله الى شيء !

- قال الآخر : إن الصبر عند الصدمة الاولى ، فإذا استطعت ان أضرب ضربة واحدة ضمنت النجاح ، وإني سآتيهم من طريق الوطنية ، سأقول : إنه يوم عيد الوطن ، عيد الجلاء ، عيد الرجال والنساء ...

* * *

قال إبراهيم بك :

ثم دخل داخل فتنحيت عن مكاني ، فلم أسمع شيئاً بعد ذلك ، فلما حضرت العرض ، ورأيت الذي كان ، عرفت من أين جاء البلاء . على أن هذا الرجل وأشباهه لم يصنعوا ماصنعوا حباً بفرنسا ولا إخلاصاً لهـا . إن قلوبهم أضيق من ان تتسع لإخلاص حتى ولو لفرنسا ...

ولكن حباً بأنفسهم ، وحرصاً على لذتهم ، إنهم يكادون يُجنّون ، إذ يجدون دمشق لاتزال نساؤها مستترات متحجبات ، ولا يفتؤون يتساءلون أن كيف السبيل الى هتك هذا الحجاب ؟ لماذا لانكون كفرنسا حيث لا تستر عورة ، ولا يحجب جمال ، ولا يمنع من لذة طالبها ؟ لقد احتجوا بالصحة وأن الحجاب ضعف ومرض ، فكذّبهم كون المتحجبات أصح أجساماً وأقوى وأبعد عن المرض ، وأن من السافرات مصابات بالزهري والسيلان . واحتجوا بالتمدن ، وأن الحجاب رجعية وتوحش فلم يصدقهم أحد ، فجاءوا هذه المرة فأخذونا على حين غرة وغفلة ، وأفادهم أن كان الناس في الفرحة الكبرى ، في عيد الجلاء ، فقالوا للناس : انه يوم الفرح ، فلتشارك المدارس فيه الامة ، ليظهر الطلاب والطالبات سرورهم ، ويعلنوا عاطفتهم ثم ذهبوا فأعدوا هذه (المناظر) التي كانت يوم العرض ، كبقعة النجس في ثوب العروس الأبيض ..

ألا من كان يظن أن مثل هذا يكون في دمشق ولا تزلزل الأرض زلزالها ؟ من كان يظن أن الآباء ينسون نخوتهم ؟ وهؤلاء النفر من رجال التعليم ، وهم الأمناء على الطالبات يضيعون أمانتهم ، ويحولون الأمر عن وجهته ؟ فبعد أن كان للعزة الوطنية وللمجد وللنبل ، صار للشهوة واللذة والغريزة الجنسية ! لقد جعلته هذه المشاهد (مرقصاً) ! ... كل ذلك تقليداً للأجنبي الذي نحتفل اليوم بجلائه عنا ، الاجنبي الذي هزم في الحرب ووطئته نعال أعدائه ، وقد كان له جيش لجب يزيد في عَدده عن جيش أعدائه ، وقد كان له خط ماجينو ، وأمة تعد أربعين مليونا ، ومستعمرات ... فلم يغن عنه جيشه ولا حصونه ولا عدده لما أضاع الاخلاق وفرط بالعفاف .

لا ، لاتقولوا : « إنه يوم العيد يجوز فيه ما لايجوز في غيره »

فان المرأة التي تسقط يوم العيد ، كالتي تزلّ يوم المـــأتم ، والناس يزدرون المرأة (الساقطة) من غير ان يسألوا متى كان سقوطها !

ألا من كان له قلب فليتفطر اليوم أسفاً على الحياء .

من كانت له عين فلتبكِ اليوم دماً على الاخلاق .

من كان له عقل فليفكر بعقله ، فما بالفجور يكون عزُّ الوطن ، وضمان الاستقلال ، ولكن بالاخلاق تحفظ الأمجاد وتسمو الاوطان .

فاذا كنتم تحسبون ان إطلاق الغرائز من قيـــد الدين والخلق ، والعورات من أسر الحجـاب والستر ، من ضرورات التقدم ولوازم الحضارة ، وتركتم كل إنسان وشهوته وهواه ، فإنكم لا تحمدون مغبة ماتفعلون ، وإنكم ستندمون (ولات ساعة مَنْدم) إذا ادلهمت المصائب غداً ، وتتالت الاحداث ، وتلفتّم تفتشون عن حماة الوطن ، وذادة الحمى ، فلم تجدوا إلا شباباً رخواً ضعيفاً ، لايصلح إلا للرقص والغناء والحبّ ...

فاللهَ اللهَ ، والأمةَ والمستقبلَ ... إننا خرجنا من هـذا الجهاد بعزائم تزيح الراسيات ، وهمم تحمل الجبال ، فلا تضيعوا هذه العزائم ، لاتذهبوا هذه الهمم ، ولا تناموا عن حماية استقلالكم فمن نام عن غنمه أكلتها الذئاب .

إن هذا الجـلاء نعمة من نعم الله ، فتلقوها بالشكر والطاعة ، واحفظوها بالجد والاخلاق ، فبالشكر تدوم النعم ، وبالاخلاص تبقى الأمم ، وبالمعاصي تبيد وتهلك ، إن اجدادنا كانوا يحتفلون بالنصر بحمد الله وطاعته فيقودهم الاحتفال إلى نصر جـديد ، وكذلك تفعل الامم الحية اليوم . أما سمعتم بحفلات تتويج ملك الانكليز ، لقد كان نصفها في الكنيسة ، فلمــاذا يكون احتفالنا بالجلاء اختلاطاً وتكشفاً وغناء

ورقصاً واستهتاراً ، كأننا لم ينزل علينا كتاب ، ولم يبعث فينا نبيّ ، ولم يكمل لنا دين ؟

إني أخاف والله أن يكون الاجنبي قد أجلى جيوشه عنا ، وترك فينا قنابل تنفجر كل يوم ، فتدمّر علينا أخلاقنا ، وأوطاننا ، واستقلالنا. إن كل عورة مكشوفة ، وفسوق ظاهر ، قنبلة أشد فتكاً من قنابل البارود ، ولا يخفى ضررها إلا على أحمق !

ياأيها الناس !

لقد جلت جيوش العدو عن أرضكم ، فأجلوا عن بيوتكم عاداتهم وعن رؤوسكم شبهاتهم ، وعن مدارسكم مناهجهم ، وعن شوارعكم حاناتهم ومراقصهم ، وعن محاكمكم قوانينهم ، وعن اجسام بناتكم وأولادكم ثيابهم الكاشفة الفاضحة وأزياءهم .

وذلك هو الجلاء الحق ، وذلك هو العيد الاكبر .

هذا ماقاله لصديقي ، الزعيم ابراهيم بك هنانو عضو مجلس النواب السوري ، أنقله بنصّه ، والعهدة على هذا الصديق .

* * *

لصوص الوقت

نشرت سنة ١٩٥٢

لي عادة قبيحة هي اني أسير في عملي على قاعدة (لا تؤخر الى غد ما تستطيع عمله بعد غد) فأنا ارجىء كتابة مقالاتي وأحاديثي الى اللحظة الاخيرة ، ثم أجمع ذهني وأسرع في كتابتها . أي اني على طريقة الارنب ، لا على طريقة السلحفاة . وقد قال اناتول فرانس (ليقل لافونتين ما شاء ، فإن الارنب تسبق السلحفاة دائماً) .

فلما كلفتني محطة الشرق الادنى بهذا الحديث أخرته حتى اذا لم يبق على موعد تسجيله إلا ساعتان ومدة السفر الى بيروت اعتكفت في غرفتي وبدأت أفكر في الموضوع ، فلا أعتمد موضوعاً . واني لفي تفكيري واذا بباب الغرفة يفتح بلا إنذار ولا إعذار ولا استئذان ، واذا بشابين غريبين عني لا أعرفهما يدخلان عليّ دخول المانيا على بلجيكا في الحرب الماضية ، أما أحدهما فله رأس كبير كرأس دب هائل ، قد نفش شعره من فوق ومن الجانبين ، حتى كأنه ديك حبش قد خرج من معركة ... ووضع فوق فمه شاربين لا شرقيين ولا غربيين ، يمتدان فوق الشفتين كأنهما حاجبا فتاة ... ثم ينزلان على جانبي الفم كذنب الجدي ، وقد منحه الله أكبر قسط من الغلاظة - بكسر الغين - والعياذ بالله ... أما الآخر فقد حف جانبي رأسه وعند صدغيه كأن قد

لحسبتها قطة وهو نائم وأطال شعره من فوق - على طريقة العم سام ..

وقعدا ، وخرجت اسأل في الدار من أدخل عليّ هـذا البلاء ، فإذا هي ابنتي الصغيرة سمعت قرع البـاب ، ففتحته ، ورأت الضيوف فأدركتها نوبة مبكرة من حمى الكرم الشرقي الذي لا يرد ضيفاً أبداً ، فأدخلتهما وأشارت بأصبعها الصغيرة الى غرفتي - فهبطا عليّ كموت الفجاة ..

وسلما فرددت رداً ضعيفاً فاتراً ، وسألتهما بشيء من الجفاء عن الخدمة التي أستطيع ان أؤديها لهما . وهذا معناه في البلاغة الجديدة ، انصرفا فلست مستعداً لأن أؤدي لكما خـدمة .. فانطلق الغليظ ذو الشعر المنفوش ، وأخذ يتكلم متحذلقاً متفيهقاً متفاصحاً بصوت يخـرج نصفه من أنفه ونصفه من بطنه ، والباقي (ان كان بقي شيء) يبلع بعضه ويجتر بعضاً ... وجعل يدور ويقـدم المقدمات من قبل الطوفان وأنا أتصبّر وأكاد أنشق من الغيظ وأحس ان كل عصب من أعصابي يسحب كوتر العود ثم يطلق .. وكلما وقف عند جمـلة ابتسم ابتسامة تقطع الرزق ، وتأمل نفسه معجباً كعجوز متصابية أمام مرآتها تقول : ما أحلاني ! فاذا أخونا المحـترم يريد أن يؤلف فرقة مسرحية ولم ير في الأدباء من هو أحق مني بشرف تأليف الرواية الاولى لها ...

قلت : وكم مدة التمثيل ... قال : نصف ساعة فقط

قلت : تدفعون مئتي ليرة ...

ولا أطيل على القراء وصف ما كان ، ويستطيعون أن يتصوروا النتيجة بسهولة إلا أن ما لا يستطيعون تصوره هـو ان الاخ قال لي وهو خارج : بس آسف . إنا لم نكلفك شيئاً ، انها لا تكلفك إلا ساعة من وقتك .

لا تكلفني شيئاً إلا ساعة من وقتي ، هذا هو الموضوع الذي كنت

أفتش عليه لقد وجدته ؟ الموضوع هو سرقة الوقت ، والوقت هو العمر ، وهو أعز شيء على الانسان . ولولا الوقت ما كسب مال ، ولاحصل علم ، ولا نال أحد دنيا ، ولا ضمن أخرى ، فهل في السرقات أفظع وأعظم من سرقة أوقات الناس . ومن منا لا يشكو منها ولا يتألم . ثم لايستطيع أن يدفع ذلك ولا يستطيع ان يشكو أمره الى القاضي ، لأن القانون جعل سرقة خمس ليرات جريمة يعاقب فاعلها ، وترك من يسرق الوقت الذي يساوي الف ليرة لا يعاقبه ولا يعاتبه .

فماذا أصنع وكيف أفر من هؤلاء الذين يسرقون وقتي ؟ آتي المحكمة منذ الصباح لادقق في دعاوى اليوم . فيدخل عليّ صديق ثقيل ، لا يمنعه إغلاق الباب ولا بكور الوقت ، فأحاول صرفه بالحسنى فأحادثه حتى أظن اني قد قمت بحقه ، وانه قد سكت فأنصرف الى عملي ، فلا أكاد أجمع ذهني وأقبل على أوراقي حتى يفتح فمه ويلقي الجوهرة (كيف الصحة) (الله يحفظكم الحمد لله بس الشغل كثير كل يوم نحو أربعين دعوى كما ترى ، فأنا آتي باكراً لأدققها) وأقول في نفسي انه لو كان حيواناً لفهم الآن . وأرجع لعملي مطمئناً . فلا تمضي مدة حتى يلقي جوهرة أخرى (قضايا الطلاق كثيرة موهيك ؟) فأجيب بما تيسر ، ويسكت . فأعود الى عملي فلا أكاد أستغرق فيه حتى ، ينطق المحترم فيقول (يمكن القضاء مزعج) فأنفزر وأنفجر وأنسى كل آداب الاجتماع وأصرخ فيه (بل أنت والله المزعج ، مانك شايف شغل جاي تتسلى على حسابي) ويذهب يحدث الناس باني غليظ شرس مغرور بالوظيفة قليل التهذيب . ويشيع فيّ مقالة السوء .

فماذا أصنع أيها القارىء الكريم ؟

وأكون ماشياً في الطريق مستعجلاً مسرعاً الى موعد لا بد منه ،

وقد قدرت ان أصل على الدقيقة ، فيطلع عليّ غليظ كأنه مارد انشقت عنه الارض ، ويمد اليّ ليصافحني يداً كمجرفة الخباز التي يجرف بها الخبز من بيت النار ، ويمضي ليحدثني حديثاً لا ينفعني ولا ينفعه ، وانما هو كلام فارغ امتلأت به نفسه ، فلم يجد أحمق يصبه في أذنه لينفّس عن نفسه إلا أنا ... او ينادبني من بعد ثلاثين متراً (أستاذ) فأتصامم وأسرع كأني ما سمعت فيصرخ (يا أستاذ طنطاوي) ويتطوع ثلاثة على الاقل من المارين والواقفين فيعاونونه علي وينادون : يا أستاذ طنطاوي فيصير الاستاذ الطنطاوي لا علماً في رأسه نار ، بل شعلة مدخنة على عصا لها صوت ، فهي تشغل السمع والبصر والشم والحمد لله على الشهرة ... وأقف أنتظر هذا الرجل الذي ينادبني كأن له عليّ ديناً حان سداده ، او كأني مجرم فار وهو شرطي أمين ، او كأن عنده بشارة لي بأن قريباً لي لا أعرفه من أسلافي في طنطا مات وأورثني عشرة آلاف جنيه ويصل فيقول :

يا أستاذ وينك والله مشتاق اليك كيفك كيف حالك ...

فماذا ياناس ، ماذا أعمل له ؟ أضربه ؟ أسبه ؟ أتركه وأمشي ؟ أخشى أن يقول الناس غير مهذب ، فأضطر الى محاسنته وملاطفته ، وأن أدعه يقول لي (مشتاق) فأقول (أنا بالاكثر) وكلانا كاذب . والذي يفيق من الصبح يظن أن الناس كلهم مثله فيطرق عليّ الباب من الساعة السادسة فأقوم من الفراش مذعوراً - واذا بالزائر من لطفه يقول (ما بدي أعطلك بنتزل سوا) كأن الانسان يقفز عادة من سريره الى باب الزقاق ، ولا يدري حفظه الله ، انه يعمل أشياء ويغسل ويأكل ويلبس فاضطر أن أدع هذا كله وأن أقعد لأونسه وأسليه وأسمع ثرثرته .

وآخر يسهر يظن أن الناس كلهم مثله فيطرق عليّ الباب الساعة العاشرة ليلا فأدع نومي لأقعد معه الى نصف الليل أحادثه وأصغي الى

هذيانه ، وأوقظ ربة الدار التي تعبت طول النهار لتترك راحتها ونومها وتعمل له القهوة والشاي ، وربما زاد معه اللطف ورفع الكلفة فطلب العشاء .

وثالث يدهمني وأنا خارج من الدار الى عملي او موعدي ويرجعني لأقعد معه . فمتى يا ناس ! يا أيها المستمعون والمستمعات ! نعرف قيمة الوقت ؟ ومتى نعلم أن من يسرق من آخر ساعة من وقته يكون كأنه سرق ديناراً من جيبه ؟ ومتى نتأدب بآداب القرآن ، ونذكر قوله تعـــالى (لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكُم حتّى تَستأنِسوا) أي تستأذنوا وقوله (وان قيلَ لَكُم ارجِعوا فارْجِعوا ... الخ) آسف ان الإفرنج حفظوا آداب ديننا هذه ونحن نسيناها .



رمضان

نشرت سنة ١٩٥٩

لما قعدت أكتب هذا الحديث ، تقابلت في نفسي صورتان لرمضان : رمضان المزعج الثقيل ، الذي قدم يحمل الجوع والعطش ، ترى الطعام أمامك ، يدك تصل اليه ونفسك تشتهيه ، ولكنك لاتستطيع أن تأكله، ويلهب الظمأ جوفك ، والماء بين يديك ولكنك لاتقدر أن تشربه ، وتكون في أمتع نومة ، فيأتي رمضان فيوقظك لتأكل من جوف الليل وأنت تؤثر لحظة منام على كل مافي الدنيا من طعام ، وإن كنت صاحب دخان منعك من دخينتك (سيكارتك) ، او نارجيلتك ، فهو شهر مشقة وتعب ، وجوع وعطش .

ورمضان الحلو الجميل الذي يقوم فيه الناس في هدءات الاسحار ، وسكنات الليل ، حين يرّق الافق ، وتزهو النجوم ويصفو الكون ، ويتجلى الله على الوجود يعرض كنوز فضله على الناس ، ويفتح لهم باب رحمته ، يقول جلّ وعلا : « ألا من مستغفر فأغفرَ له ، ألا من سائل فأعطيَه » فيسأل الطالب ، ويستغفر المذنب ، فيعطى السائل ويغفر للتائب ، وتتصل القلوب بالله فتحس بلذة لاتعدل لذاذاتُ الدنيا كلها ذرة واحدة منها ، ثم يسمعون صوت المؤذن يمشي في جنبات الفضاء مشيَ الشفاء في الاجسام والطرب في القلوب ، ينادي « الصلاة

خير من النوم » ، فيقومون الى الصلاة يقفون بين يـدي مصرف الاكوان يناجون الرحيم الرحمن ، فيسري الايمان في كل جنان ، ويجري التسبيح على كل لسان ، وتنزل الرحمة في كل مكان .

رمضان الذي ينيب فيه الناس الى الله ، ويؤمّون بيوته ، فتمتلىء المساجد بالمسلمين ، متعبدين او متعلمين ، لامتحدثين ولا نائمين ، ففي كل بلد من بلاد الاسلام مساجد حفتّل بالعبّاد والعلماء ، ليس يخلو مجلس فيها من مصل أو ذاكر ، ولا اسطوانة من تالٍ أو قارىء ، ولا عقد من مدرس او واعظ ، قد ألقوا عن قلوبهم أحمال الاثم والمعصية ، والغل والحسد ، والشهوات والمطامع ، ودخلوا المساجد بقلوب صفت للعبادة وسمت الى الخير ، قطعوا اسبابهم من عالم الارض ليصلوها بعالم السماء ، تفرقوا في البلدان واجتمعوا في الايمان ، وحدتهم هذه القبلة التي يتوجهون كلهم اليها ، لاعبادةً لها ولا ايماناً بها ، فما يعبد المؤمن الا الله ، وما الحجر الاسود إلاحجر لايضرّ ولا ينفع ، وانما هو رمز الى ان المسلمين مهما تناءت بهم الديار ، وتباعدت الاقطار ، امة واحدة ، دائرة محيطها الارض كلها ، ومركزها الكعبة البيت الحرام .

رمضان الذي نجتلي فيه أجمل صفحات الوجود وما كنا لنجتليها قبل رمضان ، لان الحياة سفر في الزمان ، يحملنا قطار الاعمار ، فاذا قطع بنا أجمل مراحل الطريق ، حيث يولد النور ، وتصفوا الدنيـا ، ويسكن الكون ، مرحلة السحر ، قطعها بنا ونحن نيام لانفتح عليها عيوننا ولا نبصر جمالها .

رمضان الذي تتحقق فيه معاني الانسانية ، وتكون المساواة بين الناس ، فلا يجوع واحد ويتخم الآخر ، بل يشترك الناس كلهم في الجوع وفي الشبع ، غنيّهم وفقيرهم ، فيحس الغني بألم الجوع ، ليذكره من

بعد اذا جاءه من يقول له : أنا جوعان ، ويعرف الفقير قيمة نعمة الله عليه ، حين يعلم ان الغني يشتهي على غناه رغيفاً من الخبز او كأساً من الماء ، ويعلم الجميع حين يجلسون الى مائدة الافطار ، ان الجوع يسوّي بين المطاعم كلها : القوزي والنمورة وصحن الفول المدمّس وقطعة الجرادق ، وليس الذي يطيب الطعام غلاء ثمنه ، ولا جودة صنعه ، ولا حسن مائدته ، ولكن الجوع الذي يشهّيه ، والصحة التي تهضمه ، وأرخص طعام مع الصحة والجوع ألذّ من موائد الملوك لمن كان مريضاً او شبعان .

ويغدو الناس كأنهم اخوة في أسرة واحدة ، أو رفاق في مدرسة داخلية يفطرون جميعاً في لحظة واحدة ، ويمسكون جميعاً في لحظة واحدة ، فتراهم المساء مسرعين الى بيوتهم ، او قائمين على مشارف دورهم ، أو على ابواب منازلهم ، ينظرون في ساعاتهم ويتطلعون الى المآذن بعيونهم ، والى المدفع بآذانهم ، فاذا سمعوا ضربة المدفع ، او ابصروا ضوء المنارة ، او رنّ في اسماعهم صوت المؤذن ، عمت الفرحة الكبار والصغار ، فانطلقت وجوه الكبار وصاح الصغار بنغمة موزونة : « أذن أذن . أذن » وطاروا الى دورهم كعصافير الروض ، يرضى كل بما قسم له ، ويحمد الله عليه ، قد راضهم الجوع على ان يتقبلوا كل طعام فكل طعام هو في اذواقهم تلك الساعة اطيب طعام .

فاذا فرغوا من طعامهم ، أموا المساجد فقاموا بين يدي ربهم وخالقهم ، صفاً واحداً ، متراصة اقدامهم ، ملتحمة اكتافهم ، وجباههم جميعاً على الارض . الغني والفقير ، والكبير والصغير ، والصعلوك والامير ، يذلون لله ، يضعون له وجوههم عند مواطىء الاقدام ، فيعطيهم الله بهذه الذلة له عزّة على الناس كلهم ، فتخفض لهم رؤوس الملوك والجبارين حتى تقع على أقدامهم ، ومن ذل لله أعزه الله ، ومن

كان لله عبداً جعله الله في الدنيا سيدا ، ومن كان مع الله باتباع شرعه والوقوف عند أمره ونهيه ، وإتيان فرائضه واجتناب محرّماته كان الله معه بالنصر والتوفيق والغفران ، وبذلك ســـاد اجدادنا الناس ، وفتحوا الارض من مشرقها الى مغربها ، وحازوا المجد من أطرافه ، وأقاموا دولة ماعرف التاريخ أنبل منها ولا أفضل ولا أكرم ولا أعدل

رمضان الذي يجمع للصائم صحة الجسم ، وصحة الروح ، وعظمة النفس ، ورضا الله .

ان الصيام من سنن الرياضيين ، وسلوا كتب الرياضة وسلوا شيخها مكفادن ، ولست طبيباً ولكني جربت بنفسي ، ورب مجرّب أعرف بنفسه من طبيب ، فأنا احد من اضنتهم الرثية (الروماتزم) وحصوات الكلى ، ولقد راجعت في علاجها ستة وثلاثين طبيباً ، اي والله ، وأحسبني جربت لها كل علاج ، فلم أجد لها ، مثل الصيام ، والصيام يصفي الجسم ، ويطرح سمومه ، وينفي عنه الفضلات ، ويبعد عنــــه الامراض .

هذه صورة رمضان الحلوة . افــلا تستحلى معها مرارة الصورة الاخرى ، انه دواء فمن من العقلاء لايحتمل ألم الدواء لما يرجو بعده من لذة الشفاء .

هذا هو رمضان فاذا اردتم ان تصوموا حقاً ، فصوموا فيه عن الاحقاد ، والمآثم ، والشرور ، كفوا لسانكم فيه عن اللغو ، وغضوا فيه ابصاركم عن الحرام ، واعلموا ان من الصائمين من ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ذلك الذي يترك الطعام ويأكل بالغيبة لحوم اخوانه ، ويكف عن الشراب ولكنــــه لايكف عن الكذب والغش والعدوان على الناس ، ولقد سأل الرسول ﷺ اصحابه ، من المفلس ? قالوا :

المفلس فينا من لا مال له ولا درهم ، قال : المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وحسنات ويأتي قد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فلا يبقى له شيء ، وافظع الذنوب الكذب ، الكذب بالقول والكذب بالفعل ، بأن تتزيا بزي الصالحين ، وتتخذ سمت المتقين وأنت مراء مخادع تريد ان تأكل الدنيا بالدين ، ولقد سئل الرسول ﷺ ، هل يسرق المؤمن ! هل يفعل كذا وكذا من الذنوب ، فأجاب بأنه ربما وقع ذلك منه فتاب ، فسألوه ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون .

ولقد بين ﷺ بان من غش فليس منا ، وهذا قانون من مادة واحدة معناه بلسان اليوم : « يطرد من الجنسية الاسلامية من يغش » !

ففتشوا في الصائمين ، أليس فيهم من يكذب ، أليس فيهم من يغش ؟ أليس فيهم من يخلف الوعد واخلاف الوعد ثلث علامات النفاق ؟ فكيف يرجو هؤلاء أن يكون لهم ثواب الصائمين ، وهم قد صاموا عن الطعام الحلال ولم يصوموا عن الحرام .

ان الدين المعاملة ، ومقياس الصلاح الصفراء والبيضاء ، الذهب والفضة ، المال ، هذا هو المقياس ، ولقد زكى رجل رجلاً عند عمر فقال له ، هل عاملته ؟ هل سافرت معه ؟ أم لعله غرك منه احناء رأسه في الصلاة ، وتحريك لسانه بالتسبيح .

الدين المعاملة ، والمقياس المال .

وبعد يا أيها الصائمون فان رمضان شهر الحب والوئام ، فكونوا فيه اوسع صدراً ، واندى لساناً ، وابعد عن المخاصمة والشر واذا رأيتم من نسائكم زلة في رمضان فاحتملوها ، وان وجدتم مساءة من اخوانكم فاصبروا عليها ، وإن باداكم أحد بالخصام فلا تقابلوه بمثله ، بل ليقل أحدكم : اني صائم .

واذا جعتم هذا الجوع الاختياري ، فاذكروا من يتجرع غصص الجوع الاجباري . واشكروا على نعمة ربكم . وليس الشكر ان ترددوا ألف مرة باللسان : الحمد لله ، الحمد لله . ولكن شكر الغني بالبذل للفقراء ، وشكر القوي اسعاد الضعفاء .

وأعطوا من نفوسكم كما تعطون من أموالكم ، فرب بسمة مع العطاء تنعش السائل أكثر من العطاء . وكلمة خير لجار ، تحيي الجار وبش في وجه ذي الحاجة والاعتذار عنها ، خير من قضائها مع الترفع عليه عند السؤال ، والمنّ عليه بعد النوال .

فجربوا هذه العطية في رمضان .

وخذوا منه الصحة لاجسامكم ، والسمو لأرواحكم ، والعظمة لنفوسكم ، والقوة والنبل ، والبذل والفضل ، وخذوا منه ذخراً للعالم كله ، يكن لكم ذخراً .

رمضان الذي تشيع فيه خلال الخير ، ويعم الحب والوئام . فاذا أردتم ان تصوموا حقاً فصوموا عن الاحقاد ، واذكروا مافي اعدائكم من خلال الخير ، فأحبوهم لاجلها ، واغفروا لهم وادفعوا بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينكم وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وليس يخلو أحد من خلّة خير ، وليس في الدنيا شر مطلق حتى الموت ، فانها تمر بنا ساعات نرتجي فيها الموت ، حتى ابليس ، فإن له مزّية الثبات والذكاء ، وما أمدح إبليس ، لعنة الله على إبليس ، ولكن أضرب للناس الامثال .

مزعجات رمضان

نشرت سنة ١٩٥٦

أنا أكتب في الصحف والمجلات من ثلاثين سنة ، والكتابة هي حرفتي ، ولم أكن مع ذلك من المجلين السابقين في درس (الانشاء) في المدرسة ، وكان بعض إخواننا في (الصف) ممن صاروا اليوم أبعد الناس عن الكتابة وان صاروا من اعلام السياسة او العلم او الاقتصاد - يأخذون من علامات النجاح أكثر مما آخذ ...

لا لأنهم كانوا يكتبون أحسن مما أكتب ، بل لأن المدرس كان يحدد لنا الموضوع ، وعدد الاسطر ، ووجهة التفكير ، فلا أستطيع مع هذه القيود أن أسير ، كماء الساقية ان أقمت في وجهه السدود ، ومنعته أن يجري في مجراه ، وقف ثم انقلب من رقراق عذب متحدر الى بركة آسنة .

لذلك كنت أخيب ، فلا عجب اذا خبت اليوم ، وقد جاء محرر مجلة الاذاعة يعيد معي قصة مدرس الانشاء فيحدد لي الموضوع والاسطر : فالموضوع تقاليد : رمضان الماضي ، والمجال صفحة او صفحتان من المجلة .

وأنا أعرف رمضان الذي كان يجيء دمشق من أكثر من أربعين سنة ، ولا أزال أذكر ملامح وجهه ، ولون ثيابه ، والذي افتقدته من زمن بعيد فلم أعد أراه .

لقد تبدل كما تبدلت أنا ، ونحن كل يوم في موت وحياة ، لقد مات كما مات فيّ ذلك الطفل الذي كان يذهب الى المدرسة قبل إعلان الحرب الاولى ، وأين ذلك الطفل ؟ انه مضى كما مضى رمضان الى حيث لا يعود الذاهبون ، وجاء في مكانه انسان آخر يحمل اسمه ولكنه ليس اياه ، كما يحمل رمضان هـذا اسم رمضان الماضي وليس ذلك الـ (رمضان) .

أنا أعرفه ، وأذكر كيف كان يستقبله الشاميون ، وأعرف أن للحديث عنه متعة ولذة ، ولكني قاعد من ساعتين أحاول أن أحصر ذهني لأكتب عنه فلا أجد في ذهني الا (مزعجات رمضان) ، يجول الفكر ثم يقف عليها ويستقر عندها ، وقد يكون الفكر كالفرس الجامح لا يمشي بك حيث تريد أنت ، بل حيث يريد هو ، ولم يبق أمامي الا أحد أمرين : اما أن تعفيني المجلة من المقال ، واما أن اكتب في مزعجات رمضان .

ولست أعني بالمزعجات الجوع والعطش واضطراب ميزان اليقظة والمنام فذلك شيء لابد منه ، ولولاه لم يكن لرمضان معنى . وأي معنى يبقى لـ (التدريب العسكري) اذا خلا من المشقة والتعب ، وبذل الجهد ، وصار نوماً متصلا وأكلا وشرباً واسترخاء ؟

ولكن أعني مزعجات الناس ، واذا كان قراء المجلة يعدونني بأن يكتموا ما أقول عن مدير الاذاعة ، لقلت لهم ان شطر هذا الازعاج من الاذاعة ، والشطر من الناس .

ازعاج يستمر من الصباح الى المساء ، ولا ينقطع لحظة واحدة نرجع فيها الى أنفسنا ونستطيع أن نستجلي فيها طلعة رمضان ، او نحس بوجوده . ورمضان أجمل مرحلة في طريق الزمان ، يمر فيه

(١) نشرت في مجلة الاذاعة

ركب الانسانية على الروض الانيق ، فيرى المشهد البارع ، ويشم العطر العبق ، ويسمع من صدح البلابل وهديل الحمام ، ما يرقص من الطرب القلوب .

ولكن كيف يرى المشهد من يزدحم عليه الناس حتى يسدوا في وجهه منافذ النظر ؟ وكيف يشم الاريج من تهب من حوله العواصف ؟ وكيف يسمع الصوت الرقيق من تحف به ضجة تزلزل الارض ؟

انها مائدة حافلة ولكنكم لا تدعونني أتناول لقمة منها حتى تصدوني عنها .

انه شهر التأمل والعبادة ، ولذة الروح ، وانس القلب ، ولكنكم لا تتركون لي ساعة ، ساعة واحدة أستمتع بهدأة التأمل ، وذهلة الحلم ، ونشوة المناجاة .

وهذا هو الموجز وهاكم تفصيل الأنباء كما يقول المذيع :

أما الاذاعة فهي لا تسكت من صباح الله الباكر الى نصف الليل ولا تستريح ولاتريح ولا تكف لسانها دقيقة ، ولو كانت تذيع ما يعين على الخشوع والعبادة في رمضان ، وما يذكر بالله لهان الخطب ، ولكنها تذيع الاغاني التي أجمعت كلمة الانس والجن على استنكار أكثرها وأنا لا أقول للاذاعة : لا تغني ! لأني لا أحب ان أقول كلمة أعلم انه لن يستجاب لها ، ولكن أقول ان موسيقا الناس نصفها ألحان معبرة ، ونصفها كلام ملحن ، وموسيقانا كلها كلام ، وأن الكلام في موسيقاهم نصفه للمرأة ونصفه للطبيعة والوطن والحياة وما عندنا كله للمرأة وان ما للمرأة عندهم نصفه من الغزل السامي والاتباعي (الكلاسيك) ونصفه غزل خفيف وليس عندنا الا هذا الغزل الخفيف ، بلفظ عامي

فظيع ، ومعان شنيعة مبتذلة ، ونغم مسترخ متخنث ، وهم يجدون كل يوم جديداً ونحن لعقم القرائح نردد ونعيد . ولماذا أعمم القول فأكون ظالماً ؟ لا ليس كله كذلك ! وقد نسمع أغاني تبلغ في جمال لفظها ، وحسن معناها ، وتوقيع لحنها ذروة الكمال ، ولكنا نسمعها أول مرة فنستجدها ونستجيدها ونستعيدها ، ونسمعها الثانية فنطرب لها ونسر بها ، ونسمعها الثالثة فنستملحها والرابعة فلا نكرهها ، والخامسة فنبدأ بالاعراض عنها ، والسادسة فنضيق بتكرارها فلا تزال الاذاعة تعيدها حتى تأتي المرة العاشرة والخامسة عشرة والسادسة والسبعين فتطلع منها أرواحنا . ولو كانت الشهد المصفى او الفالوذج وأطعمتها انساناً كل يوم عشر مرات ، وحشوت بها فمه جائعاً وشبعان ، راغباً وكارهاً ، لصار لها في فمه طعم العلقم .

أما الناس فإزعاجهم أكبر وانكر وانا أستطيع ان أسد الراد فلا أسمع ما تذيع الاذاعة ، او آخذ منه ما صفا وادع ما كدر ، ولكن ما أصنع بمن لا يطرب الا إن أشرك معه بسماع الاغنية مئة جارة وجار ، من أمام ومن خلف وعن اليمين وعن اليسار ؟ فكيف ننام ، وكيف نشتغل ، وكيف نخلص التوجه الى الله ، ومن كل جهة من حولنا ، هـذه المصائب الثقال ، والضجة المروعة ، وفريد الاطرش وهذا الآخر والعياذ بالله ، عبد الحليم حافظ !

فاذا سكت الراد في الساعة الثانية عشرة وحاولت ان تنام ، لم تمر نصف ساعة حتى يجيء (ابو طبلة) هذه الآفة التي لا دافع لها ، المسحر الذي ضاقت به الصناعات والمهن فلم يجد له صنعة الا ان يحمل طبلا ثم يأتي نصف الليل ليقرع بـه رأسك ، ويوقظك من منامك وأعجب العجب ان يعترف المجتمع بهـذه الصنعة ويعدها من الصناعات

المقررة ، ويوجب عليك ان تقول له ، أشكرك ، وان تدفع له في آخر الشهر اجرته على انه حطم أعصابك ، وكسر دماغك .

وأنا أفهم ان يكون المسحر موضع في الماضي ، اما اليوم وفي كل بيت ساعة ، وفي كل حي منارة عليها مؤذن ، وفي البلد مدفع يوقظ صوته أهل المقابر ، فليس للمسحر موضع فينا .

فاذا انقضى السحور وأردت أن تنام عادت أختنا الاذاعة الى (وراك وراك) و (يابياع الورد) ، وعاد الجيران الى تطبيق الجو بهذه الاصوات ، وجاء بياع الحليب ، وبياع الفول ، ومصلح البوابير ، و (الذي عنده خزانات للبيع والذي عنده كنبات للبيع) وزلزت الارض بأبواق السيارات ، وصراخ الاولاد ..

فإن هربت الى المسجد الاموي لتأخذ منه موعظة او تسمع درساً ، رأيت النائمين مصفوفين بالطول وبالعرض يشخرون ويتنفسون من كل منفذ ... وحلقات المتحدثين يضحكون ويمزحون ويغتابون ويكذبون ووجدت العوام يدرسون بلا رخصة ولا إذن لأن العلماء غائبون . ولم تجد في المسجد شيئاً مما يجب ان يكون فيه !

فان مررت في الشوارع رأيت المطاعم مفتوحة ، والمفطرين في كل مكان ، وركب أمامك في الترام من يدخن وينفخ الدخان في وجهك ، مع ان القانون والعرف يمنعان التدخين في الترام ، والذوق (ان لم نقل الدين) يمنع اعلان الفطر في رمضان في البلد المسلم .

فمن أين مع هذه المزعجات ، من أين (يا مجلة الاذاعة) أستطيع أن أنفذ الى الموضوع الذي تريدون مني أن أكتب فيه ؟!.

اين أرباب الأقلام

نشرت سنة ١٩٥٨

زارني شاب فاضل قال انه من (لحج) ، ففتشت في زوايا ذهني فلم اجد شيئاً عن لحج هذه ، ووجدتني اجهلها جهلاً مطبقاً ، لااعرف شكلها ولا اهلها ، ولا أدري كثيراً ولا قليلا من خبرها . ونظرت فوجدت ان كل مانعرف عن بلادنا (العربية والاسلامية) هوما ذكره المصنفون الاولون . وما نحفظ من شعر فيها فما قاله الشعراء الاولون ، ولولا ان الله يسّر لـ (ياقوت) ان يصف لنا هذه البلاد التي مرّ بأكثرها تاجراً ، ويجمع ماقرأ عنها ، في كتابه العظيم (معجم البلدان) ولولا هذه الكتب الاربعة او الخمسة الاخرى ، لجهلنا عن بلادنا كل شيء .

فأين الكتب التي ألفها فيها علماؤنا اليوم ، واين الشعر الذي قاله فيها شعراؤنا ؟ انه لم يبق في فرنسا مثلاً جبل ولا نهر ولا قلعة ولا قصر ، الا قال فيه الشعراء ووصفه الكتاب وكتب عنه العلماء . ونحن نعيش في اجمل البلاد ، واحفلها بالماضي الضخم والمجد التليد ، وآمال شعب هبّ ينظر الى الامام ، وينشىء المستقبل المجيد ، ثم لانقول فيها شيئاً .

هاتوا خبروني ! كم قصيدة قال شعراء الشام في بلودان والزبداني وعين الصاحب والعين الخضراء ، وهـذا الوادي الذي هو بيت القصيد في ديوان الوجود ، والذي لايدانيه في جماله وسحره واد ؟ هل قالوا في

ذلك كله وفي جنات لبنان معشار ماقاله شعراؤنا الاولون في سلع ومني ونَعمان وذي سَلَـم وهاتيك الصحارى المقفرات ؟

ونقول اننا في ابَّان نهضة ادبية أوفى فيها الادب العربي على الغاية.

* * *

وتعالوا أسألكم ، ماذا تعرفون عن الكوفة ؟ لاأريد الكوفة القديمة بل الكوفة اليوم : اين تقع ؟ وماذا بقي منها ؟ وما صفتها ؟ والبصرة الآن ما مكانها من البصرة القديمة ؟ واين المربد ؟ بل خبروني عن دمشق ، هل تعرفون حدود دمشق ايام الامويين ؟ هل تعرفون تاريخ امتدادها من بعدُ وتوسعها ؟

تقرؤون في كتب الادب والتاريخ اسماء نجد واليمامة وجبلَـي طيىء فهل تعرفون ماحدودها وما اسماؤها الآن ؟ وهل تدرون اين جرت معركة القادسية ؟ واين كانت معركة اليرموك ؟ واين (عين جالوت) التي كانت فيها الموقعة الكبرى ، واين ... اين حطين ؟

وتحجون كل سنة ، فهل عرفتم اين ولد الرسول صلوات الله عليه ؟ واين دار الارقم ؟ واين مكان الرماة في أحد ؟ واين كانت منازل اليهود التي أجلوا عنها ؟

بل انا اسألكم ان تمتحنوا انفسكم فتجيبوا فوراً بلا مراجعة ولا فكر : اين تقع مدينة مراكش ، وما بعدها عن فاس ؟ واين مسجد القرويين واين جامع الزيتونة ؟ وهل القيروان على البحر او على سفح جبل وما صفتها اليوم ؟

هذا ولم أسألكم عن مدن الاسلام في فارس والافغان والهند واندونيسيا لأني واثق انكم لاتعرفون منها إلا أسماءها ، وهذه الاحصاءات الميتة التي بقيت في نفوسكم من درس الجغرافيا .

وقد سألت عشرات المتعلمين في مصر ، عن الابلّة التي عدّها ياقوت في متنزهات الدنيا فما عرف احد أين هي اليوم ، واعجب من ذلك ان طالبا في كلية الآداب في القاهرة ابوه شامي وهو مولود في مصر ، سألني مرة : و (بردى) ده يبقى إيه ؟

ولو قال ، من اين ينبع بردى او اين يصب ؟ لكان لذلك وجه ، اما ان يسأل عنه يبقى ايه ؟ لايدري اهو نهر ام جبل او هو تمثال في متحف او لون من الوان الطعام ، فشيء لايكاد يصدق !

ولم ينفرد إخواننا المصريون (اعني قبل الوحدة) بجهل بلادنا ، فنحن على كثرة مانقرأ عن مصر في مجلاتها ، وما نرى من مناظرها في (افلامها) ، لانعرف غير القاهرة والاسكندرية ، ولو سألت جمهرة المتعلمين منا ، أين تقع الفيوم من المنصورة ؟ وما الدقهلية من الغربية ؟ لما دروا .

ونحن لانكاد نعرف عن المغرب دانيه وقاصيه شيئاً . أما سائر بلاد الاسلام ، فأنا أقر على نفسي ، انني لم اكن اعرف عن الهند والملايا واندونيسيا ، قبل ان اذهب اليها ، أكثر مما أعرف اليوم عن الفلبين ونيوزيلندة ، حتى تاريخها (وهو فصل كبير خطير ماجد من تاريخ الاسلام) لم نقرأ منه شيئاً ، وليس في الكتب التي هي تحت أيدينا شيء عنه .

بل إن كثيرين من الشاميين الذين يقرؤون هذا المقال لايعرفون بلاد الشام .

لست اعني معرفة الشوارع والساحات ، بل معرفة العادات والمواضعات ، فمن مِن اهل دمشق يعرف اسلوب الاحتفال بالعرس أو الختان ، في قرى ادلب مثلا أو عزّاز ، بل من يعرف من شبابهم

كيف كانت طرائق الزواج في دمشق نفسها في القرن الذي مضى ؟

فأين من وصف هذه العادات وسجلها من الادباء ؟

اين المقالات الوصفية والقصص والقصائد التي قيلت في نضالنا الفرنسيين في هذه المواقف الرائعة التي وقفناها ربع قرن كامل ؟

انه ليس في الدنيا أمة تجهل ديارها ، ولا تعرف نفسها إلا نحن العرب ، ان في كل بقعة من ديارنا معدناً (أي منجما) هو أثمن من معادن الفحم والنفط ، معادن جمال ومجد ، وطريف العادات ، وبارع الحكايات ، وفي كل بلد شخصيات لايصل الى معرفتها التاريخ ان لم يدله عليها قلم الاديب ، ونكت ونوادر ، وامثال سوائر ، واغان عبقريات فلماذا يضيع ذلك كله ؟

أما اجدادنا فأشهد انهم ماقصّروا ، ولقد وصفوا لنا حال عصرهم ، ورجال بلدانهم ، حتى أنهم دونوا التافه من اخبـــارهم ، والغث من كلامهم ، وسجلوا أخبار عبيدهم وامائهم ، وعقلائهم ومجانينهم ، وصالحيهم وطالحيهم ، وهم (كما يزعم زاعمون منا) كانوا في عصر تأخر وانحطاط ، ونحن في عصر الادب والفن ... لم نصنع شيئا .

ولو أن أدباءنا عكفوا من أول هـــذه النهضة على ان يصف كل أديب قريته التي خرج منها ، وبلدته التي نشأ فيها ، ريفها وعمرانها ، وشوارعها وميادينها ، وآثارها وخلائق أهلها ، وعاداتهم في أفراحهم وأتراحهم ، وأعراسهم ومآتمهم ، وزواجهم وطلاقهم ، وجدّهم ولهوهم ، وأعيادهم ومواسمهم ، كم كان يجتمع لنا في هذا القرن من الثروة العلمية والادبية ، وكم يغنى تاريخنا ويُفيد أدبُنـا ؟ وكم من صور الطبيعة ، وصفحات التاريخ وعبقري الشعر ، وبارع القصص يجتمع لنا ؟ وكم من سير الرجال وأحاديث الابطال ، وقصص الحب والجمال ، نحفظ من الضياع ونستنقذ من النسيان ؟

الأماكن أوعية الحوادث ، وظروف التاريخ ، وما التاريخ الا زمان ومكان ورجال ، وقد مرّ الزمان فلا يعود ، وذهب الرجال فلا يرجعون ولم يبق الا المكان ، فهو جسم التاريخ ، واذا نحن رأينا (وأرينا تلاميذنا) الساحة التي جرت فيها المعركة ، والدار التي عاش فيها العظيم ، والقلعة التي افتتحها القائد ، فقد رجعنا الى التاريخ وعشنا فيه ؛ واذا لم نستطع زيارة المكان ، فلا أقل من ان تكون له اليوم صورة فنرى الصورة ، وأن يكون له وصف فنقرأ الوصف .

ان من العرب من يعرف من صفة برج (ايفل) في باريز ، والجسر المعلق في نيويورك ، أكثر مما يعرف عن (ملويّة) سرّ من رأى ، وجسر بغداد ، لأنه يرى هذه في السينما كل يوم ، ويبصر صورتها في كل كتاب ، وتلك لايعرفها الا من رآها .

بل ان من الادباء من شد الرحال وسافر الى أوربة ، فوصف الرّين والبندقية ، ولكنه لم يسافر الى الشام ولا الى العراق ، ولم يصف بردى ولا بندقية العرب .

ألا تدرون أن البصرة بندقية العرب ؟ وأن فيها الى جنب كل شارع قناة ، فأنت تركب السيارة في الشارع ، أو الزورق في القناة ؟ وأن فيها أماكن لامسالك فيها الا أقنية الماء ، ولا مركب اليها الا الزوارق تسير فيها بين غابات النخيل ، وخمائل الورد ، حتى تنفذ الى شط العرب ؟

فيا شعراء العربية ، ويا أصحاب الاقلام ، ويا معلمي الانشاء ، خلدوا بالادب كل دار عاش فيها عظيم ، وكل بقعة نشأ فيها مجد ، وكل ساحة ولد فيها ظفر ، وكل روضة هام فيها شاعر ، وكل جبل وكل مصيف ، وكل مشتى . عودوا الى الطبيعة فصفوها ، لا تقتصروا

على وصف ذراها وسفوحها ، ومساربها وسوحها ، بل انفـذوا الى قلبها وروحها ، وان للطبيعة روحاً وللبلدان لساناً ، ان لهذه الأودية المسحورة من لبنان التي ضلت طريقها بين الجبال كعاشق هائم ينشد طيف الحبيب ، لقلباً ، يبث في الدنيا عواطف الجمال والتأمل ، ولهذه الجبال المعتمّة بالثلج ، التي تشرف على الدنيا كفيلسوف مفكر يستجلي وجه الحقيقة من بين أشباح الاوهام ، لعقلا ينثر على الناس حكمة البقاء والعدم ، ولهذه الانهار التي تمشي منذ الأزل ، ان للنيل ودجلة وبردى لساناً يروي أخبار الماضي ويحدث أحاديث القرون ويملأ الاسماع (لو وجدت الاسماع) شعراً وقصصاً وأدباً خالداً .

وان لبدر واليرموك والقادسية وجبل طارق وعين جالوت لشعراً في الفخر يخرس الشعراء ، وبياناً يسجد له البلغاء ، ان أرضنا المقدسة من فلسطين مافتئت تتلو على الدنيا سور المجد ، وآيات النبل ، وتقصُّ أروع قصة عن البطولة الخيّرة وعتها أذن الزمان وكنا نحن أبطالها : قصة أجنادين وحطين وجبل النار ، قصة المرّات الثلاث التي انتصرت فيها فلسطين ، قصة قلب الاسد لما ذاق حَرّ النَّبْل وأحسّ حُرّ النُبْل فانقلب خائفاً منا مكبراً لنا ، والقديس لويس لما أقمنا له من دار ابن لقمان معبدا ، ومن الطواشي (صبيح) سادنا ، وقصة الشعب الذي لم يخلق الا ليكون سيدا .

ان في كل بقعة من ديار العروبة منبع شعر وأدب ، وفن وبيان ولكن أين الروّاد ؟

أين اليوم أدباء العربية وشعراؤها يستنطقون الديار ، ويروون عنها أحاديث من نور ومن نار ؟ وأين (لاأين) يعيشون ، مالهمُ عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا قلب يحسُّ ، ولا لسان ينطق ؟ والا فأين القصص التي تصور البلاد وعاداتها ؟ وأين الصحف التي تروي تاريخها

وأين القصائد التي تتغنى بجمالها وأمجادها ؟ أين هم (وهـــذا يومهم) يشحذون العزائم ، ويوقظون الهمم ، ويقولون القول العربي المعجز الذي يجعـــل من الانسان ذي اللحم والدم ، دبّابة تَقتَحم الجبل ، وطيارة تنطح النجم ، وملَكا يسمو عن الدنايا بجناحين من خير وطهر ويثبت للقريب والبعيد ، وللأجيال والذراري ، أن بلادنا أجمل البلاد وأهلها أكرم الأهل ، وماضيها أجلُّ المواضي ، وأن المستقبل لها ؟

وأين معلمو الانشاء ، يفتحون على هذا الجمال الابصار ؟ ويلفتون الى هذا المجد القلوب ، ويصنعون للشعب العربي شعراءه وكتابه ؟



الوظيفة والموظّفون

نشرت سنة ١٩٣٥

اعلم - أعزّك الله - أن الوظيفة ليست غُلًّا في العنق ، ولا قيداً في الرجل ، وليست مقايَضَة أو مُبادَلة ، آخذ فيها الوظيفة (١) باليمين ، لأعطي الضمير بالشمال ، ولو أنها كانت كذلك ، لعزفت عنها واجتويتها ، ونفضت يدي منها ، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبي كرّة أخرى ، ، أو أقضي وأسرتي جوعاً ، على أن آكل خبزي مغموساً بدم الضمير .. وعلى أن أكفر بالفضيلة ، وأومن بالمصلحة ، فأزن كلّ شيء في الدنيا بميزان صنجاته الدنانير ، وأبصر كلّ ما في الكون من ثقب القرش (٢) ، وأفكر إذ افكر بعقلي الذي في كيس نقودي ، لا بعقلي الذي في رأسي ، فاختزل المنطق كله في قضية واحدة ، هي الاولى والأخرى ، وهي الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهي الكتاب المعجز الذي لا يُفرّط فيه من شيء ، ولا يعجزه شيء ، فيكون المنطق كله هذه القضية : تحصيل المال واجب ، وفي هذا الامر تحصيل مال ، فهذا الامر واجب ... وضَعْ مكان (هذا الأمر) ماتشاء من أفعال اللؤم والخسّة ، والكذب

---

(١) الوظيفة هي الراتب ، والتوظيف تعيين الوظيفة ، واذا نحن أطلقنا الوظيفة على العمل نفسه فإنما نتبع في ذلك العرف السائد

(٢) كان قرشنا يومئذ مثقوباً من وسطه

والنُذُولة ، والضّعة والفُسُولة ، تنتظم القضية وتستقم ، وتصح وتطرد ولا يبقى في الدنيا رديء ولا فاسد ولا منكر ، مادام معه المال !

لا - ياسيدي - لست أسلك هذه الطريق التي لاأزال أحذّر منها من لم يسلكها ، وأصرف عنها سالكيها ، وإن كان السالكوها هم الكثرة من موظفينا وعلمائنا ، ومن كل ذي وظيفة ، أو صاحب صلة بالحكومة حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتي الامر يعترف أنه مؤذٍ للأمة ، منافٍ للفضيلة ، مناقضٌ للشرف ، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه ، ومعيشته تستلزمه ، وانه رجل (عاوز يعيش ..) ولا يعيش من لا يساير وينافق ، ويَذِلّ ويتزلّف ، لايدري الجاهل أن المعيشة على الصّعتر مع الشرف ، خير من حياة النعيم والترف ، من غير فضيلة ولا شرف !

* * *

ومن أنبأك - أعزّك الله [1] أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه ، ولا يرى إلاّ بعين أمرائه ، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا ، ولا يقبل ما ردّوا ، ولا يوقر ما سفّهوا ، ولا يرى ما استقبحوا حسناً ، ولا ما كتموا ظاهراً ، ولا ما صغّروا كبيراً ، ولا ما عظموا حقيراً ؟ أو لو كان رؤساؤه مخطئين ، أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟

ومن ذا حظر عليه ما أبيح للناس ، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير ، وحرية الرأي ، وحرية القول ، ولماذا يشتهي من الطعام مايعافه رئيسه ، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله ، ولا يكون عليه في ذلك من حرج ، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه ، ومن المذاهب غير مذهبه ؟ ولماذا لا ينشر هذا الرأي ، ويؤيد هذا المذهب ، مادام لا يأتي محرماً في الشرع ، ولا ممنوعاً في القانون ؟..

---

(١) هذه المقالة رد على أحد وزراء المعارف من ربع قرن و كنت موظفاً في وزارته

والوظيفة - ياسيدي - عَقْدٌ بين الدولة والموظف[1] ، على أن يعمل عملاً بعينه ، على جُعْلٍ بذاته ، أفهل يعمل الأجير في الدُّكان ، والعامل في المصنع ، والنّادل في الفندق ، والخادم في البيت ، وكلُّ مأجور من الناس في عمل جلَّ أو قلَّ ، علا او سفل ، فاذا أكمل عمله وجوّده ، استحق الأجر ، وانطلق حراً في وقته ، يقضيه على ما أحب ، حراً في ماله ينفقه على ما شاء ، حراً في رأيه ينحو به النحو الذي أراد ، ويسوقه المساق الذي اختار ... ثم لايكون الموظف حراً أبداً ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟

وماذا عليّ وأنا مدرس إذا أنا أعْدَدْتُ درسي وألقيته ، وقرأت وظائف تلاميذي وصحّحتها ، وفعلت كل ما يوجب عليّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل ، أن أؤلّف وأكتب ، وأنقد الأخلاق والكتب والعادات ، وأساهم في الجهاد الاصلاحي ، وأحمل القسط الذي أطيقه من أثقال الأمة ، ومن ذا يحمله إذا لم أحمله انا وأمثالي من الموظفين والمتعلمين ؟ وكيف تتقدم الامة وتسير في طريقها الى غايتها ، اذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها ؟

أفهل يريد سيدي - أعزّه الله - أن أمحو ملكة الكتابة من رأسي ، وأطمس نور البصيرة من قلبي ، وأسدل على عيني حجاباً حتى لا أرى فأسرّ فأشكر ، او أبتئس فأنقد ، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح عليّ الكتاب طريقاً الى مقالة ، وأتعزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث ، او قصة فأدوّن هذه القصة ، وأدل على مكان

---

(١) لست أعني العقد الاجتماعي نظرية روسو المعروفة ، فذاك شيء قد سقط اليوم من قائمة العلوم ودخل في سجل التاريخ

العبرة منها ، وموطن العظة فيها ؟ أفهل يريد سيدي أن أذهب الى غار في الجبل فأحبس نفسي فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته ؟

أوهل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه ، مسخراً لأغراضهم ساعياً في مصالحهم ، ولو كانت الطريق الى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجّة لا يسلكها رجل يعرف ما هي الفضيلة ، ويدري ما هو الشرف ؟

وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الامة ، فلا يشعر بشعورها ، ولا يألم لألمها ، ولا يحس أنه منها ، ولا يشاركها في شيء من عواطفها ، في حين أن المفروض في الموظف أنه من أرقى أبناء الامة فكراً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأشدّهم شعوراً « بالواجب العام » ؟

أو هل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الامة ، ثم ليناموا آمنين اذا هي خافت ، ويضحكوا فرحين اذا هي تألمت ، وينعموا فارهين اذا هي شقيت ، ويأكلوا مسرفين اذا هي جاعت ؟

كلا ! كلا يا سيدي ، فالموظف من الامة والى الامة ، وليس في البلد شعب وموظفون ، ولكنّ فيه شعباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويصدر عن مبدإٍ واحد ويسعى الى غاية واحدة ، ولان تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها ، أولى من أن أنزل أنا عن رأيك ، وأخضع لارادتك ، فيما يؤذي الحقيقة وينافيها .

كلا ! لقد انقضى ذلك العهد الذي كان الموظف فيه مسؤولاً أمام رئيسه ، وأصبحنا اليوم وكلنا مسؤولون أمام الامة والتاريخ ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به عليّ ، ولكن راتبك أنت منحة

من الامة - التي أنا من أبنائها بمن هي به عليك !

* * *

وبعد ؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر ، وأرباب الأقلام ، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين ، وحق الامة عليهم ، وأمل الامة فيهم ؟ او ليس يجب عليهم معالجة هذه النواحي من أخلاقنا ، وبسط الكلام فيها ، وتحذير السالمين منها ، ومداواة المصابين بها ؟...



الوعد الشرقي

نشرت سنة ١٩٥٢

كنت أمس وراء مكتبي فسمعت صوتاً هائلا له رنين وصدى ، كأنه صوت رجل ينادى من قعر البئر ، او يصرخ في الحمام ، يقول: السلام عليكم .

فرفعت رأسي فاذا أمام وجهي بطن الرجل ، وكأنه بطن فرس ضخم من أفراس البحر ، أما رأسه فكان في نصف المسافة بيني وبين السقف ، ومدّ اليّ يداً كالمخباط يصافحني ، ثم عمد الى اكبر مقعد في الغرفة فحاول ان يدخل نفسه فيه فلم يستطع ، فلبث واقفاً وعرض حاجته وهي دعوتي الى اجتماع للمصالحة بين أخوين من اخواننا ، ولم يكن من عادتي اجابة مثل هذه الدعوة ، وهممت بالرفض ، لولا اني قست بعيني طول الرجل وعرضه ، وعمقه وارتفاعه ، فآثرت السلامة ووعدته .

قال : اين نلتقي ؟ فخفت أن أدله على الدار فيدخل فلا استطيع اخراجه ، فقلت له : هنا الساعة الثالثة بالضبط .

قال : نعم . وولى ذاهباً وكأنه عمارة تمشي

وجئت في الموعد ، فوجدت المحكمة مغلقة ، وقد نسيت ان احمل المفتاح فوقفت على الباب والناس ينظرون اليّ ، فمن عرفني أقبل

يسألني ، فأضطر لأن اشرح له القصة ، ومن كان لايعرفني ، حسبني أحد أرباب الدعاوى ، فقال : (مافيها أحد ، سكّرت المحكمة) فلا أرد عليه ، وأنا واقف أتململ من الضجر ، أرفع رجلاً وأضـع أخرى ، وأقبل مرة وأدبر مرة ، انظر من هنا ومن هناك ، فكلما رأيت من بعيد شيئاً كبيراً احسبه صاحبي ، فاذا اقترب رأيت جملا عليه حطب ، أو حماراً فوقه تبن ، أو تاجراً من تجار الحرب الذين انتفخوا من كثرة ماأكلوا من أموال الناس ، حـتى مضت نصف ساعة ، وأحسست النار تمشي في عروقي ، غضباً منه ومن نفسي أن لنت له ، ولطفت به وذهبت الى الدار ، وأنا مصدوع الرأس ، مهيج الاعصاب فألقيت بنفسي على الفراش .. فلم أكد استقر لحظة ، حتى سمعت رجة ظننت معها أن قد زلزلت الارض بنا ، أو تفجرت من حولنـا قنبلة ، واذا أنا بصاحبي الضخم ، قد فتحت له الخادم فراعها أن رأت فيه فيلاً يمشي على رجلين ، فأدخلته عليّ بلا استئذان ، وولت هاربة تحدث من في الدار حديث هذه الهولة المرعبة .

ونفخ الرجل من التعب كأنه قاطرة قديمة من قاطرات القرن التاسع عشر ، التي لاتزال تمشي بين دمشق وبيروت ، وألقى بنفسه على طرف السرير ، فطقطق من تحته الحديد ، وانحنى .

وأخرج منديلاً كأنه ملحفة ، ومسح به هذه الكرة المركبة بين كتفيه وقال :

– هيك ياسيدنا ؟ مابتنتظر شوية ؟ شو صار ؟ حمّل الحج ؟ سارت الباخرة ؟ الانسان مسيّر لامخير ، والغائب عـذره معه ، والكريم مسامح ، وعدنا وعد شرقي .

* * *

وعد شرقي ؟ أليس عجيباً أن صار اسم (الوعد الشرقي) علماً على الوعود الكاذبة ، واسم (الوعد الغربي) علماً على الوعد الصادق ؟

من علم الغربيين هذه الفضائل إلا نحن ؟ من أين قبسوا هذه الانوار التي سطعت بها حضارتهم ؟ ألم يأخذوها منا ؟

من هنا أيام الحروب الصليبية ، ومن هناك ، من الاندلس بعد ذلك ، وهل في الدنيا دين إلا هذا الدين (الشرقي) يجعل للعبادات موعداً لاتصح العبادة الا فيه ، وإن أخلفه المتعبد دقيقة واحدة بطلت العبادة ؟ إن الصوم شرع لتقوية البدن ، وإذاقة الغني مرارة الجوع حتى يشفق على الفقير الجائع ، وكل ذلك يتحقق في صوم اثنتي عشرة ساعة ، واثنتي عشرة ساعة إلا خمس دقائق ، فلماذا يبطل الصوم إن أفطر الصائم قبل المغرب بخمس دقائق أليس لتعليمه الدقة والضبط والوفاء بالوعد ؟ ولماذا تبطل الصلاة إن صليت قبل الوقت بخمس دقائق ؟

والحج ؟ لماذا يبطل الحج إن وصل الحاج الى عرفات بعد يوم الوقفة ، أليس لأن الحاج قد أخلف الموعد ؟

أو لم يجعل الإسلام إخلاف الوعد من علامات النفاق ، وجعل المخلف ثلث منافق ؟ فكيف نرى بعد هذا كله كثيرين من المسلمين لا يكادون يفون بموعد ، ولا يبالون بمن يخلف لهم وعداً ، او يتأخر عنه ، حتى صار التقيد بالوعد ، والتدقيق فيه والحرص عليه ، نادرة يتحدث بها الناس ، ويعجبون بصاحبها ويعجبون منه ... وحتى صارت وعودنا مضطربة مترددة لا تعرف الضبط ولا التحديد .

يقول لك الرجل (الموعد صباحاً) ، صباحاً ؟ في أي ساعة من الصباح ؟ في السادسة ؟ في السابعة ؟ في الثامنة ؟ إنك مضطر الى الانتظار هذه الساعات كلها . (الوعد بين الصلاتين) وبين الصلاتين

أكثر من ساعتين . (الوعد بعد العشاء) . أهذه مواعيد ؟! هـذه مهازل وسخريات ، لقوم لا محل لهم ، ولا قيمة لأوقاتهم ، ولا مبالاة لهم بكراماتهم !

هذه مواعيدنا في ولائمنا ، وحفلاتنا ، وفي اجتماعاتنا الفردية والعامة .

دعيت مرة الى وليمة عند صديق لي قد حدد لها ساعة معينة هي الساعة الاولى من بعد الظهر ، فوصلت مع الموعد فوجدت المدعوين موجودين إلا واحداً له عند صاحب الدار منزلة . وتحـدثنا وحلت ساعة الغداء وتوقعنا أن يدعونا المضيف الى المائدة فلم يفعل ، وجعل يشاغلنا بتافه الحديث ، ورائحـة الطعام من شواء وقلاء وحلواء ، تملأ آنافنـا ، وتصل الى معدنا الخاوية ، فتوقد فيها ناراً ، حتى اذا اشتد بي الجوع قلت :

– هل عدلت عن الوليمة ؟

فضحك ضحكة باردة وخالها نكتة ، فقلت :

– يا أخي جاء في الحديث أن امرأة دخلت النـار في هرة .. حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . ونحن جماعة وهي واحدة ، وهي قطة ونحن بشر !

فتغافل وتشاغل ، ثم صرح فقال : حتى يجيء فلان

– قلت : اذا كان فلان قد أخلف الموعد ، أفنعاقب نحن بإخلافه؟ وهل يكون ذنبنا أنا كنا غير مخلفين ؟

* * *

والحفلات مثل الولائم ، يكتب في البطاقة أنهـا تبدأ في الساعة الرابعة ، وتبدأ في نصف الخامسة . وأعمالنا كلها على هـذا النمط ، ركبت مرة الطيارة من مطار الماظة في مصر فتأخرت عن القيام نصف

ساعة انتظار راكب موصى به من أحد أصحاب المعالي . ولما ثرنا معشر الركاب وصخبنا طار بنا ، فلم يسر والله ربع ساعة حتى عاد فهبط فارتعنا وفزعنا وحسبنا أن قد جرى شيء ، واذا العودة من أجل الراكب المدال صديق صاحب المعالي ، وقد تأخر لأنه لم يحب أن يسافر حتى يدخل الحمام ، ويستريح بعد الخروج كيلا يلفحه (اسم الله عليه) الهواء البارد ، وكنت يومئذ عائداً من رحلة رسمية فلما وصلت الى مطار المزة وجدت أكثر من مئتي انسان بينهم مندوب وزير العدل ، ينتظرون في الشمس منذ ساعة كاملة .

والسيارات مثل الطيارات ، والدكاكين والدواوين ، والمقاهي والملاهي ، كل ذلك يقوم على تبديل المواعيد وإخلافها ، حتى لم يبق لشيء موعد معروف . فيا أيها القراء خبروني سألتكم بالله ، أي طبقة من الناس تفي بالموعد ، وتحرص عليه وتصدق فيه ، وتدقق في انجازه ؟ الموظفون ؟ المشايخ ؟ الاطباء ؟ المحامون ؟ الخياطون والحذاؤون ؟ سائقو السيارات ؟ من ؟ من يا أيها القراء ؟

يكون لك عند الموظف حاجة لا يحتمل قضاؤها خمس دقائق ، فتجيئه وهو يشرب القهوة ، او يقرأ الجريدة ، او يشغل نفسه بما لا طائل تحته ، فيصعّد فيك بصره ويصوبه ، ويقومك بعينه ، فإن أنت لم تملأها ، ولم تدفعه الى مساعدتك رغبة فيك ، او رهبة منك ، قال لك : ارجع غداً . فترجع غداً ، فيرجئك الى ما بعد غد ... لا أعني موظفاً بعينه ، ولا عهداً بذاته ، بل أصف داء قديماً سرى فينا واستشرى ، ودخل وتغلغل ..

ويكون لك موعد مع الشيخ ، فيجيئك بعد نصف ساعة ، ويعتذر لك ، فيكون لاعتذاره متن وشرح وحاشية ، فيضيع عليك في محاضرة

الاعتذار نصف ساعة أخرى . وإن دعوته الساعة الثانية جاء في الثالثة . وإن كان مدرساً لم يأت درسه إلا متأخراً .

والطبيب يعلن أن العيادة في الساعة الثامنة ولا يخرج من داره إلى العاشرة ، وتجيئه في الموعد فتجده قد وعد خمسة من المرضى مثل موعدك ، واختلى بضيف يحدثه حديث السياسة والجو والكلام الفارغ ، وتركهم على مثل الجمر ، او على رؤوس الإبر ، ينتظرون فرج الله ، حتى يملوا فيلعنوا الساعة التي وقفوا فيها على باب الطبيب ، ويذهبون يفضلون آلام المرض على آلام الانتظار ، ويؤثرون الموت العاجل المفاجىء على هذا الموت البطيء المضني .

أما الخياطون والحطاطون ، والحذاؤون والبناؤون ، وأرباب السيارات ، وعامة أصحاب الصناعات ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنهم من أكذب خلق الله ، وأخلفهم لوعد . الكذب لهم دين ، والخلف عادة ، ولطالما لقيت منهم ، ولقوا مني ، وما خطت قميصاً ولا حلة ، ولا صنعت حذاء ، ولا سافرت في سيارة عامة سفرة ، ولا بعثت ثوباً الى مصبغة لكيه او غسله او تنظيفه ، إلا كووا أعصابي بفعلهم ، وشويتهم بلساني ، وان كان أكثرهم لا يبالي ولو هجاه الحطيئة او جرير او دعبل الخزاعي ، بل إنهم ليفخرون بهذه البراعة في إخلاف المواعيد ، والتلاعب بالناس ، ويعدونها مهارة وحذقاً .

فمتى يجيء اليوم الذي نتكلم فيه كلام الشرف ، ونعد وعد الصدق ، وتقوم حياتنا فيه على التواصي بالحق لايعد فيه المرشح وعداً إلا وفى به بعد أن يبلغ مقاعد البرلمان ، ولا يقول الموظف لصاحب الحاجة إني سأقضيها لك إلا إذا كان عازماً على قضائها ، ولا الصانع بانجاز العمل إلا إذا كان قادراً على إنجازه ، والموظفون يأتون من أول وقت الدوام ويذهبون من آخره ، والاطباء لايفارقون

المكان ساعات العيادة ، والخياط لا يتعهد بخياطة عشرة أثواب إن كان لا يستطيع أن يخيط إلا تسعاً ، وتمحى من قاموسنا هذه الأكاذيب . تقول لأجير الحلاق : اين معلمك ؟ فيقول ، إنه هنا ، سيحضر بعد دقيقة ، ويكون نائماً في الدار لا يحضر إلا بعد ساعتين .

ويقول لك الموظف : من فضلك لحظة واحدة . فتصير لحظته ساعة

ومتى تقوم حياتنا على ضبط المواعيد وتحديدها تحديداً صادقاً دقيقاً ، فلا يتأخر موعد افتتاح المدارس من يوم الى يوم ويتكرر ذلك كل سنة ، ولا يرجأ موعد اجتماع الدول العربية في الجامعة من شهر الى شهر ، ولا تعاد في تاريخنا مأساة فلسطين التي لم يكن سببها إلا إهمال ضبط المواعيد وإخلافها . ولو أنا حددنا بالضبط موعد القتال ، وموعد الهدنة ، وجئنا (أعني الدول العربية) على موعد واتفاق ، لكان لنا في تاريخ فلسطين صفحة غير التي سيقرؤها الناس غداً عنا .

إن إخلاف الموعد الصغير ، هو الذي جر الى إخلاف هذا الموعد الكبير . فلنأخذ مما كان درسا ؛ فإن المصيبة إذا أفادت كانت نعمة . ومتى صلحت أخلاقنا ، وعاد لجوهرنا العربي صفاؤه وطهره ، وغسلت عنه الأدران ، استعدنا فلسطين ، وأعدنا ملك الجدود .

فابدؤوا بإصلاح الأخلاق ، فإنها أول الطريق

شغلوا الطلاب في عطلة الصيف

نشرت سنة ١٩٥٩

قرأت في عدد قديم من مجلة (المختار) مقالة لكاتب امـيركي ، تحدث فيها عن لجان الشباب ، وما تقوم به في أميركا من الاعمال الجسام .

من ذلك أن حي الاعمال في مدينة (او شكوش) : قد اشتدت فيه ضوضاء السير وضجة السيارات ، حتى لم يعد يستطيع سكانه العمل وكادت هذه الضجة المستمرة تحطم أعصابهم وألحوا على الحكومة أن تجد لهم مخلصاً من هذا البلاء .

ففكر رئيس شرطة السير في المدينة ، فلم يجـد إلا سبيلاً واحداً للخلاص ، هو أن يلجأ الى لجنة الشباب في المدينـــة ، فأثار حماستهم ورغبهم وقال لهم : هذه فرصة لـكم ، لخدمة مدينتـكم . فقبلوا وكلفت اللجنة مئتين من أعضائها ممن تتراوح أعمـــارهم بين ١٣ - ١٧ سنة ، فوقفوا على أطراف الطرق ، ثلاثة أيام يسألون كل سائق سيارة رأيه ويتفهمون أسلوبه في القيادة وعادته في وقف السيارة والانتظار بهـا ، وقدموا المعلومات التي جمعوها الى رئيس الشرطة فاستطاع أن يضع بعد معرفتهـــا نظاماً جديداً للسير ، مستمداً من الواقع ، قاطعاً أسباب الشكوى ووفروا على الحكومة ٢٨ الف دولار .

وفي مدينة (ماديسون) اجتمع أكثر من ٦٠٠ طـالب من

طلبة المدارس الثانوية نقلتهم عربات النقل في السابعة صباحاً الى منافذ الازقة والحارات ، فولجوها سيراً على أقدامهم ، يجمعون منها ومن حدائق المنازل وأفنيتها ومن الساحات والملاعب ما فيها من النفايات والاوساخ فاستحى الناس ، وأسرعوا لمعاونتهم ، فنظفت المدينة وصارت أرضها كالمرآة المجلوة .

وفي مدينة - أوكلير - طلب مدير التعليم الخاص الى لجنة شباب المدينة مساعدته في توصيل عدد من أطفال احدى المدارس الخاصة الى منازلهم وقبلت اللجنة ، وأرسلت أعضاءها يستلمون الاطفال من المدرسة ، ويضعون كلًا منهم في السيارة التي توصله الى منزله .

ومن ذلك أن لجنة الشباب في (راين لاندر) ، أنشأت مكتباً للعمل ، فوجد أن الفنادق والمتنزهات في هذه المدينة التي تقصد في العطلات والمواسم تحتاج الى عمال فتأتي بهم من المدن الأخرى فسعت لاحلال شباب المدينة في هذه الاعمال ، واستطاعت تشغيل مئات منهم ، مدة العطلة ، بعمل شريف ، وبأجور جيدة .

وفي المقالة أمثلة أخرى .

وقد رجعت بي الايام لما قرأت هذه المقالة ثلاثين سنة الى سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٠ وقد عدت من مصر[١] أحدث إخواني عن لجان الطلبة فيها ، وما تقوم به من أعمال كبار في ميادين الجهاد الوطني . وألفت أنا ونفر من إخواننا ، لجان الطلبة في المدارس الثانوية ثم في الجامعة ثم الفت لجنة مركزية للطلاب وكنت عضواً فيها ، ثم تشرفت ان كنت يوماً رئيسها ، وكنت من محرري جريدة « الايام » يوم كانت جريدة الكتلة الوطنية ، وكان رئيس تحريرها الاستاذ عارف

---

(١) اظن اني كنت اول طالب من سورية اطلب التعليم العالي في مصر .

النكدي وكان للجنة المركزية بهو خاص في دار (الايام) .

ويشهد أقطاب الحركة الوطنية في ذلك العهد ما صنعت لجنة الطلبة وحسبها أنها هي التي أبطلت انتخابات ٢٠ كانون المزورة سنة ١٩٣٠ وهي التي كانت تعد الاضراب العام في المدينة ، وهي التي كانت القوة المنفذة لمقررات شيوخ الوطنية وقادة الجهاد واستمرت على ذلك الى أن وقعت المعاهدة سنة ١٩٣٦

ذكرت هذا كله ، لما قرأت المقالة ، وقلت في نفسي : لقد انقضى عهد النضال السلبي وحررت البلاد من الانتداب وتمت والحمد لله نعمة الاستقلال ، فلم يبق مجال لمثل تلك الاعمال فلماذا لانسخر هذه القوى الهائلة قوى الطلاب والشباب ، للاعمال الانشائية النافعة التي تشير الى أمثلة منها هذه المقالة التي قرأتها في المختار .

لم يكن في دمشق في أيامنا الا ثانوية رسمية واحدة هي - مكتب عنبر - وفيها ثلاثمائة طالب فقط ، وكان طلاب الجامعة لايزيدون - فيما اقدر - على اربعمئة او خمسمئة ، وقد قمنا بهذه الاعمال ، فماذا يصنع اليوم طلاب دمشق وفيها عشر ثانويات رسمية ، وفي الجامعة آلاف وآلاف ؟

ان العمل ليس عيباً وفي اميركا يشتغل الطلاب حتى الاغنياء منهم ، في العطلة الصيفية بالخدمة في المطاعم ، والعمل في المصانع ، فلماذا يبقى شبابنا مدة العطل وهي ربع السنة او ثلثها بلا عمل فيتعودوا الكسل والبطالة او يقرؤوا روايات أرسين لوبين او يروا الافلام الخبيثة ، او يتطيبوا ويتعطروا ويتبختروا في عشيات الصيف ، في بوابة الصالحية وحول البرلمان ، يراقبون المارين والمارات ، او يشتغلوا بالحزبيات والعصبيات ؟

ولماذا نقتبس من الغرب الضار ولا نقتبس النافع ؟

لماذا لانوسع النشاط المدرسي ، فنؤلف لجاناً للشباب تبدأ في كل مدرسة ثم يكون منها اتحاد اوسع ، ثم تجمع هذه (الاتحادات) حتى يكون في كل بلد لجنة مركزية واحدة للشباب تعلمهم التعاون والجد وحمل المسؤوليات ، وتقوى اجسامهم بالرياضة ، وعقولهم بالمحاضرات ، وارواحهم بالسلوك الخلقي القويم وتشارك في الاعمال العامة النافعة .

تصوروا لو ان طلاب دمشق[1] مثلا خرجوا في مواكب الى اطراف الغوطة حيث الارض الفضاء فاخذ كل واحد منهم غرسة فغرسها هناك وأمضوا يوماً في لعب وتسلية ، ونشاط وصحة ، لأقاموا في يوم واحد بستانا للامة فيه عشرة آلاف غرسة ، يتولونه ابداً بالرعاية.

وتصوروا لو أخذ كل طالب من بيته رغيفين ، أو ثوباً قديماً وخرجت مواكبهم فدارت على حارات الفقراء ومخيمات اللاجئين ، فوزعوها وقضوا يوماً بينهم في مواساة ومشاركة لهم في حياتهم ، كم يكون أثر ذلك في نفوسهم وفي نفوس هؤلاء المساكين .

والحكومة تحتاج الى مشروعات كثيرة ، تحتاج الى آلاف من الشباب أيام الاحصاء العام ، وفي النوازل والنكبات فلو كان هنا لجان للطلاب واستعانت بهم على ماتريد من الخير لحققت في يوم واحد ، وبلا نفقات مالا يمكن تحقيقه في المدة الطويلة ، وبالنفقات الكثيرة ، عدا عما في ذلك من تعويد الطلاب حياة العمل والتعاون وابعادهم عن مواطن الزلل والضعف والبطالة

ولكل لجنة من هذه اللجان في أميركا مستشارون من الرجال الكبار يختارهم الشباب بانفسهم ، وهؤلاء المستشارون يعلمون بأن مهمتهم هي العمل مع الشباب لا الامر والنهي فيهم ، ومنهج هذه اللجان يوصي المستشار بأن يعرض نصحه في الاجتماع بصراحة فاذا لم توافق اللجنة عليه فلا داعي للاسف ولا للغضب .

---

(١) انتبهوا فأنا اقول الطلاب فقط لا الطالبات

لقد كانت لجنتنا المركزية قبل ست وعشرين سنة ، تمثل طلاب دمشق جميعاً وكانوا يمشون وراءها صفاً واحداً ، وينفذون قراراتها فتصوروا ماذا يكون من الخير للشباب وللامة لو أن الحكومة وضعت نظاماً على نحو النظام المتبع في اميركا والبلاد الاخرى للجان الشباب واقامت لها ادارة تشرف عليها لوجهتها وجهة الخير ، وصرفتها عن العبث واللهو والبطالة والشغب والحزبيات ثم شغلتها بالاعمال النافعة ، التي لايحصيها العد ، وكان لها مخيمات في الصيف ، وكان لها نواد في الشتاء وكان عملها المساهمة في كل مشروع عام ، وتهيئة عمل في الصيف لمن يحب ان يعمل من الشباب فيساعد بما يحصله نفسه وأهله ، كما يصنع الطلاب في اميركا .

والشرط الاول والاخير في هذا كله . ان يكون هذا العمل لله وحده ، لا يستغل لمصلحة حزب ولا هيئة ولا مذهب ولاجماعة وان يقوم على صحة الاجساد بالرياضة ، وتنمية العقول بالمحاضرات ، وتصفية الارواح بالعبادة والذكر وبث روح التعاون وتعويد الشباب حمل التبعات ، وان تحبب اليهم الحياة الاستقلالية لا الحياة الاتكالية ، وان يعلموا ان العمل ليس عيباً ولو كان كنس الشوارع ، ولكن العيب ان يكون الشاب من أهل البطالة ، او يكون من أهل الفسوق ، وان يكون كلا على ابويه وهو يستطيع ان يشتغل ، وان يقتصر على الشباب فقط فلا يكون وسيلة الاختلاط ، ولا يكون باباً للفساد .

مشكلة الزواج

اذيعت سنة ١٩٥٨

في البلد اليوم مشكلة من أعقد المشاكل الاجتماعية ، وأعمقها اثراً في حياة الامة ، هي مشكلة الزواج ، وتتلخص هذه المشكلة في كلمة واحدة هي ان فينا آلافاً مؤلفة من البنات في سن الزواج ، لايجدن الخاطب وآلافاً مؤلفة من الشباب لايجدون البنات . أو لايريدون الزواج .

ولتدركوا خطر هذه المشكلة وامتدادها ، خذوا ورقة وقلماً واكتبوا أسماء الأسر التي تشتمل على البنات الكاسدات ، والاسر التي تشتمل على الشباب العزاب ، تروا ان في محيط كل واحد منكم أيها السامعون عشرات من هؤلاء ومن اولئك .

وبحثي اليوم في اسباب هذه المشكلة ونتائجها وفي طرق حلها .

اما نتائجها فهذا الفساد الاخلاقي الذي يشكو منـــه كل بلد من بلدان هذا الشرق الاسلامي ، وأنا لااستطيع ان اصرّح لأني لااتحدث الى جماعـة أراهم أمامي ، أعرف اذواقهم وميولهم ، ولا اتكلم في مجلس محصور ولكن اتكلم في هـــذا المذياع الذي يحمل الكلام الى آفاق الارض ، ولا ادري من يستمع اليّ ، ولعل فيهم البنت والشاب ومن لايحسن التصريح امامه بهذه الاشياء ، لذلك اكتفي بان أقول بأن الله ماحرم شيئاً الا أحلّ مكانه شيئاً يغني عنه ، حرم الربا وأحل البيع

وحرم الزنا وأحل الزواج ،فمن سد في وجهه طريق الحلال ، لم يجد للوصول الى هذه الحاجة الطبيعية الا سلوك طريق الحرام ، لذلك كانت النتيجة الحتمية لقلة الزواج ، هي كثرة الفساد ، ولعلي اتحدث عن الفساد الخلقي حديثاً مستقلاً مفصلا ، وأقرر من الآن انه لا يمكن القضاء على هذا الفساد الا بتسهيل الزواج .

اما اسباب مشكلة الزواج ، فأولها نظام التعليم :

ان هذا النظام يعارض فطرة الله ، ويخالف طبائع النفوس ، وحقائق الاشياء وبيان ذلك ان الله وضع غريزة الجنس في نفس الشاب والشابة ، وقدر لظهورها سن الخامسة عشرة او نحوها ، فاذا بلغها الولد او البنت تنبه في نفسه ماكان غافلاً ، وتيقظ ماكان نائماً ، ونظام التعليم يوجب ان يبقى الشاب والشابة في المدارس الى الخامسة والعشرين يدخل المدرسة ابن سبع سنين ، ويبقى اثنتي عشرة سنة في الابتدائية والثانوية فهذه تسع عشرة سنة ، ويبقى في الجامعة من أربع سنين الى سبع سنين ، فيصير عمره من ثلاث وعشرين الى ست وعشرين ، فاذا ذهب بعد ذلك ليجيء بالدكتوراه ، من اوربا او امريكا ، وغاب لذلك ثلاث سنين اخرى على الاقل صار ابن ثلاثين سنة او نحوها .

فكيف يمضي هذه السنوات العشر او الخمس عشرة التي هي اشد سني العمر ثورة وشهوة وضراما في الاعصاب ، لاسيما وهو يعيش في جو مملوء بالمغريات الجنسية ، واذا سافر الى بلاد الغرب رأى ما هو اشد اغراء .

وليس البحث الآن في المسألة الجنسية لأسأل ماذا يصنع في هذه المدة بل البحث في الزواج ، فكيف يمكن ان يتزوج ؟ لاسيما وانه مضطر بحكم هذا النظام ان يبقى بلا كسب ولا مورد ويبقى عالة على ابيه حتى يبلغ الثلاثين ، ويبقى بعد ذلك بضع سنين اخرى بطبيعة الحال

كي يجمع تكاليف الزواج ، فيصير عمره خمساً وثلاثين ، ومن المشاهد ان كثيراً من الذين يبقون بلا زواج الى هذه السن ، لايتزوجون ابداً لأن الدافع الى الزواج يضعف بعدها وثار الغريزة تخمد ، والشباب يكون قد ولى .

فالسبب الاول في رأيي هو نظام التعليم ، وقد كان من المعروف في دمشق من نصف قرن لما كان اكثر الناس يشتغلون بالتجارة ، ولا يعرفون هذا التعليم الجامعي ، ان الشاب اذا صار في العشرين صارت له دكان ، وصار صاحب مورد ، ورب تجارة وصار زوجاً وأباً ، وصاحب اسرة ، وان البنت اذا بلغت الرابعة عشرة تتزوج

والسبب الثاني ، هذه العادات الشنيعة في الزواج ، العادات التي تخرب بيت الاب وبيت الخاطب معاً ، وليس فيها كما قلت في الحديث الماضي نفع لأحد ، انما هي للتفاخر امام الناس ، وللتكاثر والتسابق الى التبذير والسرف من المباراة في زيادة المهور ، وشراء الجهاز الفخم ، الذي يشتمل على اشياء اكثرها لاحاجة اليه ، ولا لزوم له ، ولقد دخلت غرفاً في افخم الدور كدست فيها التحف والتماثيل والمطرزات واللوحات بلا ذوق ولا ترتيب ، حتى صارت كأنها مخزن مفروشات لاغرفة استقبال ، مع ان الاجانب الذين نقلدهم في حياتنا لايضعون في ابهاء الاستقبال الا الشيء الضروري ، واذا عمدوا الى الزينة والترف علقوا لوحة لها قيمة فنية ، وأقاموا تحفة واحدة اثرية او تذكارية ، لاترى لديهم اطاراً ضخماً غالياً فيه صورة سخيفة حمقاء ، ولا ترى هذه المجموعات من الاطباق الصينية وعلب الزينة وقناني الطيب التي لاتفتح ولا تستعمل ، وهم يفضلون الاناقة والذوق على الثمن المادي للاشياء .

وهذه السلسلة من الحفلات ، حفلة الخطبة ولبس الخاتم ، وحفلة العقد . وربما سبقتها حفلة التلبيسة ، وحفلة العرس . والسبعة الايام وحفلة

التعارف ، وكل حفلة تكلف المئات ، وتجمع انماطاً من الناس ليس بينهم تفاهم ولاتواد وربما لم يكن بينهم تعارف سابق .

وهذه الحفلات للرجال ضجة وصخب وفوضى ، أو صمت وتكلف وحديث خافت ، وللنساء حفلات عرض ازياء ، كل واحدة تعرض ثوبها وتنتقد ملابس الاخريات .

وهذه الحفلات مع مايتبعها من الهدايا المقررة المتعارف عليها ، التي يتفق أحيانا على نوعها وثمنها ، تكلف الخاطب اكثر من المهر ، وتكلف الاب هي والجهاز مثل ماتكلف الخاطب ، وتكون نكبة على كل رجل تدعى زوجته او ابنته إليها ، لأنه يضطر الى شراء الملابس الجديدة ، ودفع ثمنها مما خصصه لخبز عياله أو ثمن ملابس أولاده.

ولما كنت في جزيرة جاوة (اندونيسيا) رأيت أكثر الشباب متزوجين . فسألت عن طريقة الزواج فاذا هي أسهل وأقرب الطرق ، فكنت اتذكر صعوبة الزواج في بلادنا ، وهذه العراقل التي أقيمت في طريقه ، حتى صار الاتصال المحرم أسهل بمئة مرة من الزواج الحلال (اقول هذا وانا في خجل وأسف) وصار الآباء يتغافلون عن هذا المنكر ، ويمهدون له حيث لايشعرون باهمالهم التربية الدينية والخلقية ، ويعارضون الزواج ويلقون امام طالبه الاشواك .

والسبب الثالث أن اكثر الازواج تركوا الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده ، فلم يعرف الزوج الواجب عليه لزوجته ولم يقم به . ولم تعرف الواجب عليها لزوجها ولم تقم به ، فدخل بذلك الخلاف الى اكثر البيوت ، وصارت حياة المتزوجين جحيما لايطاق . وتتالت الدعاوى في المحاكم وفشا الطلاق . ورأى هذا الشباب العزاب وسمعوا اخباره فزادهم ذلك كراهة للزواج وانصرافا عنه .

والسبب الرابع الفساد الخلقي ، والفساد الخلقي الذي هو نتيجة لقلة الزواج . صار سببا من اسباب هذه القلة ، وصارت مسألة الدور الذي أبطله المناطقة وجوزه الشعراء . فقال أحدهم :

مسألة الدور أتت	بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا	لولا جفاه لم أشب

الشاب الذي لا يتزوج وهو يجد الدافع الى الزواج يسلك طريق الفساد ، وسهولة طريق الفساد تصرفه عن الزواج ، وماله وللزواج ونفقاته ومشكلاته ؟ وماله وللخلافات الزوجية وهو يقدر أن يوصل نفسه الى كل ما تشتهيه بغير ذلك كله ؟

وهنا أعود فأقرر ان بين مشكلة الزواج ، ومشكلة البغاء السري والعلني ، وحدة وامتزاجاً ، فلا يمكن علاج إحداهما إلا بعلاج الاخرى والسبب الخامس ، هو نتيجة التعريف الذي بدأت به هذا الحديث ، أما قلت لكم أن مشكلة الزواج هي وجود آلاف مؤلفة من البنات بلا أزواج ، ووجود آلاف مؤلفة من الشباب بلا زوجات .

إن الشباب يختلفون غنى وفقراً ، وثقافة وجهلاً ، وتقى وتساهلاً ، وجداً وهزلاً ، وفي كل صنف من هؤلاء مثيله من البنات ولو أن كل شاب يريد الزواج خطب من تماثله في تفكيره ووضعه الاجتماعي ونظره الى الحياة ، لما كان عشر هذا الاختلاف الزوجي الذي نراه الآن ، ولا يحتاج ذلك إلا الى جماعة من المصلحين يدعون الى الزواج ، ويرغبون فيه ، ثم يدلون كل خاطب على الاسرة التي تناسبه ، ولو وجد في كل حيّ من أحياء البلد نفر من هؤلاء المصلحين ، لحل بعض هذه المشكلة .

والخلاصة ان في البلد مشكلة زواج ، وان هذه المشكلة مرتبطة بمشكلة الفساد والاخلاق ولا تحل إحداهما إلا بحل الأخرى ، وأن سببها

نظام التعليم أولا ، ثم هذه العادات في المهور والحفلات والهدايا ، وهذه التكاليف التي لا تحتمل ، ثم ترك المتزوجين أحـــكام الشرع حتى حل الخصام فيهم محـل الوئام ، ثم فقد الوسطاء واختيار الخاطب الفتاة التي لا تناسبه ولا تقاربه ، وتفضيله الجمال فيها على الكمال ، وتفضيله على الدين فيها المال ، وعلى الخلق والحشمة الاغراء والدلال .

ولي الى هذا الموضوع رجعات إن شاء الله تعالى



أسباب المشكلة

نشرت سنة ١٩٥٨

أمامي الآن كتابان ، أحدهما من شاب موظف ، والآخر من آنسة شابة ، الكتاب الأول يشير الى مشكلة من أكبر المشكلات الاجتماعية في بلدنا ، بل هي أكبرها بلا جدال ، والكتاب الثاني يقدم الحلّ لهذه المشكلة ولو أني أعددت العدة ، وهيأت الوسيلة ، ليصلا إليّ في يوم واحد ، لما وفقت الى ما جاءت به هذه المصادفة العجيبة ، وأكرر القول بأن الكتابين أمامي ، فلا تظنوا أني أتخيّل ، وفيها الاسماء والعناوين ولكني لن أذكر منها شيئاً .

يقول صاحب الكتاب الاول ، أنه موظف صغير ، براتب لايتجاوز متني ليرة ، وأنه شريف المحتد ، حسن الخلق ، أحبّ أن يعصم نفسه بالزواج ، وأن ينشىء له أسرة ، فخطب أول مرة فبحثوا عنه وسألوا ، فلما لم ينكروا منه خلقاً ولا ديناً ، قالوا : إن راتبه قليل ، فخطب مرة ثانية وأفهمهم أن راتبه قليل ، فقالوا : وما الراتب ؟ هل هي بيعة يبحث فيها عن الثمن ، نحن لا نهتم بالمال ، ففرح وقال : هنا حطّ بنا الجمال[1] ، وكاد ينتهي الامر ، لولا أنهم قالوا : إنه قبيح الصورة ، مع انه جميل . (هو الذي يشهد لنفسه بالجمال لا أنا ، وأنا لم أره ولا أعرف وجهه) . فخطب مرة ثالثة وقال لهم : لا نريد مشاكل والشرط في الحقل ولا الخصومة في البيدر[2] ، أنا موظف صغير ، مرتبي

---

(١) هذا التعبير من العامي الفصيح (٢) وهذا ايضاً .

مئتا ليرة سورية فقط ، وشكلي كما ترون ، قالوا : قبلنـا بشكلك وراتبك ، ونحن نرحب بك ، ولكنـا لا نكتم عنك أن أخت البنت تزوجت بأربعـة آلاف ، ونحن لا نستطيع أن ننقص مهرها عن مهر أختها ، فلما سمع بالاربعة الآلاف قال : السلام عليكم ، وخطب الرابعة ، وقال لهم : إن مرتبي كذا ، وشكلي كذا ، وأنا لا أدفع أكثر من الف ليرة مهراً . قالوا : أهلاً وسهلاً ، قبلنا ، وبعد مفاوضات ومحادثات لا آخر لها ، قالوا : لا بد من أن تترك أهلك وتستأجر داراً وتفرش غرفة نوم . فحسب ذلك فوجده أثقل من ذلك المهر فولّى هارباً ، وخطب الخامسة ، ووضح كل شيء وقبلوا بكل شيء وقرئت الفاتحة ، واجتمع بالمخطوبة ، وأعد المال ، وعملت معاملة الزواج ولكنهم رفضوا في اللحظة الاخيرة ، اذ تبين أن أم الشاب من النوع البلدي ، لا تعرف شرائط الحفلات ، ولا قواعد الزيارات ، وأنها شوهدت متلبسة بجريمة فظيعة ، إذ استعملت في وليمة الخطبة شوكة اللحم في أكل البطيخ ، وشربت الشوربة بصوت مسموع ، وقشرت التفاحة وهي تمسكها بيدها ...

ونسي صاحب الكتاب ذنباً آخر لهذه الام البلدية ، هي انهـا كلما أكلت حركت ذقنها ...

لذلك ترك التفكير بالزواج ، وكره النساء . حتى صار سوداوياً موسوساً . وهو يختم كلامه بشتائم حارة منتقاة ، للبنات وآباء البنات (وأنا منهم مع الأسف) ولهذا المجتمع كله ...

* * *

أما الكتاب الثاني فتقول صاحبته أنها إحدى ثلاث أخوات شابات يعشن في كنف أخيهن ، وهو لا يقصر في الانفاق عليهن ، ولكنه كلما جاء خاطب ردّه ، وتمحّل له الحيل ، فهذا ضيق ذات اليد ، وهو يخاف أن يضيّق على أخته ، وهذا جاهل ليس كفواً له وهو العالم الجليل ،

(أي في رأي نفسه) ، وهذا من أسرة مجهولة ، وهذا مقطوع ليس له أحد ، فهو يخشى اذا كان خلاف ألا يجد من أهله من يكلمه في أمره ، وهذا كثير الاهل له أم واخت وامرأة أخ ، فهو يخشى ان يظلمن أخته ، واذا جاء خاطب لم يجد له علة أغلى عليه المهر ، وأرهقه بالتكاليف ، وهي تستشير وتستجير ، وتخاف ان يشيع ذلك عنها ، فلا يقبل الخطاب عليها ، وتبقى عانساً طول عمرها .

* * *

هذان هما الكتابان يا أيها السامعون ، وهذه هي المشكلة الكبرى في حياتنا الاجتماعية ، بنات شابات يملأن البيوت ، ينتظرن الزواج ؛ وشباب عزاب ، يجوبون الطرقات ، يطلبون الزواج ، ولكن بين الفريقين سداً منيعاً ، يمنعهما من الاتصال بالحلال فقط ، أما في الحرام فليس بين الفريقين حجاب ، وهذا السد هو الآباء ، عفواً لست أعني الآباء جميعاً ، بل الذين لم يدركوا الى الآن ، أن في الدنيا اليوم وباءً فتاكاً ، يدمر الاخلاق ، ويبدد الاعراض ، وأنه لا دواء له ، ولا منجى منه إلا بالزواج ، وإن كل من يمنع الزواج او يضع في طريقه العراقيل ، او لا يسهّله وهو قادر على تسهيله ، يكون عاملاً على زيادة هذا الوباء ونشره ، وان الخطر فيه على الجنسين ولكن الخطر على البنات أشدّ ، لأن الشاب يجني جنايته ويمضي والبنت هي التي تحمل عواقبها ، ولأن المجتمع يغتفر للشاب ، ويقول : ولد أثم وتاب ، ولكنه لا يغفر للمرأة أبداً ، ولا يقبل لها توبة ، وإن والد البنت لو عقل لسعى هو في زواجها .

لا ، لا يعرضها على الناس ، ولا يرمي بها الى أول طالب لها ، بل يتبع سبيل الشرع ، وطريق العقل ، فينظر الى دين الخاطب والى

خلقه فإن رضي دينه وخلقه ، نظر الى وضع أسرته ، وعادات أهله وتفكيرهم فان كان هو وأسرته موافقين للبنت وأسرتها ، متقاربين في الغنى والفقر ، وفي العادات وفي الوسط ، وكان يستطيع أن يعيّشها كما كانت تعيش في بيت أبيها[1] ، فليقبل به .

أما المهر فلا بدّ منه ، ولكن ليكن معتدلا ، لايرهق الخاطب ، ولا يضيع حق البنت ، فان كان الخاطب صالحاً وليس في يده مال حاضر كأكثر الشباب ، فليكن المهر مؤجلا ، فان وفق الله وعاشا بسلام ، لم يضره كثرته مع تأجيله .

المهر شيء لازم ، اما الشيء الذي ليس بلازم ، ولا مطلوب ، والذي يمنع الزواج حقاً ، ويصعّبه ويعرقل مسيره ، فهو هذه العادات السيئة المتبعة في الزواج ، وهذه العادات انما يسأل عنها ، ويحمل تبعتها النساء ، وأنا اقول بالعناية بكل ماينفع الزوجين في حياتها ، اما الذي لايفيد الزوجين ، ولا تدوم منفعته الا سبعة ايام ، فهذا الذي لاأقول به .

ان هذه العادات تكلف أكثر من المهر ، تكلف الخاطب وتكلف الأب وربما كان فيها خراب البيتين ، وحفلة العقـــد لابد منها ، وهي من السنة ، ولكن المصيبة أولاً في الثياب ، أنا احضر بالبذلة التي ألبسها عشرين حفلة ، وابقى عليها خمس سنين ، اما الام فلا تحضر حفلة البنت الثانية بالبذلة التي حضرت بها حفلة البنت الاولى ، ياعيب الشؤم ! كيف يراها الناس بهـــا مرتين ؟! والاخت كذلك ، والعمة وبنت العم ، وأخت سلفة امرأة العم ، وحماة خالة السلفة ، كل واحدة تكلف زوجها ثمن ثوب جديد لهذه الحفلة اي ان الحفلة الواحدة تفسد موازنة اربعين اسرة ، وربما ادت الى خلاف يدمر حياتها الزوجية ، هذه واحدة ، والثانية في طاقات الازهار ، أعرف حفلة عرس كانت في دمشق ، بلغ ثمن ماأحضر فيها من زهر ألفي ليرة ، ألفي ليرة حقيقة ، اتدرون ماذا كان مصيرها

---

(١) وهذا هو الشرط الاول .

لم يتسع لها المكان ، فركم بعضها فوق بعض فاستؤجر لها بعد يومين طنبر ليحملها الى المزبلة ، الفا ليرة ألقيت على المزبلة وفي البلد الفا امرة تتمنى الليرة .

والثالثة ، علب الملبس وثمن الواحدة منها لا يقل عن خمسة وسبعين قرشا وقد يصل الى خمس ليرات ، وملؤها يكلف نصف ليرة ، فاحسبوا كم يكون ثمن هذه العلب لحفلة متوسطة فيها مئة مدعو ، او مدعوة .

هذا في حفلات الاوساط من امثالنـــا ، ولم أذكر الحفلات التي تكون في النوادي والفنادق والتي تشتمل على المئات من المدعوين ويكون فيها من التبذير والمعاصي واضاعة الاموال مالايدري به الا الله .

ولا يقتصر الامر على هـذه الحفلة ، فان وراءها حفلة العرس ، والهدايا التي يشترط تقديمها الى العرس ، و (النقوط) ، وهي بلاء آخر : يكون عندك الفرح فيهدي اليك اشياء لاتحتاج اليها ، ولا تنتفع بها ، وقد تتكرر الهـدايا فيجيئك عشر ثريات وليس في دارك الا اربع غرف ، وان بعتها عيروك ببيعها ، فلا تدري ماذا تصنع بها ؟ ثم يطالبونك بوفاء هذا الدين فجأة ، تكون قد وضعت موازنتك وحسبت وجمعت ، واستعملت الجبر والهندسة وحساب اللوغارتمات ، حتى اوشكت ان تعدل النفقات بالواردات ، فتفاجأ بطلب مئة ليرة ثمن هدية لفلان الذي زوج بنته .

فتقول اذا كان في دار فلان الفرح بزواج بنته ، فهـــل يلزم من ذلك ان يكون في داري الحزن لاختلال موازنتي ؟

فتقول المرأة : وهل نسيت اذ اهدى الى ابنتك الزهرية الثمينة المصنوعة من الفخار الصيني ؟

تقول : وهل طلبت ان يهدي الى بنتي زهرية ثمينة مصنوعة من الفخار الصيني ؟ وما الذي استفدته انا منها ؟ وقـد وضعت في دار بنتي لافي داري ، ولو وضعت في داري ، فما فائدتها الا رجفة القلب من الخوف الدائم عليها

أن تصطدم بها الخادم ، ويرميها الولد فتنكسر .

فتقول : لابد من ذلك ، عيب !

وما تزال تلح عليك ، وتثقب بذلك اذنيك ، حتى تستسلم وترفع الراية البيضاء . وتقول : خذوا اشتروا هدايا للناس ، بثمن خبز العيال وعلي العقل السلام .

هذه العادات التي يدافع عنها امهات البنات ، والحماقة التي تشتمل عليها رؤوس بعض الآباء ، هي سبب المشكلة .

ولو اننا استطعنا الاستغناء عن الحفلات الكبيرة ، وقصرنا الامر على الاقربين من الاهل ، وألغينا الكماليات التي لانفع لها ، ومنها غطاء السرير (طقم التخت) الذي لايستعمل الا خمس مرات من العمر وثمن الرخيص منه يزيد عن مئة ليرة ، أما الغالي فأعوذ بالله من ثمنه ، ولو عقلنا اكثر لاستغنينا عن ثوب العرس الذي لايلبس الا اياماً ثم يعلق في الخزانة ، كما يعلق الهيكل العظمي في خزائن كلية الطب ، لماذا ننفق المئات وربما انفقنا الألوف ثمن هذا الثوب اذا كان لايلبس الا اياماً ؟ لماذا لانستأجره او نستعيره ؟

انا أرى ان ننظر في هذه النفقات فما كان منها ضروريا للعروسين مفيداً لهما في حياتهما الزوجية وكانا يقدران على دفع ثمنه قبلنا به ، وما كان الغرض منه مجرد اعجاب الناس ، كثوب الزفاف ، وغطاء السرير وطاقات الزهر ، وعلب الملبس ، ابيناه ، ان كل واحد منا يحب ان يثني الناس عليه ، ولكن دفع الف ليرة لسماع كلمة اعجاب ، كلمة (ماشاء الله ، والله شي حلو) حماقة ، ان قيمتها اقل من ذلك بكثير

وبعد فان فيما كتب الشاب في الكتاب الاول مبالغة ، ولو أنه خطب من امثاله ، من ناس يعرفهم من قبل الخطبة ويعرفونه ، لما ردّوه ولما اعترضوا علي ماله ولا على شكله ولا على ابيه وامه ، ولو

ان التي كتبت الي الكتاب الثاني ، راجعت القاضي لمّا جاءها الخاطب الصالح ، وتيقن القاضي من صلاحه ومن تعنتِ الولي ، لزوّجها على رغم أنف أخيها .

* * *

يا أيها السامعون ، انه لايصلح مانشكو من الفساد ، الا تسهيل الزواج وانا ارى ان من يسعى في زواج ، ويعمل على اتمامه يكون ساعيا في خير وبرّ ، عاملا لمكرمة وفضيلة ، ويكون قائماً بطاعة الله وخدمة الوطن .

فيا من عنده بنات لاتردّوا الخاطب الصالح اذا جاءكم ، ولا ترهقوه بالمطالب ، ويا أيها الشباب عجلوا بالزواج ، فانكم لاتطيعون الله بعد اتيان الفرائض وترك المحرمات بافضل من الزواج ، تصونون به اخلاقكم ، وتحفظون به دينكم ، وياعقلاء البلد ، ويادعاة الاصلاح ، ويا ارباب الاقلام ، ويا اصحاب المنابر ، اجعلوا الزواج من أول ماتعملون له وتسعون لتيسيره ، والله يوفقكم ويجزل ثوابكم .



لاتؤجل

اذيعت سنة ١٩٥٦

أنا الآن في ورطة ، يدي تعدّ حقائب السفر ، ورجلي في الركاب ، وعليّ ان اكتب هذا الحديث ، وأن أعد المحاضرات التي دعيت لالقائها في الكويت ، والموضوعات تتزاحم في رأسي وتتضارب وتتراكض حتى لأحسّ بها تضرب أصداغي ، وكلما شرعت في موضوع ، ورد عليّ ظرف من الموضوع الآخر ، حتى تداخلني اليأس ، فكدت القي القلم وأعترف بالهزيمة .

ثم قلت لنفسي : لقد فشلت ، ولكن لماذا لاافكر في اسباب الفشل فأجعل منها موضوع الحديث ؟

لقد فشلت لسببين : الاول اني حملت نفسي فوق ماأطيق ، فانا أعمل في المحكمة ، واكتب في أكثر من مجلة ، واذيع في الاذاعة ، وأعد محاضرات ، ولو اقتصرت على مااستطيع حمله وأداءه على وجهه ، لنجحت .

والثاني : ان من طبعي التأجيل والتسويف ، فأنا لاأزال اؤجل عمل اليوم الى غدٍ ، واتشاغل عنه ، واسوّف فيه حتى لايبقى للمحاضرة أو الحديث إلا ساعات معدودة ، فأركض ركض الارنب ، وكان خيراً لي وأهون عليّ لو مشيت من أول الوقت ولو مشي السلحفاة .

ولكن هل أنا وحدي الذي يحمل نفسه فوق طاقتها ؟ وهل أنا وحدي المبتلى بالتأجيل ؟

اما يعدك الخياط ان يسلمك البذلة في نصف رمضان فلا يزال يسوّف حتى تأتي ليلة العيد ، والبذلة[1] لم تصل اليك ؟

اليس السبب أن الخياط يلزم نفسه بعشرين بذلة وهو لايقدر على أكثر من عشر ؟

اوليس الحذّاء والبنّاء واصحاب الاعمال كلها مثل الخياط ، كلهم يحمل اكثر مما يطيق ، فيعجز عنه ؟

والتأجيل .. أليس التسويف والتأجيل مرضنا جميعاً بل هــو على التحقيق رأس امراضنا الاجتماعية ، وعلة عللنا ، كل أب يعرف طريقة لتربية ولده خيراً من طريقته ، وكل تاجر يجد اسلوباً لتوسيع تجارته احسن من اسلوبه ، وكل رجل يعرف الطريق لتحسين صحته ، واصلاح سيرته في بيته مع أهله وزوجته ، ولكن كل واحد من هؤلاء يؤجل الابتداء بهذا الاصلاح يوما بعد يوم حتى تمر السنون الطويلة وهو لم يفعل شيئاً. كل مدخن يقول لنفسه ، سأترك التدخين ، ولكنه يؤجل تنفيذ هذه الارادة ، من يوم الى يوم ، فتمضي السنوات وهو لايزال كما كان . وكل مسرف مبذر يعزم ان يقتصد ويزن نفقاته بميزان العقل ، ولكنه يؤجل التنفيذ ، وكل فاسق تدركه لحظات يسمع فيها آية او موعظة ، فيرق قلبه ، وتسمو نفسه ويعزم عــلى التوبة ولكنه يؤجل ، يقول سأتوب اذا جاء رمضان وأرجــع الى الله ، وأكون من الصالحين ، فاذا جاء رمضان قال ، ساحج واتوب في الحج ، فاذا ذهب وقت الحج قال انا الآن شاب وسأتوب اذا بلغت اواخر العمر ، ويمضي العمر وهو لم يتب ولم يصلح .

ونحن لاينقصنا العلم ، بل ينقصنا الشروع في العمل بما نعلم ،

(١) البذلة في الاصل ثياب التبذل ، ولكني اكتب هذه الفصول للعامة فآثرت مايفهمون

لا ، لاينقصنا العلم ، ان كل واحد منا يعلم ان الكذب شر والصدق خير وكل واحد منا يعلم ان للوالدين حقوقاً ، وان صلة الرحم من الواجبات وان الغش والظلم والعدوان من اسباب غضب الله ، ولكننا لانعمل بهذا الذي نعلمه .

ولقد كان ابي رحمه الله ، كلما ايقظني لصلاة الصبح ، يقول لي :

- لا تتراخ ، اقفز قفزاً

فأتراخى ، واتكاسل ، ثم اتناوم فلا ارد ، او ارد ولا اقوم ، حتى يمل فيدعني .

وانا أعض اصابعي الآن ندماً لأني لم اسمع هذه الوصية : « اقفز قفزاً » . ولو اني سمعتها وعملت بها ، او لو أنه أجبرني عليها ، لتغيرت حياتي ، ولما فشلت في إعداد هذا الحديث ، ولكنت في دنيـاي وفي ديني خيراً مما أنا عليه اليوم .

وانا الى الآن كلما اردت ان اقوم في الصباح أحس هذه الكلمة ، كلمة أبي تدوي في أذني « اقفز قفزاً ، قم الى الصلاة فالصلاة خير من النوم » . ثم أسمـع صوت الشيطان يقول لي : « نم دقيقة اخرى . فالوقت فسيح ، والفراش دافىء والجو بارد »

ولا ازال بين داعي الواجب ، وداعي اللذة ، أفكر في ثواب الصلاة فأتحفز للقيام ، واتصوّر لذة المنام وبرد الماء فأسترخي واتقلب من جنب الى جنب ، ولا تزال نفسي بينهما كنواس الساعة (الرقاص) بين : (قم) ، (نم) . (قم) ، (نم) . (قم) ، (نم) . حتى تدركني رحمة الله فأقفز ، او تطلع الشمس وتفوت الصلاة ، واقوم وقـــد مضى الوقت ، ودنا العمل ، فآكل طعامي لقمة بالطول ولقمة بالعرض ، ولقمة تعترض في صدري فأغصّ بهـا ، وألبس جورباً على الوجه وجورباً على القفا ، وأعقد العقـدة مائلة ، وازرّر زر القميص

الاول في العروة الثانية ، وانسى من عجلتي الساعة أو النظارات ، وأهرول في الطريق ، فأسيء هضمي ، وأتعب معدتي ، وأضحك الناس عليّ ، وكل ذلك لأني اطعت الشيطان لعنه الله فلم أقفز قفزاً ، الى صلاة الصبح .

وانا اقرأ كل يوم مهما اقللت ومهما كنت مشغولاً اكثر من مئتي صفحة ، اكثرها مما لايفيد علماً ، ولا يعلم أدباً ، ولا يقوّم خلقاً ، وأدع عشرات من الكتب الجدية النـافعة ، مع أني ما اشتريتهـا إلا لاقرأها . قـد صففتها امامي ، ولكني كلما هممت بالشروع فيها أجدها كثيرة ، فأؤجلها الى غد ، ويأتي الغد فأحذفها الى مابعـده ، وتمضي السنون وماقرأت منها شيئا ، والسبب مرض التأجيل والتردد .

هذا المرض الذي طالما اضاع علينا أموالاً ومكاسب ، وخـيرات ومنافع ، وافقدنا الدنيا والدين ، وهو مرض الجماعات منا والحكومات .

كلما جاء الصيف شكا الناس من فساد الطرق وسوء السيارات ، وقلة الماء ، وغلاء البيوت والمـآكل ، ووضعت الخطط للاصلاح ، ونهم بأن نشرع بها فيكون الصيف قـد ولّى ، فنؤجل ونسوّف حتى يجيء صيف جديد .

ولما كنت في بغداد سنة ١٩٣٦ فاض نهر دجلة فيضاناً مخيفاً مرعبا ، صدع قلوب الناس ، وكاد يغرق بغداد كلها ، ونادى منادي الخطر ، وحشدوا الناس من الشوارع لاقامة السدود ، فلما ذهب الخطر جـاء التسويف ، وبقي الامر كما كان الى الآن .

وكل مشروع من المشروعات الكبرى في بلاد هذا الشرق كلها . اما ان ينام على فراش التخدير (بمورفين) التسويف والتأجيل ، واما ان يجيء مرتجلا مشوها كجنين ولد قبل الاوان .

انا لانؤدي واجبـاً في موعده . حتى صارت كلمة الوعـد الشرقي

رمزاً مع الاسف للوعد الذي لايوثق به ، ولا يطمأن إليه ، وكلما اوغلت في الشرق رأيت ذلك اظهر واوضح ، فلا تقام في باكستان حفلة في موعدها ، ولا يأتي ضيف إلا متأخراً ساعة ، مع انه لو جاز لكل أمة في الدنيا ان تهمل المواعيد وتتراخى فيها ، لما جاز ذلك للمسلمين ، لان دينهم يقوم على مواعيد مضبوطة ضبط الدقائق والثواني . فالذي يصلي قبل موعد الصلاة بخمس دقائق لا تصح صلاته ، والذي يفطر قبل اذان المغرب بخمس دقائق لايصح صومه ، والذي يصل عرفة بعد انتهاء وقت الوقوف بخمس دقائق لايصح حجه .

وكل ذلك لتعليمنا ضبط المواعيد ، وإلا فماذا يضر الصائم في الصيف ان صام اربع عشرة ساعة الا خمس دقائق ؟ الا يصوم في الشتاء اثنتي عشرة ساعة ؟

المراد ان نتعود النظام والضبط في اعمالنا كلها ، وألاّ نصاب بطاعون التأجيل والتسويف واخلاف المواعيد .

والرسول ﷺ يقول آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان . فاخلاف الوعد والاخلال به ثلث النفاق . والاسلام لايعرف هذه الوعود المائعة ، الوعود الشامية العتيقة : « قبل الظهر » ، « بين الصلاتين » ، « بعد المغرب » ، بل يعرف الوعد المضبوط ضبط الساعة ، ضبط اوقات الصلاة واوقات الامساك والافطار.

يا أيها السامعون والسامعات

ان الذي لا يقفز الى الفريسة تفلت منه ، ومن لايغتنم الفرصة في وقتها لايجدها ، ومن لا يضرب الحديد حامياً لايستطيع ان يضربه اذا برد ، والذي يؤجل ماذا يجب عليه ، لايقدر ان يؤديه كاملاً .

فيا أيها المدخن ، اذا عزمت حقا ان تترك الدخان ، فابدأ من

الآن ، التي الدخينة من يدك ، ولا تؤجل تركه دقيقة واحدة ، لأن الدقيقة تجر دقيقة والساعة تجر ساعة فلا تتركه ابدا .

ويا ايها التلميذ الذي يريد ان يستعد للامتحان ابدأ من الآن . ولا تقل سأبدأ غداً ، لان الغد اذا جاء صار حاضراً واعقبه غد جديد ، فلا ترى إلا الامتحان قد صار امامك وانت لم تصنع شيئاً .

ويا أيتها المرأة التي تريد ان تصلح نفسها ، وتضع عقلها في رأسها ، فتهتم بأمر زوجها واولادها ، لابالازياء والاستقبالات وبالكلام الفارغ ، اشرعي من الآن .

ويامن يعلم ان بعد الدنيا آخرة ، وان بعد الحياة موتا ، وان لابد من وقفة للحساب ، ومشية على الصراط ، وليس بعدُ إلا الجنة أوالنار ، تب من الآن ، ولا تؤجل التوبة الى غد ، فانك لاتدري ماهو مقدر عليك في غد .

وليكتب كل واحد منكم ، هذه الحكمة في لوحة كبيرة ، (لاتؤجل عمل اليوم الى غد) وليعلقها في صدر مجلسه . ولينظر فيها صباحه ومساءه ، وليعمل بها ، فهي دستور النجاح ، واساس الفلاح :

« لا تؤجل عمل اليوم الى غد » !

من حديث المزعجات

اذيعت سنة ١٩٥٨

الكلام اليوم في حديث المزعجات ، وانا احب قبل ان ابدأ الحديث ان أخبركم بسر من أسرار المهنة هو ان الحديث العلمي الذي أتعب في إعداده ، وأنفق فيه الساعات الطويلة لايلقى من التشجيع والرضا عشر مايلقاه حديث كحديث اليوم الذي اكتبه في ساعة واحدة بلا كد ولا تعب ، فهل معنى هذا ان أكثر السامعين والسامعات من غير العلماء والمثقفين أم ان الناس حتى العلماء منهم والمثقفين لاينتظرون من الاذاعة إلا أمثال هذه الاحاديث السهلة القريبة .

ولكن مالي ومالهذا الكلام ، وانا الرابح على كل حال ؟

* * *

ان ازعج المزعجات ، واشنع المصائب ، هذا الراد (الراديو) افليس عجيباً ان اذيع فيه واتكلم عنه ؟ هذا الراد الذي حطم اعصابي واطار صوابي ، والذي اخترعه مخترعه ليؤذي به الادباء وأهل الفكر فكلما استغرقوا في افكارهم ، او طاروا في آفاق خيالهم ، او نسوا الدنيا وما فيها في غمرة التأمل ، او في ذهلة الالهام ، قرع آذانهم صوت الراد من بيت الجيران بأغنية رقيقة او موسيقا صاخبة ، او حديث اشد ازعاجا وغ لاظة من حديثي هذا ، فطارت الافكار ، وامحت صور الخيال وانقطع الالهام ...

ولكن لا . اني اظلم المخترع ، فإنه مااخترع الراد لهؤلاء الجاهلين المزعجين ، الذين لايطربون إلا ان أسمعوا معهم مئة دار ، لايدرون حينما يمدون اصبعهم الواحدة فيحركون هذا المفتاح حركة طفيفة ، كم أطاروا النوم من رأس مريض ، يقاسي الآلام ، ويرجو لحظة منام ، وكم ضيعوا على العلماء والأدباء من ثمرات العقول ، وصور الجمال ، وكم شغلوا تلميذاً عن امتحـــانه ، وكم جرحوا من قلوب المحزونين . وانا لا أكره ان يستمتع كل امرىء بحريته ، فيسمع ما شاء من الاغاني ، ويطرب ماطاب له الطرب ، ولكن ماذنبي أنا ؟ ولماذا يسلبني حريتي ، فيسمعني مايشاء هو لا ما أشاء أنا ؟ لماذا يطربني على رغم أنفي ، ومن أدراه أني أطرب للذي يطرب له هو ، وان الاغنية التي يحبهـــا هو لا أكرهها أنا ؟ والتي تلذه لاتسوؤني ؟ ولماذا يزعج دائرة قطرها مائة متر وفيها خمسمئة انسان ؟.

لقد صرت أكره الرادّ وكل ما يأتي به ، ولقد افسد ذوقي ، وذهب بالحسّ الفني من نفسي ، كنا ان سمعنا الاغنية الحلوة طربنا لها ، وصفقت لها قلوبنا فما زالت بنا الاذاعات حتى كرّهت إلينا كل أغنية حلوة لأنها تعيدها مرة ثانية ، وثالثة ، وعاشرة ، وتعيدها المرة التاسعة والتسعين ، فلا يبقى منها إلا ما يبقى من البرتقالة عصرت ماءها . وخذ ألذّ أكلة تحبها ، ان فرضوها عليك شهراً كاملاً لاتأكل غيرها الصباح والظهر والمساء وعشر مرات خلال ذلك فانك تكرهـا ، وتشتهي ان تستبدل بها خبزاً وبصلاً .

ولو كان سهماً واحدا لاتقيته ، ولكن جارك هذا يحب السهر فهو يفتح الراد على مصراعيه ، فلا يزال يجلجل ويولول الى نصف الليل ، وذاك يحب البكور فهو يقوم فيفتـح الراد على مصراعيه ، من قبل طلوع الشمس .

هذا واحد

الثاني : هذه السيارات ان مرت في الشارع حملت روحك على كفك ووضعت الموت بين عينيك اذ تراها أمامك ووراءك وعن يمينك وعن شمالك ، كأن الجميع يتسابقون الى امتلاك مناجم الذهب فما فيهم إلا مسرع كالمجنون ، يجوز بك كأنه راكب على اجنحة شيطان فلا تستطيع ان تراه ، وان كان الليل اعمت العيون بهذه المصابيح فلا ندري اين المفرّ ؟ وان هربت الى دارك لحقتك أصواتها ، التي توقظ الموتى ، وتميت الاحياء ، وتنزل على رأس النائم كأنها ضربة مطرقة من حديد ، وما أدري لماذا يركّبون لها هذه الزمارات الشنيعة التي يبلغ صوتها مسيرة كيل (كيلو متر) ، وهذه المصابيح التي يصل ضوؤها الى بعد عشرين كيلاً ؟.

والثالث : هو الهاتف الآلي ، يرن الساعة الثانية من الصباح ، فتقوم من نومك مرتاعاً فزعاً ، تحسب ان قد حل خطب بقريبك او حبيبك ، وتتعثر وانت ماش بعيون أغلقها النعاس ، وتصطدم بالمنضدة فتصاب ركبتك ، او تكسر الآنية الثمينة التي ترتبط بذكرى عزيزة عليك ، حتى اذا وصلت الى سماعة الهاتف قال لك : آلو . ملهى السريانا ؟

او تفتح عليك امرأة ملهوفة ، وانت مسرع في الصباح الى عملك ، فترجوك ان تدعو لها جارتك فلانة لأمر ضروري ، لايحتمل التأجيل ، وقد يكون بينك وبينها خمسون متراً ، فاذا احضرتها وحملت في ذلك المشقة والتأخير ، اذا بها تريد ان تسألها عن روبها الاحمر ، عند أي خياطة خيطته ، وعن استقبال مديحة خانم او الست ماري في أي يوم من الشهر ..

والرابع : الصديق الفارغ الوقت من العمل ، الفارغ الرأس من الفكر ، يحب ان يمضي ساعتين من وقته فيفتش في قائمة اصحابه فلا

يجد غيرك وتكون صباحاً مستعجلا الى عملك ، تريد ان تلبس وتأكل وتنظر في حاجات الدار ، وان كنت ممن يعمل بعقله او كان عندك دعوى يجب ان تدرسها قبل ان تذهب ، او مقالة ينبغي ان تتمها ، او بقية من الاشغال الشاقة ، أعني تصحيح وظائف التلاميـذ - وبينما انت في هذه الغمرة غارقاً في لجتها الى أذنيك ، اذا بالباب يقرع ، واذ انت بهذا الصديق المحترم ، ويدخل وتضطر ان تقعد أمامه ، لاتقعـد على الكرسي بل على النار المتوقـدة تنظر في ساعتك ... وهو لايبـالي ويكون بينكما هذا الحوار : « اي وشلون الصحة » ؟ « الحمد لله » . « والله الجو اليوم طيب » . « طيب الحمد الله » .

« سمعت ان ملك مراكش القى خطبة العرش انها أخبار طيبة »

« نعم أخبار طيبة » .

هل قرأت قصيدة الصافي النجفي في وصف الطاووس ؟

فتتململ وتتحرك في مقعدك ، وتقوم وتقعد ، فتـدركه نوبة من اللطف المفاجىء فيقول لك بعد ان تمضي عليه ساعة وربع في هذا العلك :

شوف اخي انا لست غريباً ، خذ حريتك ... لاتهـتم بي بس أعطني كتاباً اقرأ فيه واشتغل شغلك !

والخامس : هذا الذي يكون في مجلس ، فيه سبعة او ثمانية من الناس فيستلم وحده الحديث من بابه الى محرابه ، لايدع لأحد فرجة بين جملتين يمد منها لسانه بكلمة ، ولا يبال أمل الحاضرون أم تعبوا أم طلعت ارواحهم من حديثه البـارد ، الذي يكون له اول ولا يكون له آخر ، كأن القوم قد دعوا الى محاضرة . على أن المحاضرة لها موضوع معروف ، ومدة معينة ، وهذه محاضرة ليس لها مدة ولا موضوع . وافظع من ذلك ان يكون هذا الحديث في مدح نفسه وتقريظها ، وافظع منه ان يكون كذباً لاأصل له ...

والسادس : الذي يدخل عليك في مكتبك او محكمتك يريد ان يسألك عن قضية ، او يستخبرك عن دعوى فـلا يعمد الى الموضوع مباشره بل يسرد لك مقدمة تمتد خمس دقائق ، عن ادبك ومنزلتك ، وتشرفه بلقائك ، ثم يبدأ القصة من قبل الطوفان ، ويسرد عليك منشأ الخلاف ويقف وسط الحديث ، ليقول :

وكان حاضراً يومئذ جماعة منهم هذا ... الذي كان عطاراً في سوق الجمعة ، ما اسمه ؟ اللهم صلّ على النبي ، عجيب كيف نسيت ؟ اسمه على رأس لساني ، يلبس عمامة بيضاء ، ما اسمه ياربي ؟ . ابن اخيه موظف في مؤسسة الكهرباء ، وقد جاءنا من أيام واصلح لنا الساعة ...

ويبقى عشر دقائق وهو في هـذا اللت والعجن ، وانت تنتظر الفرج ، والمراجعون ينتظرون على الباب .

والسابع : الذي يقفك في الطريق وانت مستعجل تسير الى موعد ضروري ، الى درس في الجامعة ، او محاكمة ، او دعوة ، او اجتماع .

فيقول لك : يأستاذ . ياستاذ .

فيسلم هاشاً باشاً كأنه صاحبك من عشرين سنة وكأنه يهم بتقبيلك وتقف انت جامداً لأنك لاتعرفه ، ولم تر طلعته البهية قبل اليوم .

فيقول لك معاتباً : شو ما عرفتني ؟

فتقول : لا . فيقول : الله ! احزر يأستاذ تذكر

وبعد ان يسائلك دقائق . يأخذ هيئة الجد ويقول :

أحب ان اعرض عليك مسألة آخذ رأيك فيها ، انا تزوجت كما تعلم بنت فلان وكان المهر ...

ويمضي يسرد قصة تستغرق نصف ساعة ، يضيع فيهـا الدرس ، والمحاكمة ، والدعوة ، والاجتماع .

والثامن : المرأة النظيفة المدبرة ربة البيت المثاليـة ، التي لا يخطر على بالها تنظيف السجـاد وجمع ست بنات لضربها بالعصي ، إلا عـلى السطح ، قبل ان تطلع الشمس ، فلا تحس وانت نائم بعد الصلاة إلا ست عصي قد نزلت خبطاً على رأسك ، في اوركستوا همجية وحشية ، توقظ الاموات فضلا عن النائمين . ومثلها الرجل النظيف المهذب الذي لا يستطيع ان يتحمل الوسخ في فمه ولا في أذنه ، ولا ان ينتظر حتى ينفرد بنفسه فلا تزال اصبعه تدور في انفه وفي أذنه ، وهو في المجلس الحافل ، ينكش أسنانه بعوده ، وربما فعل أشنع من ذلك فنكشهـا بظفره ، ثم مسحه بالمقعد ، او اخذ جريدة او ورقة فطواها ونظف اسنانه بطرفها .

والتاسع : الذي يدخل عليك فلا يجد على مكتبك ورقة إلا مدّ اليهـا يده فرآها ، ولا كتاباً إلا فتحه ، ولا جريدة إلا سحبهـا ، ونشرها ونظر فيها .

والعاشر : الذي يركب الترام فيضطجع على المقعـــد اضطجاعاً ، ويضع رجلا فوق رجل ، ولقد كنت مرة في مصر مع صديق لي من مشايخ الأزهر ، معروف بالنكتة الحاضرة ، والروح الخفيفة ، فركبنا الترام ، وكان الذي امام الشيخ رومياً ضخم الجثة ، ثقيلا ، قد وضع رجلا على رجل ومدّها ، حتى صار يمس بطرف حذائه جبة الشيخ ، فنبهه الشيخ بلطف فقال له :

انا خرّ (أي حر) ، اذا انت مابيعجبك ، انت بياخد تاكسي .

فما كان من الشيخ إلا ان مد رجليه الاثنتين فوضعهما في حضنه

ـ فقال : ايه ده ؟ ايه ده ؟

ـ فقال : انت خر ، انا خرّين !

وسقط الركاب من الضحك .

في الفندق

نشرت سنة ١٩٥٩

أكتب هذه الكلمة في فندق كبير في مصر لا أحب ان أسميه لأني لاأريد الحديث عنه بالذات انما أريد الكلام عن الفنادق كلها .

يمر الناس عليه ، فيرون اسمه على بابه تضيء حروفه ، ترقص عليها الانوار ، ويلمحون أبهاءه الواسعة ، واضواءه الظاهرة والخفية ، ويرون خدمه بباهي الثياب وفخم الهيئات فيحسبون أن فيه النعيم المقيم ويتمنون أن ينزلوا فيه ليلة في العمر ، ليذوقوا لذة العيش ، ويعرفوا ما بهجة الحياة ، وأنا النازل فيه لاأتمنى إلا ان اخرج منه واعود الى بيتي .

ان الانسان لايعرف قيمة النعم إلا اذا فقدها . ولقد عرفت الآن ماقيمة حياة الاسرة ، ان قعدة بلدية على (طراحتي) وأولادي أمامي وكتابي في يدي أمتع من كل مافي الدنيا من فنادق .

وما حياة الفنادق ؟

لقد عشت فيها مرة تسعة اشهر تباعاً ، كنت أنزل خلالها في افخمها واعظمها ، ولقد خبرتها وعرفتها فلذلك كرهتها وعفتها ... تكون لك الغرفة فيها كل مايمتع ويريح ، السرير اللين والفراش الناعم والحمام النظيف ، والماء الحار للغسل والماء المثلج للشرب ، والهاتف والجرس والراد والتدفئة في الشتاء والتبريد في الصيف ، ولكنك تحس مع ذلك انك

غريب وانك مفرد ، اذا اغلقت عليك بابك لم تشعر ان معك من يعنيه أمرك ويشغله شأنك ، واذا خدمت فإنما تخدم لمالك وكل شيء في الفندق بالمال لاتستطيع ان تخطو خطوتين إلا ان دفعت قرشين .

ان نزلت من السيارة ، أسرع الفراش يفتح لك الباب ، ووقف في طريقك لايزيح إلا بالقرشين ، وان ولجت الباب الدوار وجدت أمامك فراشاً آخر ، فدفعت له قرشين آخرين ، وفي المصعد فراش ثالث ، وضريبة ثالثة ، ورابع وخامس وتاسع وعاشر ، حتى انك اذا دخلت دورة المياه ، وجدت فراشاً يفتح لك باب بيت الخلاء ويقول لك : تفضل يابيه ! ويقف ، وتقف انت لاتدري كيف تصرفه !

لايدري انه ماسمي هذا المكان بيت الخلاء (ولا مؤاخذة) ، إلا لأنك تخلو فيه بنفسك وتكون فيه وحدك ، فهل يظن هذا الاحمق والذي ارسله ليلحقك الى هذا المكان ، ان المرحاض (صالون استقبال) !؟

والفنادق الكبار فوق هذا كله هي البقعة الوحيدة التي تجوز فيها السرقة ، وترتكب علناً ، فالطعام الذي ثمنه عشرة يأخذون منك فيه خمسين ، وانا أدرك فرق السرير عن السرير والغرفة عن الغرفة ، وانه اذا كانت الغرفة في الفندق الصغير بعشرين قرشاً صاغاً فلتكن هنا بجنيهين ، بزيادة عشرة أضعاف ، لا بأس . ولكن ماالفرق بين البيضة المسلوقة التي تباع في السوق والبيضة التي تقدم في الفندق الكبير ؟ ولماذا يكون ثمنها في السوق قرشاً وهنا خمسة قروش ؟ ولماذا يكون ثمن قنينة الكوكاكولا في الفندق بثلاثة اضعاف ثمنها في السوق ؟

اذا انا اخذتها في القهوة وزادوا علي الثمن افهم ان الفرق اجرة

القعود في القهوة ولكن لا افهم لماذا يزاد علي ثمنها وانا آخذها في مكان دفعت اجرة اقامتي فيه مضاعفة !

وهل يعقل ان يكون عشاء الواحد بسبعين قرشاً مصرياً اذا ضم إليها مايلحقها في العادة من ضميمة الخدمة والنحلان (البقشيش) صار العشاء بجنيه للشخص الواحد ، في البلد الذي يبدأ فيه راتب القاضي بخمسة عشر جنيهاً ؟

هذا وما يقدم في هـذا العشاء لايزيد ثمن مثله في السوق على خمسة عشر قرشاً ؟

فماذا أسمي ذلك اذا لم أسمه سرقة ؟

هذا وانا لم انزل في شبرد ولا في هلتون ، حيث تكلف كل ليلة ثمانية جنيهات ، وثمانية جنيهـــات هو المبلغ الذي يعيش به اكثر من نصف عائلات مصر شهرا كاملا .

وما طعام الفنادق الكبار ؟ اعوذ بالله من هذا الطعام .

قد يزعم زاعم انه طيب أو انه صحي ، ولكنه لايستطيع ان يقول انه طعام عربي ، ولا انه اعد للعرب ولا انه طبخ على اذواقهم انما هو ذوق الانكليز واسلوبهم فرضوه علينا .

ولقد اكلت في اكبر الفنادق في مصر ولبنان والعراق وباكستان والهند وسيام والملايا واندونيسيا فلم اجد إلا طعـام الانكليز واسلوب الانكليز لاسيما في الفطور ، الفطور الذي يقدم في البلاد الحارة بل في سنغافورة وهي على خط الاستواء تماماً ، هو الذي يقدم في صوفر التي تعتم جبالها بالثلج .

فمتى نتحرر من (هذا) الاستعمار الاجتماعي و (ذلك) الاستعمار العقلي كما تحررنا من الاستعمار السياسي والعسكري ؟ ومتى نعتز بعاداتنا

ونتمسك بها كما يتمسكون هم بعاداتهم ؟ ومتى تكون فنادقنا لنا تعد الطعام الذي نألفه ونشتهيه او يكون لنا فيها (على الاقل) نصيب ؟

ان من ينزل واحدا من هذه الفنادق الكبار في مصر أو دمشق او بغداد لايحس انه في بغداد ولا في دمشق ولا في مصر ، بل يظن انه في انكلترا او فرنسا .

كل شيء فيها اجنبي

حتى اللغة .. ان اللغة التي يتخاطب بها موظفوها والتي يقدمون لك بها قائمة الحساب ، ليست اللغة العربية لغة البلد ، ونحن نتظرف او نتلطف أو نذل ونتصاغر لست ادري ماذا اقول فنخاطبهم بهذه اللغة بالفرنسية او الانكليزية ونحن في بلدنا ونحن نملك اشرف لغة وأجود لغة وأوسع لغة وأغنى لغة بالبيان وهي لغة العرب !

ان هذا شيء لايحتمل

إني كلما سمعت العربي يتكلم في هذه الفنادق بغير العربية مجاراة لمن فيها أحس النار في اعصابي من الغضب للعربية .

انهم يأكلون من خبزنا ويترفعون علينا ، واذا دخل الوطني هذه الفنادق بلباسه الشرقي العربي البلدي اروه الازدراء حتى يخجل بلباسه وهو في بلده .

أقول مرة ثانية : ان هذا شيء لايحتمل .

لقد رضينا ان تأخذ هذه الفنادق من اموالنا بلا حق واغمضنا عيوننا وتركناها تسرقنا ، أما ان تأخذ من كرامتنا ، وتعدو على لغتنا وتزدري أزياءنا وعاداتنا فلا !

وقد يكون في عاداتنا وأزيائنا ما هو غير صالح وما يحتاج الى

تعديل أو تبديل ، ولكننا نريد ان نبدله أو نعدله نحن بأنفسنا برأينا ونظرنا ، لأن يعدله لنا صبيان الفنادق و (كراسين) الاوتيلات ..

* * *

وبعد ، فان أمانة القلم في أعناقنا معشر الكتاب ، توجب علينـا ان نقرع به كل باب اصلاح ، وهذا باب ماقرعــه بقلمه قبل اليوم أحد من الكتاب .

★ ★ ★

بين المعلّم والتلميذ

نشرت سنة ١٩٣٢

دخل علينا (في العام الماضي) زميلنا الاستاذ (فلان) غرفة المعلمين وهو موبد الوجه ، ساخط متذمر يرتجف من الغضب ، فألقى الدفتر على المنضدة حنقاً وانتبذ ناحية من الغرفة فقعد فيها ، وأمسك برأسه يفكر .. فاقتربت منه وجعلت أسأله :

- مالك يا أخي ؟ ماذا عراك ؟ قل لنا ، حدثنا ، لعله خير ان شاء الله !

قال :

- لقد ضاع الحياء . وذهبت الاخلاق ، ولم يبق في التلاميذ من يستحي او يخجل ؛ ولم يبق فيهم إلا كل وقح ، صفيق الوجه ، فلعنة الله على هذه الايام ولعنة الله على هذه المهنة المرذولة !

قلت :

- وماذاك يا أخي ؟ ألا تحدثني الحديث ، هل اجترأ عليك بعض الاولاد؟

- قال : وأي جراءة ! كنت اقرأ عليهم درس التاريخ ، فقلت لهم : ان الفينيقيين اجدادكم [١] فيجب ان ..

فما راعني إلا تلميذ منهم خبيث قد انبرى لي فجعل يرد عليّ

---

(١) هذا ما كان في مناهج التاريخ تلك الايام .

ويناقشني ويقول : لا بل ان اجدادنا هم العرب الذين جاءوا من سفح ابي قبيس ، وجنبات سلع تحت راية سيد العالم (محمد بن عبد الله ﷺ) فحملوا الى هذه البلاد رسالة الله ، ونشروا فيها نور الاسلام ، ونفخوا فيها روح الصحراء . ثم لم يقتنع هذا الولد الخبيث بجوابي ، ولم يسكت ولم يَنِ يتكلم ويناقش حتى اخرسته بالقوة . قبحه الله وقبح من لقنه هذه الآراء . قبحه الله ما أشد وقاحته ، واكثر سلاطته ، ماجئته بحجة إلا جاء بثلاث ، ولا قلت كلمة إلا قال أربعاً .. قبح الله من لقنه هذه الآراء ..

- قلت : حسبك تقبيحاً يرحمك الله ، إن الذي لقنه هذه الآراء انما هو .. انا ! أفلا تراها أرضى للحق ولمصلحة الامة ، من آرائك هذه التي جئته بها ، والتي جاء بها من قبلك فريق من اعدائنا وخصومنا ففرقوا كلمتنا ، وكذبوا على تاريخنا ، بفرعونية ابتدعوها في مصر ماانزل الله بها من سلطان ، وفنيقية اخترعوها في الشام ، وآشورية سيبتكرونها في العراق ، وعفريتية سيأتون بها في ... فيما لست أدري أين ؟ كأنما يرضيهم ان ننتسب للشياطين او للقردة « اجداد دارون وشيعته » ولا ننتسب للامة العربية ، فنقرأ تاريخها ، فنملأ الدنيا فخراً بها ، وعملا على احياء مجدها ..

وعدّ ياأخي عن هذا . واخبرني لماذا تغضب اذا ناقشك تلميذك ، وتخشى ان تعود للحق لانه جاء على لسان تلميذ ، وتصر على الباطل لانه خرج من فيك ، اليس خيراً لك وأجدر بك وانت معلم ، ان تعود الى الحق وتكافىء صاحبه ، وتعلم التلاميذ أنه لا شيء أحلى من الثبات على الرأي إلا الرجوع الى ماهو خير منه ، بدلا من ان تعلمهم كيف يثبتون على الباطل ويدحضون به الحق ؟

- قال لا .. لا .. انا أعدّ هذه الآراء تعدياً على حرمة المعلمين ،

وتشجيعاً للتلاميذ على مناوأتهم والمشاغبة عليهم !

ـ قلت : وانا اعتبر آرائك هذه تعديا على حرمة الحق ، وتشجيعاً للتلاميذ على دوس الحقائق التاريخية والعبث بمصلحة الامة .

وهل تراني اقول للتلاميذ : قوموا شاغبوا على معلميكم أو أفسدوا الدروس حتى لاتتعلموا شيئاً ؟ لا ياصاحبي انا اكثر منك غيرة على سير الدروس وتأمين النظام فيه ، لاني أعلم ان العلم امضى سلاح في الحياة ولكني اقول للتلاميذ : تحروا الحق ، وقدروه حق قدره ، واعلموا ان المعلم اكبر من التلميذ ، ولكن الحق اكبر من المعلم ومن المدير ومن الوزارة ومن جمعية الامم .. وربما ناقشني تلميذ أشد من هذه المناقشة وجرؤ عليّ اكثر من هذه الجراءة فأطفيء حدته بسيل من الحجج والبراهين فيخمد الحق ثورته ، فلا يلبث ان يقعد معترفا ويؤوب مستغفراً . واذا آنست منه وقاحة او سوء أدب ، عاقبته على سوء أدبه ووقاحته لا على حواره ومناقشته .

والشرط في ذلك كله . التثبت من الحقيقة ، والمحافظة على أدب البحث . وقدر المعلم حق قدره ، والغيرة على المصلحة ، والضن بالوقت ان يضيع في الكلام الفارغ ، فاذا استكمل التلميذ هذه الشروط وجب عليه (لاسيما تلميذ التجهيز ، لاسيما طالب الجامعة) ان يقف عن تلقي مايعتقد خلافه للحق ، أو إفساده لمصلحة الأمة ، وان يناقش فيه الاساتذة بأدب ، وان يعلم ان عليه ان يحترم الحق اكثر من احترام الاستاذ ، وان يحب الوطن اكثر من حب المعلم ، وان يخشى تأنيب الوجدان ، وعقاب الله ، اكثر من خشية عقاب المدرسة وجزاء الادارة .

ولقد كان ارسطو « المعلم الاول » يقول : افلاطون استاذي . ولكن الحق غايتي . فاذا اختلف افلاطون والحق . فأنا مع الحق .

إلى الطلاب

نشرت سنة ١٩٥٩

زرت من أيام صديقاً لي ، قبيل المغرب ، فجاء ولده يسلم عليّ وهو مصفر الوجه ، بادي الضعف ، فقلت : خيراً ان شاء الله .

هل هو مريض ؟

قال ابوه : مابه من شيء ، ولكنه كان نائماً

قلت : وماله ينام غير وقت المنام ؟

قال :ليسهر في الليل ، انه يبقى ساهراً كل ليلة الى الساعة الثانية .

قلت : ولم ؟ قال : يستعد للامتحان

قلت : اعوذ بالله ، هـذا اقصر طريق للوصول الى السقوط في الامتحان . لقد دخلت خلال دراستي الابتدائية والثانوية والعالية امتحانات لاأحصي عددها فما سقطت في واحد منها . بل كنت فيها كلها من المجلين السابقين ، وما سهرت من اجلها ساعة ، بل كنت أنام ايام الامتحان أكثر مما أنام في غيرها .

فعجب الولد ، وقال : تنام أكثر ؟

قلت : نعم ، وهل الا هذا ؟ الامتحان مباراة ، افرأيت رياضياً ، ملاكما او مصارعاً يهدّ جسمه ليالي المباراة بالسهر ، ام تراه ينام ويأكل ويستريح ليدخل المباراة قوياً نشيطاً ؟

ان اول نصيحة أسديها لمن يدخل الامتحان من الطلاب والطالبات ان يحسن الغذاء ، وان ينام ثمان ساعات .

قال : والوقت ؟

قلت : ان الوقت متسع ، وان ساعة واحدة تقرأ فيها وانت قويّ مستريح ، تنفعك اكثر من اربع ساعات تقرؤها وانت نعسان تعبان تظن انك حفظت الدرس ، وانت لم تحفظه .

قال : ان كانت هذه النصيحة الاولى ، فما الثانية ؟

قلت : ان تعرف نفسك اولا ، ثم تعرف كيف تقرأ فان من الطلاب من يسمع الدرس من المعلم فينساه فاذا قرأه بنفسه استقر فيها ، ومنهم من يقرأ فينسى فاذا سمع باذنه حفظ ، أي ان من الناس من هو (بصري) يكاد يذكر في الامتحان صفحة الكتاب ومكان المسألة منها ومنهم من هو (سمعي) يذكر رنة صوت الاستاذ ، فان كنت من أهل البصر فادرس وحدك ، وان كنت من أهل السمع فادرس مع رفيق لك مثلك واجعله يقرأ عليك .

قال : وكيف اعرف نفسي :

قلت : أنا اكتب عشر كلمات لارابطة فيها مثل (كتاب ، مئذنة سبعة عشر ، هارون الرشيد) واقرؤها عليك مرة واحدة ، ثم تكتب انت ، ما حفظته منها ، واكتب مثلها واطلعك عليها لحظة وتكتب ماحفظته منها ، فان حفظت بالسمع اكثر فانت سمعي ، والاثاث بصري

قال : والنصيحة الثالثة ؟

قلت : ان تجعل للدراسة برنامجاً ، تراعي فيه تنويع الدروس ، فاذا تعبت من الحساب او الجبر ، اشتغلت بعده بالتاريخ او الادب فيكون ذلك كالراحة لك من تعب الاول .

واحسن طريقة وجدتها للقراءة ، ان تمر اولاً مرّاً سريعاً على الكتاب كله ، ثم تفهم فصلاً فصلا منه ، على ان يكون القلم في يدك ان كنت تقرأ بنفسك ، فالجملة المهمة تخط تحتها خطاً بالاحمر ، والشرح الذي لاضرورة له تضرب عليه بخط خفيف ، والفقرة الجامعة تشير اليها بسهم .

ثم يأتي دور المراجعة ، فتأخذ الكتاب معك ، وتمشي في طريق خال ، وتستعرض من ذهنك مسائل الكتاب ، مسألة مسألة ، تتصور انك في الامتحان وان هذا السؤال قد وجه اليك ، فاذا وجدت انه حاضر في ذهنك تركته ، والا فتحت الكتاب فنظرت فيه نظرة تقرأ فيها الفقرات والجمل التي كنت قد اشرت اليها فقط فتذكر مانسيته ، وان وجدت انك لاتذكر من المسألة شيئاً اعدت قراءة الفصل كله .

والرابعة : الا تخاف ، والخوف من الامتحان لايكون من الغباء ولا التقصير ولا الجبن ، ولكن الخوف من شيء واحد ، وهو منشؤه وسببه ، ذلك ان بعض الطلاب ينظرون الى الكتاب الكبير ، والوقت القصير الباقي ، ويريدون ان يحفظوه كله في ساعة فلا يستطيعون فيدخل عليهم الخوف من ان يجيء الامتحان وهم لم يكملوا حفظه .

ومثلهم مثل الذي يريد ان يمشي على رجليه من المزة الى المطار ليدرك الطيارة وما معه الا ساعتان ، فان قال لنفسه ، كيف أصل او ركض كالمجانين فتعب حتى وقع ، لم يصل ابداً ، وان قسم الوقت والخطا ، وقال لنفسه ان عليّ ان أمشي في الدقيقة مئة خطوة فقط ، سار متمهلا مطمئناً ، ووصل سالماً .

والرابعة : ان بعض الطلاب يقف أمام غرفة الامتحان ، يعرض في ذهنه مسائل الكتاب كلها ، فاذا لم يذكرها اعتقد انه غير حافظ

درسه ، واضطرب وجزع مع انه يستحيل ان يذكر المسائل كلها دفعة واحدة وان كان يعرفها .

كم تعرف من اسماء اخوانك واصدقائك ؟ هل تستطيع ان تسردها كلها سرداً في لحظة واحدة ؟ لا ، ولكن اذا مر الرجل امامك ، او وصف لك ذكرت اسمه . فغيابها عن ذهنك ليس معناه انها فقدت من ذاكرتك .

والخامسة : انك كلما قرأت درساً ، استرحت بعده او انصرفت الى شيء بعيد عنه ليستقر في ذهنك ، ومن الطلاب من يقرأ الدرس فاذا فرغ منه عاد اليه ، ويكرر ذلك مرات ، يحسب ان ذلك خير له مع ان ذلك كمن يأخذ صورة بـ (الفوتوغراف) ثم يأخذها مرة ثانية من غير أن يبدل اللوحة او يدير الفلم فتطمس الصورتان .

والسادسة : ان عليك ان تستريح ليلة الامتحان ، وتدع القراءة ، وتأخذ قصة خفيفة ، او تزور أهلك او أصدقاءك ، او تتلهى بشيء يصرفك عن التفكير في الامتحان ، وان تنام تلك الليلة تسع ساعات او عشراً اذا استطعت ولا تخشى ان تذهب المعلومات من رأسك ، فان الذاكرة أمرها عجيب ، ولا سيما لمن كان في أوائل الشباب ، ان ماينقش فيها في الصبا لاينسى ، وأنا انسى والله اليوم ماذا تعشيت أمس ولكني أذكر ماكان قبل اربعين او خمس وأربعين سنة كأني أراه الآن ، وأنت تدخل السينما فترى فلماً كنت شاهدته من عشر سنين فتذكره ولو سألتك عنه قبل أن تدخل لما عرفته .

والسابعة : ان تعلم ان الامتحان ميزان يصح غالباً وقد يخطىء حيناً ، وان المصحح بشر ، يكون مستريحاً يقرأ بامعان ، وقد يتعب فلا يدقق النظر ، وانه ينشط ويمل ، ويصيب ويخطىء ، وقد يختلف

حكمه على الورقة وعلى أخرى مثلها باختلاف حالي راحته وتعبه ورضاه وسخطه .

وقد جربوا مصححاً مرة أعطوه اوراقاً فوضع لها العلامات والدرجات ، ثم محوا علاماته وجاؤوه بها مرة ثانية ليصححها فاذا هو يبدل احكامه عليها وتختلف درجاته في المرتين اكثر من عشرين في المئة.

وطلبوا من مصحح مرة ان يكتب هو الجواب الذي يستحق العلامة التامة ، ثم اخذوا جوابه فكتبوه بخط آخر وبدلوا فيه قليلا وعرضوه عليه مع الاوراق فأعطاه علامة دون الوسط .

والمصحح ليس في يده ميزان الذهب ، وقد يتردد بين الستين من مئة وبين السبعين ، وقد يكون في هذه العلامات العشر نجاح التلميذ او سقوطه . وربما وقعت الورقة في يد مصحح مشدد فاسقطها ولو وقعت في يد آخر مهوّن فمشّاها .

فما العمل ؟

عليك أن توضح خطك فان سوء الخط وخفاءه ربما كان السبب في غضب المصحح او نقمته ، فأساء حكمه على الورقة فأسقطها ، وان تكثر من العناوين ، وان تقطع الفقرات وتميزها ، وان تجتنب الفضول والاستطراد ، وقد يستطرد التلميذ فيذكر امراً لم يطلب منه يريد ان يكشف به عن علمه فيقع بخطيئة تكشف جهله فتكون سبب سقوطه .

هذا الذي عليك ، وهذا الواجب في الامتحان وغيره على المرء ان يسعى ، ويعمل ، ولكن ليس النجاح منوطا دائماً بالسعي والعمل .

يمرض اثنان ، فيستشيران الطبيب الواحد ، ويتخذان العلاج الواحد ويكونان في المشفى في الغرفة الواحدة ، وتكون معاملتها واحدة فيموت هذا ويبرأ هذا . فلم ؟ من الله .

ويفتح اثنان متجرين ، ويأتيان بالبضاعة الواحدة ، ويتخذان طريقة

للبيع واحدة ؛ فيقع هذا على صفقة تجعله من كبار الاغنياء ، ويبقى ذلك في موضعه ، فلم ؟ من الله .

وأنا لاأقول لاحد ان يترك السعي ، السعي مطلوب وعلى التلميذ أن يقرأ الكتاب كله حتى الحاشية التي لايهتم غيره بها ، اذ ربما كان السؤال في الامتحان منها ، وبعد ذلك يتوجه الى الله فيطلب منه النجاح

وهذه خاتمة النصائح ولكنها اهمها ، وأنا اعلم ان من السامعين من يسخر مني اذ اقولها وهو يستطيع ان يسخر مني أوان يقول عني في غيابي ماشاء ولكنه لايستطيع ان يثبت بالبرهان ان الذي ادعو اليه باطل .

فيا أيها الطالب اذا اكملت استعدادك ، وعملت كل ماتقدر عليه ، فتوجه الى الله ، وقل : يارب ، انا عملت مااستطيعه ، وهناك اشياء لاأستطيعها أنت وحدك تقدر عليها ، فاكتب لي بقدرتك النجـــاح ، ولا تجعل ورقتي تقع في يد مصحح مشدّد لايتساهل ، أو مهمل لايدقق ، أو ساخط او تعبان لايحكم بالحق .

وانظر قبل ذلك فان كنت على معصية في سلوكك وفي عملك فتب منها ، وان كنتِ أيتها الطالبة على معصية في ثيابك ولباسك وسيرتك وكنت على مخالفة لحكم الشرع فارجعي عنها ، وان كان منكم جميعاً تقصير في حق الله ، فدعوا التقصير ، واقيموا الفرائض ، واجتنبـــوا المحرمات ، فان هذا هو طريق النجاح .

وليست هذه الوصفة من عندي ، ولكنها وصفة (راشتة) وكيع شيخ الشافعي :

شكوت الى وكيع سوء حفظي ... فارشدني الى ترك المعاصي
وقال بان هـــذا العلم نور ... ونور الله لايهدى لعـــاصي

الوصايا

نشرت سنة ١٩٥٩

كنت ادقق أمس دعوى وصية ، فرجعت بي الذكرة الى حادثتين رأيتهما في يوم واحد ، في المحكمة الشرعية في دمشق ، لما كنت قاضياً فيها من أكثر من خمس عشرة سنة .

الاول طلب تسجيل وصية ، قدم باسم امرأة من الموسرات ، لاتستطيع لكبرها وعجزها أن تجيء الى المحكمة ، فأرسلت الكاتب ليستمع منها ، ويسجل لها ، فعاد يقول انها تريد ان توصي بثلث مالها وهذا الثلث يزيد على خمسين الف ليرة ، وقد جعلت مبلغاً ضخماً منه للجنازة والعصرية والصباحية والمواسم وذلك كله مما لا أصل له في الشرع ، فنصحها أن تجعل هذا المبلغ في جهات الخير التي ترضي الله وتنفع الناس فأبت ، وهو يسألني رأيي . ولم أكن أذهب قط الى دار انسان ، وان كان القانون يجيز ذلك احياناً ، ولكني لما سمعت منه خبر الوصية وضخامة المبلغ ، رجوت ان يوفقني الله فيحقق على يدي خيرا ، فذهبت اليها ، فاذا عجوز حمقاء ، لاتفهم بلسان المنطق ، ولا تستجيب لصوت الدين ، واذا كل همها ان تصنع شيئاً تكسب به رضا الناس ، وتنال به اعجابهم ، ولم استطع بعد الجهد الكثير ان استخلص منها اكثر من خمسة آلاف ، رضيت ان توصي بها لبعض الجمعيات الخيرية .

ورجعت الى المحكمة مغيظاً محنقاً ، فرأيت الحادث الثاني . جاءتني

امرأة تحمل في بطنها ولداً ، وعلى يدها ولداً ، وتجر وراءها ولدين ، فقالت وهي تبكي ، انها غريبة لاتعرف احداً في دمشق ، وليس لها في بلدها الا أب فقير وعم أفقر منه ، لايقدران على شيء لانفسهما ، فضلا عن ان يقدرا على شيء لها وقد فرّ منها زوجها فهي لاتعرف له مكانا ، ولا تدري من اين تأكل وتطعم الاولاد ، واذا نفد صبر صاحب الغرفة التي تقيم فيها على ابطائها بالاجرة فطردها لم تعرف اين تنام هي والاولاد . وقد لجأت اليّ لان الناس قالوا لها : مالك الا القاضي !

وحار القاضي ، وترقرقت في عينيه دمعتان ، وقلت : يارب عفوك تلك ترمي خمسين الفاً حيث لاترضي ربها ، ولا تنفع احداً ، لاتبالي بها ولا تفكر فيها ، وهذه تحتاج الى عشر ليرات فلا تجدها ولا تجد من يدفعها اليها ؟

وبدأت من ذلك اليوم افكر في أمر الوصايا . كم يضيع بها من مال ينفق في غير وجهه ، ويوضع في غير محله ؟ وكم يصنع بهذا المال لو اريد به وجه الله ، وانفق فيما ينفع الناس ؟

لقد لبثت قاضياً قريباً من خمس عشرة سنة ، وأنا اظن ان الوصايا التي اوصي بها على يدي تجاوزت الملايين ، اكثرها رصد لما لايقره الاسلام على الجنازة أولا وقد تكلف الجنازة الآلاف ، يأخذها من لايستحقها وتصرف فيما يخالف الشرع ، وما ينفق فيما يخالف الشرع لايحرم صاحبه الثواب فقط بل يكون معصية منه يستحق عليه العقاب .

والجنازة الشرعية هي التي تمشي صامتة لاشيء فيها فالآس بدعة ، والحناء والاكاليل بدعة ، والذي يؤذن او ينشد امام الجنازة بدعة ، وهؤلاء (الكلاليب) الذين يتعلقون بكل جنازة ويزدحمون على باب الميت تبين ان اكثرهم غير محتاج والأولى بأهل الميت ان يطردوهم ،

او يدعو (جمعية النهضة الاسلامية) ومعهـــا الشرطة لتمسك بهم ، فتساعد المحتاج منهم ، وتعاقب المحتال .

وعلى الصباحية ثانياً . والصباحية بدعة ، ومن فقهاء الحنفية المتأخرين من استحسنها بشرط أن يكون فيها المواساة المشروعة فقط اما دعوة من يسمون انفسهم القراء للقراءة فيها ، فهي ممنوعة من وجوه ، اولها : ان قراءة القرآن واهداء ثوابها للميت جائزة ، ولكن الذي يقرأ بالاجرة يجعل القراءة مهنة يؤكد ابن عابدين رحمه الله انه لاثواب له يهديه وان أخذ الاجرة على القراءة لايجوز ابداً ، ثم إن اكثر هؤلاء يقرؤون القرآن بأنغام الغناء ، مع ان التغني بالقرآن مشروع بشرط ان يكون مع الخشوع والتدبر وفهم المعاني والبعد عن التشبه بالمغنين في انغامهم ، ثم ان على السامع للقرآن ان يستمع وينصت ويتفهم المعـــاني ، والمشاهد في الصباحيات ان القارىء يقرأ والناس معرضون عنه يستقبلون القـــادم ويشيعون الذاهب ، ويدخنون (السكاير) في مجلس القرآن .

والعصرية التي يعملها النساء ممنوعة شرعاً ، نص على ذلك الفقهـاء ومثلها الخميس والاربعين والسنوية كلها ممنوعة شرعـاً ، ولابن عابدين صاحب الحاشية رسالة في بطلان الوصية بذلك كله اسمها شفاء العليل في بطلان الوصية بالختمات والتهاليل عليها تقاريظ فقهاء عصره منهم فقيه مصر يومئذ الطحطاوي المشهور .

او تكون الوصية لبناء القبر ورفعه . واعرف امرأة موسرة أنفقت عشرة آلاف على قبر زوجها جعلته من الرخـام المنقوش المزخرف . مع ان بناء القبور بالجص والحجارة ورفعهـــا لايجوز . ومايفعله بعض الناس ، من اقتطاع قطعة من المقابر وإقامة مدفن فيها أو بناء جامع على قبر الميت ممنوع من وجوه ، أولا ، لأن بناء الجامع على القبر لايجوز ،

ثانياً ، لأن الارض ليست لمن يبنى عليها بل هي وقف للناس كلهم ، والثالث انه لو جاز بناء هذه الجوامع ولم تكن الارض مغصوبة لكان بناؤها هنا اضاعة للمال، واضاعة المال ممنوعة شرعاً، ذلك لأن من يريد الصلاة لايذهب الى وسط مقبرة الباب الصغير مثلاً ليصلي ، فلا تكون إلا مساجد معطلة لاتقام فيها جماعة ولا تعمر بعبادة ولا ذكر .

وهذا الذي قلته كله صحيح واسألوا المفتي او راجعوا حاشية ابن عابدين ان لم تصدقوا أو جاءكم من يقول لكم غير ذلك .

ولما كانت في دمشق حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية باشراف الامم المتحدة من سنين لبحث التأمين الاجتماعي، كنت في وفد سورية ، ثم انتخبت فيها احد الثلاثة الذين سموا للّجنة العليا لجنة الصياغة ، وقد قدمت إليها بحثاً موضوعه الوصايا وانها مصدر كبير من مصادر التأمين الاجتماعي لو أحسن استغلالها ووضعت مواضعها.

ثم لما وضع قانون الاحوال الشخصية المعمول به الآن في البلاد ، وكنت انا الذي أعد مشروعه ، وُضعتْ فيه مادة صريحة ، باعتبار كل وصية بمعصية او بأمر ينافي مقصد الشارع باطلة .

وكلامي الآن لمن يثق بي من المستمعين ، انصحهم وأبيّن لهم فإن سمعوا مني فالحمد لله ، وإلا فما عليّ إلا البلاغ .

ان المرء لايوصي بوصية إلا ابتغاء ثواب الله ، فيجب عليه أن يعرف مايرضي الله قبل ان يوصي .

وذلك بأن تنظر أولاً ، فان كان لك ذرية فقراء ، وكان مالك قليلا لايكفيهم هم ، فالاحسن ان تترك المال لهم ولاتكتبه لزيد أو لعمرو أو لمسجد أو مستشفى وتترك ذريتك يحتاجون الناس ، وانا أعرف رجلا فقيراً متكسباً من عمله ترك ثلاث زوجات وعشراً من الولد

وأوصى بثلث ماله للخير فجاء الوصي فجرع الاولاد العلقم وعذبهم في المحاكم وأخذ المال ، فلم يعلم إلا الله ماذا صنع به ، واولاد الميت يحتاجون الى عشره ليعيشوا به .

واذا كنت موسراً وأحببت ان تجعل من مالك قسطاً للخير فقدمه بين يديك يكن ذلك خيراً لك في الدنيا والآخرة ، وما تعطيه في حياتك وأنت صحيح شحيح تخاف الفقر وترجو الغنى (كما جاء في الحديث) افضل مما توصي به .

واذا لم تحب ان تنفقه في حيـاتك وأردت ان توصي به فحسن والوصية مطلوبة على أن تجعلها في وجوه الخير ، وفيما هو طاعة وبر باتفاق العلماء ، فاجعل وصيتك أن يكون التجهيز والتكفين وما الى ذلك على الوجه الشرعي ، وان تنظر بعد فإن كان في اقربائك محتاج فاكتب له شيئاً معينا باسمه والاقرباء أولى بالمعروف ولا يقبـل الله صدقة عبد وفي قرابته محاويج ، فاذا فرغت من اقربائك فلمن يلوذ بك من جيرانك ولمن له حق عليك من معلم او غيره اذا كان فقيراً محتاجاً . فان فضل شيء فاجعله عند من هو مستحق له . هذا بعد ان توصي بشيء لمن يحج عنك ان لم تكن حججت الحجة الواجبة وما بقي جعلته للفقراء المحتاجين .

وقد صار عندنا الآن بحمد الله جمعيات للبر والخير أمينة موثوق بها. وقد حدثتكم عن جمعية النهضة الاسلامية في حماه ، وفي دمشق ، وفي حمص جمعية البر والخدمات الاجتماعية وهي مؤسسة من عشر سنين ولها دار للعجزة ولها مستشفى مجاني ولها دار للمكفوفين لتعليمهم وتربيتهم ، وقد نقت حمصاً من السائلين والشحادين فلا تلقى فيها اليوم سائلا ، وفي دمشق جمعيات كثيرة لها اتحاد عام تشمل أحياء البلد كلها ، وأنا أعلن للملايين التي

تسمعنى ان هذه الجمعيات موضع ثقـة ، وهي تعالج المرضى وتسعف الفقراء ، وتعلم الطلاب ، وتقوم بكل أنواع البرّ فمن اراد ان يوصي بشيء للخير فليسلمه الى واحدة منها ، ورأس الامر كله في الوصية ان تحرص على حسن إختيار الوصي والاّ تغتر بالزي والكلام بل تعتمد على التجربة والاختبار ، لأن في الناس كثيرين يتزيون بزي الصـالحين المصلحين وهم من المفسدين العاصين ، وآخرين يلبسون لباس العلماء العاملين وهم من الجهلة الدجالين الذين يأكلان الدنيا بالدين .

يا أيها السامعون

ان أمر الوصايا من الامور الاجتماعية الخطيرة ، واننا إذا اتبعنـا بها سبيل الشرع ، ووضعنا هذه الاموال في مواضعها ، ولم ننفق شيئاً منها على البدع الممنوعة شرعـاً لاعلى الآس والاكاليل ، ولا على الدعوات والولائم التي يدعى اليها الاغنيـاء ويطرد الفقراء ، ولا على الصباحيات والعصريات والختمات والتهاليل ، ولا على الخميس والاربعين والسنوية ، كان منها باب عظيم من ابواب الاصلاح .

واسأل الله ان يوفقنا جميعاً الى مافيه رضاه .



نساؤنا ونساء الافرنج

نشرت سنة ١٩٥٩

جاءني في البريد كتاب من سيدة فاضلة ، لم تصرح باسمها ، ولكن اسلوبها نمّ على فضلها وأدبها ، شكت فيه اشياء واقترحت اشياء ، وكان مما جاء في كلامها ، قولها : (وانظر الى ضيق الحياة التي تحياها المرأة العربية ، وسعة حياة المرأة الغربية ، وقيد هذه وحرية تلك) .

فوقفت عند هذه العبارة ، وفكرت فيها ، وعزمت على ان اكتب اليها ، لاوضح لها خطأها فيما ذهبت اليه . ثم ذكرت أني لا أعرف اسمها ولا عنوانها .

فقلت أجعل جوابها موضوع هذا المقال .

* * *

ان ماظننته هذه السيدة ، يظنه كثير من السيدات ، ولا يعترفن ان ذلك ظن وتخمين ، بل يرينه يقيناً وفوق اليقين ، واصدق جواب على هـذا وأخصره لفظاً ، وأعمقه معنى ، ما أجابت به تلك السيدة الامريكية ، الاستاذ الشيخ بهجة البيطار .

حدثني الاستاذ انه كان يتكلم عن المرأة المسلمة ، في إحدى محاضراته في أمريكا ، ويذكر ان لها الاستقلال في شؤون المال ، لا ولاية عليها في مالها لزوجها ولا لأبيها ، وانها ان كانت معسرة كلف بنفقتها ابوها

أو اخوها ، فإن لم يكن لها أب أو أخ فأيّ واحد من أقربائها الذين يرثونها ، ولو كان ابن عم عمها ، وان هذه النفقة تستمر الى ان تتزوج أو يكون لها مال ، وانها ان تزوجت كلف زوجها بنفقتها ، ولو كانت تملك مليوناً وكان عاملا لايملك شيئاً ، الى غير ذلك مما نعرفه نحن ويجهلونه هم عنا .

فقامت سيدة أمريكية من الاديبات المشهورات فقالت :

« اذا كانت المرأة عندكم عندما تقول ، فخذوني أعيش عندكم ستة أشهر ثم اقتلوني » .

وعجب من مقالها ، وسأل عن حالها ؛

فشرحت له حالها ، وحال البنات هناك ، فاذا المرأة الامريكية تبدو حرة وهي مقيدة ، وتُرى معززة وهي مهانة ، انهم يعظمونها في التوافه ويحقرونها في جسيمات الامور .

يمسكون بيدها عند النزول من السيارة ، ويقدمونها قبلهم عند الدخول للزيارة ، وربما قاموا لها في الترام لتقعد ، او فسحوا لها في الطريق لتمر ، ولكنهم في مقابلة ذلك يسيئون اليها اساءات لاتحتمل .

اذا بلغت البنت هناك سن الرشد ، قبض أبوها يده عنها ، وسد باب داره في وجهها ، وقال لها : اذهبي فتكسبي وكلي ، فلا شيء لك عندي بعد اليوم . فتذهب المسكينة ، تخوض غمرة الحياة وحدها ، لايبالون أعاشت بجدّها أم بجسدها ، ولا يسألون هل اكلت خبزها بيديها أم بثدييها ، وليس هذا في امريكا وحدها ، بل هو شأن القوم في ديارهم كلها .

حدثنا أستاذنا الدكتور يحيى الشماع من ثلاث وثلاثين سنة ، اثر عودته من دراسته في باريز ، انه ذهب الى منزل أسرة دلوه عليها ،

ليستأجر غرفة لديها ، فقابل وهو داخل الى الدار بنتاً خارجة منها في عينيها أثر الدمع ، فسأل أن مالها ، قالوا له هذه بنتنا ، ولكنها انفصلت عنا لتعيش وحدها ؟ قال : انها تبكي .

قالوا : لقد جاءت تستأجر غرفة عندنا ، فلم نؤجرها .

قال : ولِمَه ؟

قالوا : لأنها دفعت أجرة لها عشرين فرنكاً ، وغيرها يدفع ثلاثين !

واذا شككتِ في هذه القصة ، ومن حقك الشك فيها ، لانها بالنسبة اليك ولكل عربي شيء يكاد يدخل في باب المستحيل ، اذا شككت فيها فاسألي الدكتور يؤكد لك أنه رآها وسمعها .

ولقد قص علينا اخواننا الذين ذهبوا الى اوربة وأمريكة وخالطوا أهلها ، كثيرا من أمثالها .

لقد ابتُذِلت المرأة هناك وذلت ، حتى صارت تبذل مانراه نحن أعز شيء علينا وهو العرض ، في سبيل مانراه أهون شيء علينا وهو الخبز .

أما قرأت ماكتبه توفيق الحكيم عن الفتاة التي فرضت نفسها عليه ، وساكنته في الدار ، وعاشرته معاشرة الاهل [1] ، لاتريد من ذلك إلا ان تجد سقفاً يكنُّها ، ومائدة تشبعها ، ثم كيف ملَّها فطردها .

ان الفاسق عندنا ، الفاسق ياسيدتي ، يتبع هو المرأة ، ويبذل لها الغالي والثمين ، لأنه لايجدها إلا بمشقة ، ولا يصل اليها إلا بنصب .

استترت المرأة الشرقية فعزَّت ، وتمنعت فطلبت ، وعرضت الغربية فهانت لان كل معروض مهان .

كان الشاعر العربي الاول اذا بدا له من المرأة الكف أو المعصم ، دار رأسه ، وثارت نفسه ، وامتلأ بالحب جنانه ، وانطلق بالشعر

---

(١) اذا بليتم بالمعاصي فاستتروا ، واعلان المعصية معصية اكبر منها ، ولكن هؤلاء الكتاب لايتقون الله ولا يستحيون من الناس .

لسانه ، ذلك لانها كانت مستترة مخبَّأة . أما المرأة الغربية فإن الرجل يرى في الطريق ذراعها ونحرها ، وصدرها وظهرها ، بل صار يرى على الساحل أعلاهـا وأدناها ، فينظر الى ساقها فلا يثـير في نفسه معنى ، ولا يحرك منه عاطفة ، ولا يرى فيه حياة ، صار ساق المرأة ورجل الكرسي وخشبة الباب سواء .

ومن هنا كسدت عندهم سوق الزواج . الزواج رباط دائم ، يرتبط به الرجل مختاراً ، ليصل الى ارواء هذه الغريزة ، هذا هو الدافـع الاول الى الزواج . فلماذا يربط نفسه اذا كان يستطيع ان يرويها وهو طليق [1] .

لقد فقدت المرأة الغربية الزوج ، وفقدت المعيل ، فاقتحمت كل عمل لتعيش ، فصارت تعمل في المصنع ، وتشتغل في الحقـل ، وتكنس الطريق من الاقذار ، وقد خبَّرنا من رأى في اوربة البنات موظفات في المراحيض العامة ينظفنها لمن يريد الدخول ... ومن النساء من تعمل في صبغ الاحذية تتخـذ لها صندوقاً وتبقى اليوم كله على ارصفـة الشوارع ، ومنهن من تحمل في يدها كتابها ، تستعد بمطالعته لامتحانها ، فاذا وقف عليها رجل مد حذاءه الى وجهها ، فانحنت عليه ، واشتغلت به ... هذه هي منزلة المرأة في ديار القوم ، على حـين ان المرأة الشرقية تبقى دائماً في بيتها ، يكد الرجل ويشقى ليطعمها ويكسوها .

واذا بلغت المرأة عندنا سن الزواج ، طلبها الرجل وتوسل اليها بالعطية الكبيرة : بالمهر ، يدفعه هو إليها ، فيكون حقاً لها وحدها لا لأبيها ولا لأخيها ، وليس لاحد التصرف في شيء منه إلا بإذنها .

---

(١) ومن امثالهم : اذا استطعت شراء اللبن فلم تشتري البقرة كلها ؟ وصار مقلدوهم من كتابنا يسخرون بالزواج . هذا توفيق الحكيم لم يكفه ان عاش بلا زواج حتى ألف افجر قصة قرأتها هي (الرباط المقدس) جزاه الله شراً وقلل فينا أمثاله .

والمرأة الغربية تركض هي وراء الرجل ، فتسقط خمسين سقطة قبل ان تصل اليه ، وربما سقطت سقطة كان فيها ذهابها وهلاكها ، ثم ان وجدته لم يتزوجها حتى تتوسل هي اليه بالمبلغ الكبير ، حتى تدفع هي له المهر ، ثم يكون له الاشراف على مالها ، يشاركها في التصرف فيه، والمرأة عندنا لها وحدها حق التصرف في مالها .

تقولين كان هذا من زمان ، وقد كسدت عندنا سوق الزواج وكثرت عندنا العوانس .

وهذا صحيح . ولكن لِمَ كان ؟

كان ، لأنا قلدنا الافرنج فيما يشكون هم منه ويتمنون البعد عنه .

كان لأن المستعمرين وضعوا في نفوسنا ، خلال القرن الماضي الذي كنا فيه نائمين وكنا غافلين ، انهم أرقى منا رقياً واكثر تقدما ، وان ما يفعلونه هو الصواب ، فقلدناهم في كل شيء .

ولكن هل يحتمل طبعنا العربي هذا التقليد كله ؟

كان العرب اغيَر الناس على الاعراض ، حتى انهم وأدوا البنات خوف العار ، فهل يتمالك العربي نفسه ان يكون في حفلة فيأتي رجل يقول له : « اسمح لي ! » .

يسمح له بماذا ؟ لابأن يريه ساعته ، ولا بكبريت يشعل به سيكارته، بل يسمح له بأن يأخذ منه زوجته يراقصها ، ليضم صدرها الى صدره ، ويدني وجهها من وجهه ، وساقها من ساقه .

ليس في الدنيا عربي يرضى بهذا ، ولا يرضى به مسلم ، ولا يكاد يرضى به رجل صادق الرجولة ، بل انه لا يرضى بمثله من الحيوانات إلا الخنزير .

هذه حال نساء الغرب ، فهل نساء الغرب اليوم في خير ، حتى نبتغي مثل الذي عندهن لنسائنا .

لقد عرفتم ماقالت المرأة الامريكية للشيخ بهجة البيطار .

ولو نطقت كل ألمانية وكل فرنسية لقالت هذا . انكم تنقمون من شريعتنا انها تعطي البنات نصف ميراث الرجال ، وتعدد الزوجات .

فاسألوا نساء اميركا ، أما يقبلن ان يأخذن نصف ميراث الرجل ، وان يكلف الرجل وحده بالانفاق عليهن .

سلوا نساء المانيا ، بعد هذه الحرب ، أما يتمنين ان يكون لكل عشر منهن زوج ، يعدل بينهن وينفق عليهن ؟

وبم تعالج مشكلة زيادة النساء في ألمانيا وامثالها الا بهذا ؟

اذا كانت الطبيعة التي طبع الله الناس عليها ، توجب ان يجتمع النوعان ، مامن اجتماعهما بد ، ولم يكن إلا خمسون رجلا ، ومئة امرأة ، فهل ثمة الا ان يكون لكل امرأتين رجل ؟

أوليست هذه فطرة الله في انواع الحيوان كلها ؟ كم نسبة الذكور الى الاناث ، في النحل وفي الدجاج ؟

أولا يتخذ الزوج الغربي أربعاً أو اكثر من اربع ، ولكن بالحرام؟ أترضون بالثانية خليلة بعقد ابليس ، ولا ترضون بها حليلة بعقد الله ؟

* * *

لا ياسيدتي ، لاتظني ان نساء الغرب أسعد عيشاً أو اعز أو أكرم ، لاوالله ، ليس في الدنيا أعز ولا اكرم من نسائنا .

ان الزوج عندنا لامرأته لا لخليلة ولا لصديقة ، والمرأة لزوجها لا لعاشق ولا لرفيق ، له وحده ، لاتتكشف لغيره ، ولا يطلع عليها سواه .

فهل هذا هو عيبها عند هؤلاء المقلدين ؟

هل يريد احدهم أن تكون امرأته له ولغيره ؟

هل يغضب ان ترك له صحنه ، ليأكل منه وحده ، ولا يرضى حتى يأكل بصحن تقع فيه كل الايدي ؟

أيكون الطهر عيباً ، والعفاف عاراً ، والخير شراً ، والنور ظلاماً ؟ حسبنا تفكيراً برؤوس غيرنا ، حسبنا نظراً بعيون عدونا ، حسبنا تقليداً كتقليد القرود ولنعد الى انفسنا ، الى عربيتنا واسلامنا ، الى طهرنا وعفافنا .

ليصنع نساء الغرب ماشئن وشاء لهن الرجال ، فما لنا ولنساء الغرب؟ وليكن نساؤنا كما نريد نحن لهن ويريد الله ، لنكون لهن وحدهن ، نقنع بهن ولا ننظر الى غيرهن .

ليس في الدنيا نساء خيراً من نسائنا ، ما تمسكن بحجابهن وحافظن على آدابهن ، وتقيدن بأخلاق العرب ، واحكام الاسلام ، وأعراف ذلك المجتمع الفاضل الذي اخرج عائشة واسماء والخنساء وخولة ورابعة ومئات من المربيات الفضليات ، والعالمات الاديبات ، والامهات الديّنات الصيّنات اللائي ولدن أولئك الرجال ، الذين كانوا فرسان الميادين ، وكانوا هم فرسان المنابر ، وكانوا هم ابطال الفكر ، وكانوا هم ملوك المال ، وكانوا سادة الدنيا ، وكنتن أنتن أمهات اولئك السادة .

* * *

صناعة «المشيخة»

نشرت سنة ١٩٥٩

لقيني أمس اثنان من الاصدقاء ، فلامني أحدهما على اني أكشف رأسي ، وأحلق لحيتي ، وقال الآخر مازحا : دعه ، حاجتنا[١] من (المشيخة) ابق كما انت يارجل .

فقلت في نفسي : سأجعل جوابها هذا الفصل . وما ذاك لاني أحب ان أشغل الناس بالحديث عن نفسي بل لأن هذا الموضوع ، مما تخوض فيه الالسنة ، ويدور عليه الجدل ويجب بيان وجه الحق فيه .

* * *

أما حلق اللحية ، فلا والله ماجمع على نفسي بين الفعل السيء ، والقول السيء ، ولا أكتم الحق لاني مخالفه ، ولا اكذب على الله ولا على الناس . وأنا أقر على نفسي اني مخطيء في هذا ، ولقد حاولت مراراً أن أدع هذا الخطأ ، ولكن غلبتني شهوة النفس ، وقوة العادة وأنا أسأل الله ان يعينني على نفسي حتى أطلقها ، فاسألوا الله ذلك لي فان دعاء المؤمن للمؤمن بظهر الغيب لايرد ان شاء الله .

وأما كشف الرأس ، فما فيه كبير أمر ، وان كان الستر أحسن ،

---

(١) من العامي الفصيح أي اخذنا حاجتنا .

ولقد كان عامة العلماء في الاندلس على كشف الرأس ، وكانت العمامة عندهم للقضاة وارباب المناصب . ومهما يكن من أمر العمامة التي وردت بذكرها بعض الآثار ، فما هي بالعمامة التي نعرفها في بلاد الشام ، ولا كان عليها أمر السلف ، وما كان يعرف السلف زياً خاصاً للعلماء ولا للرؤساء ، ولقد كان الرسول ﷺ يلبس ما اتفق له ، لا يلقي لذلك بالا ، ولا يوليه اهتماما ، لذلك تعددت ألوان عمامته وأشكال ثيابه ، وما كان يمتاز من أحد من اصحابه بلبسة ولا جلسة ، حتى كان الاعرابي يدخل مجلسه ، فيقول : أيكم محمد ؟ وكان المستقبلون يوم الهجرة يسلمون على أبي بكر يحسبونه رسول الله ، حتى مالت الشمس فأصابته فقام ابو بكر يظلله بردائه [1] فعرفوه من ثمة .

وما لهذا كتبت هذا الموضوع ، وما أريد أن أدافع عن نفسي ، وأردّ على الصديق الذي انتقدني ، بل لأتكلم في هذه (المشيخة) التي أراد الصديق الذاب عني أن يبرئني منها . هذه (المشيخة) التي صارت على ألسنة كثير من الناس نبزا ينبزون به كل متدين ، وكل محافظ على السنة . وصارت مداراً للانتقاص ، وسبباً لرفض كل موعظة ، والاعراض عن كل نصيحة ، فان وعظت غافلا ، أو نصحت حائراً ، قال لك : عِفْنا [2] بلا مشيخة !

وصارت علماً على طبقة من الناس ، تأخذ من الناس ، ولا تعطيهم ، وتستجيب لدعواتهم ولا تدعوهم ، وتقول لهم ولا تسمع منهم ، وسمة لمن هو غريب عن عاداتهم ومواضعاتهم ، صارم في وعظهم ، شديد في نصحهم ، لا يقبل رداً على كلام ، ولا جدالاً في

---

(١) وما يقوله القوالون من انه (المظلل بالغمام) ليس بصحيح .

(٢) الكلمة عربية (بمعنى قريب من هذا المعنى)

رأي ، يتكلم بـ (النحوي) ويتأخر عن الموعد ... ومـا هو من هذه الصفات بسبيل ، وما القراء أعرف به مني .

فمن أين جاءت هـذه المشيخة ، التي نفّرت الناس من الدين ، وابعدتهم عنه ؟

أما الصدر الاول للاسلام فلم يكن يعرفهـا ، وليس في الاسلام رجال هم وحدهم (رجال الدين) ، وغيرهم (رجال الدنيـا) ، ولكن في الاسلام علماء وجهلاء ، وباب العلم مفتوح ، فكل من تعلم أحكام الدين ، وعمل بما علمه منها ، كان هو المرجع فيه ، لذلك صار عكرمة ونافع ، وأمثالهم من العبيد ـ صاروا سادة الاحرار وأساتذتهم لمـا علموا وعملوا بما علموه ، واذا عرضت سير العلماء الاولين ، من الصحابة والتابعين ، والائمة المجتهدين ، لاتجد فيهم من اتخذ لنفسه هذه (المشيخة) ولا عرفها ، انها لم تعرف الا في قرون الانحطاط ، بذور تسرّبت الينا (الى الصوفية) من هنا وهناك ، ثم رسخت جذورها وبسقت غصونها ، ثم قُرّرت قواعدها ، وجُعلت احدى الشعائر الصوفية فاوجبوا على (المريد) الطاعة العمياء لشيخه ، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، وقالوا : ان من لم يكن له شيـخ فشيخه الشيطان ، ومنعوا المريد ان يحضر على غير شيخه او يستمع منه ، وحرموا عليه ان ينكر عليه ولو رأى منه منكراً ظاهراً ، أو أن يعصيه ولو أمره بما يخـالف الشرع ، وقاسوا ذلك قياساً فاسداً على قصة الخضر وموسى ، مـع ان الخضر ماعمل الا بوحي « وما فعلته عن أمري » وان الشرع حجة على الشيخ وغير الشيخ ، والشيخ ليس حجة على الشرع ، وانكار المنكر واجب ولو وقع من الشيخ .

* * *

كان على الرجل اذا اراد ان يكون من العلماء ، ان يحمل مشقات الرحلات ، ويثني الركب في المجالس ، ويحيي الليالي في المطالعة ، وينفق السنين في الطلب ، فهان الامر حتى اقتصر على عشرة اذرع من الشاش ، وجبة عريضة وسبحة طويلة ، ولو لم يكن تحت العمامة إلا رأس فارغ من العلم ، ولو لم يكن في الجبة إلا جسد يتربى بالحرام ، فلما رأى العوام ذلك ، وأبصروا ناساً لهم زي العلماء ، وأفكار الجهلاء ، واعمال السفهاء ، ورأوهم يصفّون الاقدام في المساجد رياء ، ويحركون الالسنة بالتسبيح تظاهراً ، لم يعرفوا ان هؤلاء ادعياء في العلم ، وان الاسلام ينكرهم ويأباهم ، بل حسبوا انهم هم العلماء ، وانهم هم الصلحاء ، واتخذوهم وسيلة الى الطعن في العلم والصلاح ، واذا أردتم ان تعرفوا مبلغ إيذاء هؤلاء القوم للاسلام ، فإني اسوق لكم مثلاً واحداً : قصة رجل يرونه اليوم ركناً من أركان التربية وهو من اركان الضلال ، يكره الدين وأهله ، ويبعد الطلاب مااستطاع عنه وعنهم . كلّمته في هذا من فمي الى أذنه كلاماً طويلا في مجلس حافل جمعني به في مصر ، فكان من حجته ان شيخاً من هؤلاء المشايخ (ولا أقول العلماء) كان معلم الدين في المدرسة الابتدائية التي تعلم فيها ، وكان من وصفه ، وكان من حديثه ، وكان من سيرته ، مانفّره من الدين ، وكرّهه اليه .

ولم أقرّه على ما قال ، ولا سكتُّ له ، ولكني ازددت يقيناً بيني وبين نفسي بأن من الواجب ، أن نقضي على هذه الصناعة التي اسمها (المشيخة) (١) وان نفهم الناس ان هذه المظاهر لاقيمة لها ان لم يكن معها علم صحيح وتقوى حقيقية ، وانها ليست شرطاً للعلم ولا

---

(١) قلت المشيخة لا العلم ولا الصلاح ـ فانتبهوا لما قلت .

التقوى ، ولا تلازم بينهما وبينهما ، فربّ عالم ليس بذي عمامة ولا جبة ، وربّ جاهل مخادع ، وهو صاحب عمامة كالبرج ، وكمْ جبة كالخرج .

وان يكون الدعاة الى الاسلام عالمين بالاسلام حقاً بعيدين عن الغلظة في القول ، وعن الجهل بالدنيا وعلومها وعاداتها ، فليس من الضروري ان يكون الداعي الى الله ، غريب اللهجة ، مستنكر الهيئة ، ولا أن يأكل بأصابعه ان أكل الناس بالملعقة والشوكة ، ولا ان يُقعد ضيوفه على الطراريح وفي بيته الكرامي والمقاعد ، ولا ان يتشدق ويمضغ الكلام ، ويحرص على الاخفاء والادغام ، ولا ان يكلم الناس من فوق المآذن ، بل ان يستنّ سنة الرسول ﷺ ، يلبس كما يلبس الناس ، ويأكل كما يأكل الناس ، إلا ان يكون في ذلك ممنوع في الشرع ، وأن يتلطف بالأمر والنهي ، وأن يبدأ بما بدأ به الرسول ﷺ من تصحيح العقيدة ، وتعلم الفرائض ، وبيان الكبائر ، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وعلى مقتضى أحوالهم ، وألا يبدأ بفروع الفروع ، قبل ان يؤصل الأصول ، فاذا وجد رجلًا يدخل المسجد ،أو يؤم مجلس اهل الدين أول مرة ،وهو لايدري ماالاسلام ورآه يشرب بشماله مثلا او يتجرع الكأس ، أولا يسمّي ، لم يحسن به ان يصرخ في وجهه ، بأنه خالف السنة ، فيخجله في الملأ ، واذا شاهده قد عطس ولم يحمد الله فلا ينبغي ان يقرّعه او يأمره بالحمد امراً ينفّره ، ولا اريد ان يكون العالم متساهلا ، ولا ان يبالغ في الرقة حتى يتخرق ويتمزق ،بل أويد ان يكون الشرع هو الميزان ، فما كان له في الشرع رخصة رخصنا فيه ، وما كان له حكمان ألزمنا المبتدىء بأخفها عليه ، رفقاً به ، وابقاء عليه ، وما كان منكراً ظاهراً، لاترخيص فيه ولا اجتهاد ، انكرناه ولو قالوا عنا ماقالوا ...

انني اكتب لنفي صناعة المشيخة ، وافهام الناس ان المسألة ليست بالعمامة والجبة ، لكن بالعلم والتقى . وأن علينا اذا أمرنا بمعروف ان نجعل أمرنا بالمعروف ، وان نستن بسنة الرسول ﷺ في الدعوة ، واعوذ بالله ان اقول لأحد ، اكتم الحق ليقول الناس انك لطيف ، أو أقرر الباطل الذي تراه ليقولوا انك مهذب ، أو ساير الناس في طريق الاثم ليقولوا انك اجتماعي .

لا ، بل الشرعَ الشرعَ ، ماحرمه حرمناه ، وما أحله أحللناه ، وما أمر به فعلناه ، وما نهى عنه تركناه ، وما انكرنا هذه الصناعة التي استحدثها الناس ، وسموها (المشيخة) إلا لأن الشرع ينكرها ، والصدر الاول لم يعرفها ، وأنها صارت سبباً للتنفير من الدين ، وباباً قد دخل منه كثير من الادعياء والمرائين ، وماأردت بما قلت إلا مصلحة الاسلام ، فإن كنت قد اخطأت في شيء ، فأسأل بالله من عرف الخطأ أن يردّه عليّ ، على صفحات (المسلمون) ، وأنا أسامحه من الآن مهما اشتد في المقال .

* * *

هذا نذير للناس

اذيعت سنة ١٩٥٦

أنا اعلم ان أثقل الكلام الحديث المعاد ، وأنا قد تكلمت في هذا الموضوع غير مرّة ، ولكني مضطر مع ذلك الى العودة إليه .

والذي اضطرني إليه كتاب حمله إليّ البريد ، يقص فيه صاحبه (ولست اعرف من هو ، وليس في الكتاب مايدلّ عليه) يقصّ قصة يقطر من سطورها الدمع ، ويشمّ منها ريح القلب المحترق ، يقول أنه رجل مستور صالح ، متمسك بحبال الديانة ، مقيم على عهد الفضيلة ، وله بنت ماانفكت تمشي في طريق الشر خطوة خطوة ، حتى هتكت الاستار ، وصحبت الاشرار ، ثم انتهت الى النهاية التي تنتهي اليها كل فتاة سلكت سبيل المغويات .

ويقول ، إن سبب ذلك كله المدرسة أولاً ، والجامعة ثانياً ، ويلعن البنات ويلعن المدارس التي علمتهن ، ويلعن المجتمع الذي أفسدهن ..

... الى آخر ماجاء في الكتاب .

وكتبت اقول له : انا أعرف أنك متألم مصاب ، ولكن ماذا اصنع لك الآن ؟

وهلا كتبت إليّ وفي الصدر ذماء يتردد ؟

ماذا أعمل لك الآن ، بعدما شبت النار في الدار ، وطغى السيل

في الليل ، واحترق ما احترق ، أو أودى به الغرق ؟

ماذا يصنع الطبيب ، ان دعي بعد ما مات المريض ؟ لا يا أخي ، لست أملك لك إلا العزاء ، وان أسأل الله لك الصبر على البلاء .

على أني ان عجزت عن اسعافه ، فلست أعجز عن اسعاف غيره ، ممن لم تؤل به بعد الحال ، الى هذا المآل ، ولولا الحياء من أن أكون مع الدهر عليه وان أزيده ألماً على ألمه ، لقلت له : ان الأمر منك أنت ، منك يا أيها الاب ، ومنك يا أيتها الأم ، وان أولى الناس بما سقت من اللعنات - لو كان يجوز اللعن - انتما الاثنان .

لو كنت تشرف على بيتك وبنتك ، لا يلهيك عنها العمل او اللهو او السهرات والقهوات ، ولو كنتِ تشرفين على بيتك وبنتك ، لا تشغلك عنها الخياطات والسينمات ، والزيارات والاستقبالات ، ولو لم تدعي البنت للصادقات او للخادمات ، لما كان الذي كان .

على اني لا أبرىء المدرسة ، ولا أنزّه المجتمع ، فالأب مسؤول ، والمعلم مسؤول ، والصحفي مسؤول ، وواضع القانون مسؤول ، كلهم مسؤول ، وان كان آخرهم سؤالاً ، واقلهم تبعة البنت التي فسقت ، والولد الذي فسد .

لقد وضع الله هذه الغريزة في النفس ، ورسم لها طريقا تمشي فيه كما يمشي ماء النهر في مجراه ، ووضع لها السدود ان تطغى وتخرج عن مجراها كما يطغى النهر ، فيغرق الحقل ، ويهلك الحرث والنسل .

اما المجرى الطبيعي فهو الزواج ، وأما الطغيان فالبغاء والفساد ، فجئنا نحن فخالفنا فطرة الله ، فسددنا المجرى الطبيعي ، وأزحنا السدود والحدود ...

... قلنا للشابة : الزواج ممنوع ، لأن الشباب شغلوا عنه بالحرام ،

وقلنا للشاب : الزواج صعب ، وأمامه مائة حاجز ، والحرام سهل وله مائة داع .

فقل النكاح ، وكثر السفاح ، وكانت الضحية البنت !

يجيء الشاب فيغويها ، فاذا اشتركا في الاثم ذهب هو خفيفاً نظيفاً ، وحملت هي وحدها ثمرة الاثم في بطنها ، ثم يتوب هو فينسى المجتمع حوبته ، ويقبل توبته ، وتتوب هي فلا يقبل لها هذا المجتمع توبة ابداً ، ثم اذا أراد هذا الشاب نفسه الزواج ، أعرض عن الفتاة التي أفسدها هو ، مترفعاً عنها ، مدعيا أنه لايتزوج البنات الفاسدات .

فماذا تصنع الفتاة ، والزواج ممنوع ، والسفاح مباح ، والرغبة موجودة والموانع مفقودة ؟

تقولون : أنحن منعنا الزواج ؟

نعم ، أنتم منعتموه . لم تمنعوه بالقول بل بالفعل .

تبدأ الرغبة الجنسية في سن خمس عشرة ، وتكون أشد ماتكون في هذه العشر سنين ، الى سن خمس وعشرين ، فهل يستطيع الشاب ان يتزوج في هذه السن ؟ وكيف ، ونظام التعليم يبقيه على مقاعد الدرس الى قريب من هذه السن ، ان هو ذهب للتخصص في اوربه أو اميركة ، امتدت به الدراسة الى قريب من الثلاثين .

فكيف يتزوج ؟

واذا فكر في الزواج ، فمن أين له المال ولا يزال (وهو في سن الرجال) من جملة العيال . شاب طويل عريض ، يلبس أفخم الثياب ، ولكنه لايحصل قرشاً ، مع ان ابن عشرين كان قديماً ، أعني قبل أربعين أو خمسين سنة - صاحب عمل وكسب وموارد ، وأباً لأولاد .

وان وجد المال ، فهل يدعه الآباء يتزوج ؟

آباء البنـــات ، هم سبب المشكلة ، يسهلون للبنت كل سبيل إلا سبيل الحلال ، يخرجونها متكشفة متزينة ، ويرخون لها الزمام ، فاذا جاء الخاطب الصالح ، لقي منهم مايلقى الاسـير العربي في اسرائيل ، أهلكوه بالمطالب الثقال ، من المهر الكثير ، والتكاليف البـاهظة ، والحفلات المتكررة ، والهدايا العديدة ، حتى يمل فينهزم ، أو يصبر حتى تستنفد هذه العادات الخبيثة كل ليرة كان ادخرها لهـذا اليوم الاسود ، فيدخل بيت الزوجية مفلساً ، فيبدأ الخصام من أول يوم ، ومتى دخل الخصام بيتاً خرجت السعادة من ذلك البيت .

مع أن رسول الله ﷺ يأمرنا ان ننظر في الخاطب الى دينه وخلقه ، ونسهل له الزواج .

ولكن الناس يقولون ، هل هذا ممكن في هذا العصر ؟ نعم إنه ممكن ، وأنا فعلته ، ان عندي خمس بنات ، فلما جاء الخاطب الذي يرضي دينه وخلقه ، قلت له : خذ وامش . كتبت مهراً كبيرا ولم آخـذ منه شيئا ، ولم أدع العادات تستعبدني ، بل كنت انا الذي استعبدها ، ولم أترك النساء يتحكمن في الأمر ، بل حكّمت الشرع أولاً ، ثم العقل والمصلحة ، ولم اندم على مافعلت ولا ندمت البنت .

ومن الآباء من يدع ابنته تخرج سافرة يراها كل من يمشي في الطريق حتى الحمير ... فإن اراد الخاطب أن يراهـا الرؤية الشرعية ، نادى : ياللحجاب ، وياللديانه ، وياللعادات !

لقد سددنا أمام الشباب طريق الزواج المشروع ، وفتحنا السدود التي أقامها الشرع أمام طغيان الغريزة وخروجها عن مجراها .

وضع الشرع سد الحشمة والتصوّن ، فقالوا : ماذا ؟ انعود الى الحجاب ، ونرجع الى الوراء ؟

فسكتنا ، فانكسر السد الأول .

ومنع الشرع الاختلاط ، وقال : ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما . فقالوا : ماهذه الرجعية ؟ ماهـذا الاحتقار للمرأة ، وسوء الظن بها ؟ أتحرم المرأة من حريتها ؟ أنتم أعداء المرأة . قلنا : ياجماعة مانحن والله أعداء المرأة ، نحن والله أحباؤها ؟ ونحن المدافعون عنها المحافظون عليها ، نحن نحميها من عدوان الرجل ومن ظلم المجتمع .

فلم يصدقونا ، وخـدعوا المرأة فلم تصدق اننـا نحن أصدقاؤها ، وتركوها تنفرد به وحدها ، في عيادة الطبيب حيث تكشف جسدها للفحص ، وفي مكتب المحامي حيث تكشف نفسها لشرح القضية ، وفي مخزن التاجر ، وفي السينما ، وفي المصيف ، وفي الجامعة ، وفي السفر وفي الحضر ، وفي الملعب ، وعلى الشاطىء !..

وقالوا : هذه هي المدنية ، فانهزمنا وانكسر السد الثاني .

وكان السد الثالث خوف الفضيحة ، فانقلبت الحال حتى صار الشاب الفاسق يفخر بفسقه ، ويسرد حوادث فجوره ، بعد ان كان يتوارى ويستتر ، ويجحد ان سئل وينكر ، وصارت القصص الماجنة مباحـة لكل قارىء تصوّر أفظع حوادث الجنس بريشة المصور أو بقلم الكاتب ، يقرؤها الشاب والشابة ، والافـلام (ولا سيا العربية مع الاسف) تعرضها لمن لايقرؤها ...

فانكسر السد الثالث .

وكان السد الرابع وهو خوف المرض ، فجاء الاطبـاء (بعض الاطباء) ينادون بأعلى أصواتهم ، أن لاتخافوا الامراض ياأيها الفساق ، فإن عندنا البنسلين والستربتوميسين والتيراميسين والابليسين [1] ، وكل

---

(١) نسبة الى مخترعه وهو ابليس ...

ما تصيبكم به المحرمات من مرض ، نحن نزيله ، فأقدموا ولا تخافوا .

فأقدموا وما خافوا وانكسر السد الرابع .

وكان السد الخامس ، هو خوف الحكومة ، لما كانت الحكومات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكان الحكم بالشرع ، فأخذنا قانون العقوبات من فرنسا ، من أفسق أمة وأحطها ، من البلد الذي دمره الفجور حتى وطئته نعال الالمان فاتحين ثلاث مرات ، خلال سبعين سنة ! ونصصنا في قوانيننا (انظر قانون العقوبات) على مايشبه الاباحة للزنا ، ويمنع الادعاء على الزاني إلا من قبل الزوج فان رضي فلا ادعاء ولا عقاب ، وجعلنا عقوبة الزنا بين الأم والولد ، وبين الاب والبنت أقل من عقوبة السرقة الموصوفة ولو كانت سرقة عشرة دنانير ...

وسكتنا ، وسكت العلماء والمفتون ، والنواب والحاكمون ، وانكسر السد الخامس .

وكان أقوى السدود وأمتنها خوف الله وخشية جهنم ، فأبعدنا الناشئة عن التربية الدينية ، وانسيناهم خوف الله وخشية جهنم ، ولم يعد الشاب الجديد يعرف طريق الجامع إن كان مسلما ، ولا الكنيسة ان كان نصرانياً .

فانكسر أقوى السدود .

ثم قلنا للمغويات والمغريات : انطلقي ، فانطلقت . وصارت المرأة تمشي في الطريق على صورة ، تستحي قبل اربعين سنة ان تخرج بها أمام ابيها وعمها في الدار ، إي والله العظيم ، مع ان دين الاسلام ، ودين النصرانية ، وكل دين في الدنيا صحيح أو باطل يحرم على المرأة ان تكشف الاعضاء التي تثير الفتنة أمام الاجنبي ، وقد وجدت على باب كنيسة في القدس ، إعلاناً للنساء المسيحيات المصليات ، يمنع

دخولهن الكنيسة إلا بالكم الطويل ، والوشاح الذي يستر الشعر ، والوجه الخالي الاصباغ .

ومازالت المرأة تقصر من ثوبها من هنا اصبعاً ، ومن هناك اصبعاً ، حتى اذا وصلت الى ساحل البحر لم يبق منه شيء !

هذه هي الحال ، فما ذنب الفتاة ؟

ماذنبها ؟ بل ماذنب الشاب وقد وجد الغريزة قوية في نفسه ، والزواج متعذرا أو متعسرا ، والسفاح سهلًا ولذيذا ، والمغريات والمغويات من كل جانب ؟.

وكيف تريدون ان يصبر ويقاوم ؟

وكيف تريدون ان ينصرف الى درسه وكتابه ؟

إنها مشكلة ينبغي أن تجتمع علي معالجتها ، الحكومات ، والشعوب ورجال العلم ، ورجال القلم ، والجمعيات النسائية ، الجمعيات النسائية على التخصيص ، لأن الخطر فيها على البنت ، والضحية هي البنت ، وهذه الجمعيات أولى بالدفاع عن النساء المظلومات .

واذا فسدت اليوم بنت صاحب الكتاب ، فالفساد ماشٍ إليّ واليك ، إلى بيتي وبيتك ، الى بنتي وبنتك ، إنها النار تمشي في الدور ، ونحن قاعدون نتفرج ، لانحاول اطفاءها ، بل نحن نلقي البنزين عليها ، ونأمل ألايمسنا الحريق .

فكيف لانحترق ونحن نضع البنزين فوق النار ؟

كيف ؟ كيف ياأيها العقلاء ؟!

هذا هو الدواء !

نشرت سنة ١٩٥٧

قرأ الناس مقالتي في العدد الثالث من « المسلمون » ، فكتبوا اليَّ يقولون : هذا هو الداء ، عرفناه ، فما الدواء

والدواء قريب منا ، سهل علينا ، ولكن الناس يدعونه ويذهبون في طلبه أبعد المذاهب ، فمن ماض الى اقصى اليسار ، يرى الاصلاح كل الاصلاح ، فى فتح بيوت للبغاء العلني ، يحتج لذلك بأن (الكبت) هو الذي يدفع الى هذه المنكرات التي نراها ، وان البغاء شيء لايخلو منه زمان ولا مكان ، فلأن يكون منظماً ، وان يكون بنظر من الحاكمين ، خير من ان يكون فوضى وان يكون مستترا ، ولأن فتح هذه البيوت ينقّي البلد وينظفها ، كمن يعمد الى علبة فيجعلها لاقذار داره ، ولـِقَي أهله ، كيلا تنتشر هذه الاقذار في الدار ، وتدخل كل بيت فيها .

ومن ذاهب الى أقصى اليمين لايرضيه الا ان تعود الفتاة اليوم الى مثل ما كانت تخرج به جدتها من نصف قرن ، الى الملاءة المزمومة او الازار الابيض ، ولا يحسب للواقع ولا للزمان حساباً ، ويرى الطفرة في الاصلاح ، مع ان الطفرة مستحيلة ، وهذا الفساد ماجاء في يوم واحد ، حتى يذهب في يوم واحد ، بل ان النساء مافتئن يقصّرن الثياب اصبعاً اصبعا ، حتى بلغن بها ما نراه اليوم ، وأنا لاأكره

الحجاب السابغ ، ولكني أحب لمن يتصدر للاصلاح ان يتكلم من الارض لامن رؤوس المـــآذن ، وان يرسم الطريق الموصل للاصلاح العملي الممكن ، لا ان ينظم القصائد الخيالية في تمجيد المثل العليا ..

اما فتح بيوت الزنا فالجواب عليه من وجوه .

اولها : ان الزنا شرٌ كالقتل والجرح والسرقة ، وليس في الدنيا عاقل يراه خيراً ، فاذا جاز ان نفتح له بيتاً نبيحه فيه ، بحجة أنه لايخلو من الزنا زمان ولا مكان ، فلماذا لانعمد الى حي من الاحياء ، أو قرية من القرى ، فنعلن ان القتل او الجرح مباح فيها ، مادام القتل والجرح لايخلو منهما (كذلك) زمان ولا مكان ؟

الثاني : اننا لو قلنا بان الزنا ليس كالقتل ، لانه يتم بالتراضي بين الفاعلين والقتل والجرح لايكون الا قسراً ، ولو ذهبنا مذهب من يجيز اتيان هذا المنكر وفتحنا هذه البيوت ، لكان من حق كل شاب او كهل ان يدخلها ان شاء ، لاسبيل الى اباحتها لزيد منهم ومنعها على عمرو ، واذن يجب ان نجعل في كل بلدة من البغايا عدداً يكفي مافيها من رجال .

فاذا كان في القاهرة مثلاً مليونان ونصف مليون من الناس ، فان منهم اربعمئة الف رجل على الاقل ، وليس يكفي هؤلاء اذا ارادوا دخول هذه البيوت أقل من أربعين ألف بغي ، فما رأيكم في أن يكون في القاهرة مثلاً اربعون الف بغي ؟

ومن أين نأتي بها الا ان نخزي أربعين الف امرة ، وان نجللها بالعار ؟ أو ان نستورد من كل امة ساقطاتها ومومساتها ، يأتين معهن بأمراض اجسادهن وامراض نفوسهن ، ويأخذن بها مالنا وشرفنا وديننا

الثالث : اننا لو وفقنا في فتح هذه البيوت ، وجمعنا فيها ماتحتاج

اليه من البغايا ، لاكتفى الشباب بها عن الزواج ، وكسدت بنات البيوت وبقين بلا زواج ، فماذا نصنع بهن ؟

هل ننشىء لهن أديرة تتسع لهن جميعاً ، ونسوقهن جميعاً اليها ، ليكن راهبات فيها ، ام نفتح لهن (ايضاً ...) بيوتاً نضع لهن فيها مومسين من الذكور ؟

ولا تستبشعوا هـذا الوصف ، فليس الذنب ذنب الطبيب الذي يصف المرض الفظيع صادقاً ، بل الذنب ذنب المرض ، واذا كان الوصف بشعاً ، فان الواقع الموصوف أبشع !

* * *

تقولون ، فما العلاج عندك ؟

العلاج عندي على مراحل ، ذلك ان المجتمع يقاسي الآن مثل آلام النوبة المرضية (الكريزة) فالمرحلة الاولى لوقف النوبة ، والثانية لمنع عودتهـا ، والثالثة لاذهاب المرض ، والرابعة للوقاية من رجعته بتقوية الجسم وتحصينه .

فالمرحلة الاولى في محاربة نوبة الدعارة التي وصفت لكم مظاهرها ، وأريتكم آثارها ، وذلك :

اولا : بتقوية جهاز الشرطة الاخلاقية وتنظيمها وتمكينها من العمل لأن الشرطي هو اول من يستجار به اذا كانت الجريمة ، وأول من يلتفت اليه ويبحث عنه ، فان كان الشرطي مفقوداً او كان غائباً ، او كان مقيداً لايستطيع ان يصنع شيئاً ، لم يبق مانع من الجريمة ، ولا وازع للمجرم .

ولقد طالما شكا اليّ رجال الشرطة الاخلاقية ، من انهم يعرفون ارباب الدعارة ، وبيوتها ، ولكنهم لايستطيعون ان يعملوا شيئاً لأنه

ليس لديهم قانون وازع رادع ، وانهم يقبضون على المرأة الفاسدة ، فلا يملكون لها شيئاً ، الا ان تكون مريضة ، فيعالجوهـا لتبرأ فتعاود الفساد ، ويطلقوهـا تَفسد وتُفسد ولكن تحت المراقبة ، أي اننا نمسك اللص ، فنقول له : لابأس ان تسرق ، ولكن اقعـد في مركز معين واسرق بعلمنا ورأينا .

وعمل رجال الشرطة الاخلاقية صعب ، صعب جداً ، لانهم امام اغراء بالجمال واغراء بالمال ، ويحتاجون الى ايمـــان الصّديقين ، وصبر الشهداء ليقاوموا ويصبروا ، لذلك يجب ان يختاروا ماأمكن من الكهول المجربين ؛ اصحاب الخلق والدين ، وان يعطوا تعويضـــاً ضخماً فوق الراتب ، ومهما اخذوا فانهم الخاسرون ، لانهم في موقف امتحان فظيع وان يزاد عددهم ، وان يكون في يدهم سلطان يحاربون به الدعارة ، ومن ورائهم قضاء لديه قانون صارم يمكنه من عقوبة لصوص الاعراض مثل عقوبة لصوص المال ، ومن خان منهم امانتـــه ، بعد التعويض الكبير والرعاية كان ايسر عقوبة له الطرد من الوظيفة .

وهنا نأتي الى القانون ، فانه لابـــد من تعديل قانون العقوبات تعديلاً يرضي الله ويصلح الامة ويمنع الاجرام وذلك هو العَقار الثاني لتوقيف نوبة المرض وتخفيف آلامها .

العقار الثالث : القضاء على الدعارة السرية ، التي أستفحل شرها ، وعظم ضرها ، واستترت بكل لباس ، فالبيوت الفـاجرة تختفي بين البيوت الفاضلة في الاحياء الكريمـــة ، والبغايا الفاجرات يلبسن ثياب الفنانات (الارتستات) ، والسيارات تحمل في الليل هـذا الشر الى الشوارع البعيـــدة المظلمة ، واطراف البـاتين ، وفي مخازن التجـارة والعيادات والمكاتب خلوات فساد ، وربما اتخـذت المرأة الفاجرة زي

الفتاة الطاهرة ، فزعمت او زعم صاحبها انها سكرتيرة أو موظفة أو ممرضة وما هي إلا بغي .

يجب وجوباً لاهوادة فيه ، ولا تراخي ، ان تشن حملة كاسحة ماسحة على الدعارة السرية ، وعلى من يسخر نفوذه وقوته لحمايتها ، ممن يرتادها ويستمتع بلذة الاثم فيها ، وان لاتقبل فيها وساطة ولا شفاعة ، ولا يعرض لها تسويف ولا تأخير .

وبهذه العقاقير الثلاثة ، نوقف النوبة (الكريزة)

* * *

أما منع تكرارها فيكون بالمرحلة الثانية من العلاج يكون بالقضاء على المغريات والمغويات

وأولها : السينما ، والسينما في كل بلاد الناس تراقب افلامها ، ويمنع الفاجر منها ، ولهم افلام للاطفال ، وافلام للمراهقين ، ولا يسمحون بأن يرى الصغار والكبار الافلام كلها على السواء .

أما نحن فنسمح للصغير والكبير ، والمراهق والمراهقة ، ان يرى هذه الافلام الخليعة التي تفسد الرجولة ، وتضيع الاخلاق .

وتصوروا ماذا يكون من شاب مثله الاعلى وقدوته هذا المهرج التافه اسماعيل ياسين ، او الآخر ، المخنث محمد فوزي ؟

فلماذا لانقلد الافرنج إلا في الشر ؟ لماذا لانقلدهم في الخير ؟

هذه السينما هي رأس الشرور ، وأسُّ البلايا .

والثانية : هذه الروايات وهذه الكتب ، التي تباع علناً مع الجرائد لايراقبها أحد ، ولا يحاول احد ان يعرف ماذا فيها ، لا وزارة المعارف ، ولا غير المعارف ، ولا المفتي ولا البطرك ، مع ان

الواجب على رجال الدين ، وعلى رجال التعليم وعلى ارباب الأقـلام ، ان يشرفوا عليها وأن يحاربوا الشر الكامن فيها .

من روايات ارسين لوبين ، ومن الكتب التي تنشر باسم الثقـافة الجنسية ، أو الروايات المترجمة ، وفيها جميعاً جراثيم الطاعون الذي يذهب بالرجولة والاخلاق والدين .

حتى المجلات ، ان في هذه المجـلات المصورة طامات وبلايا ، وما أفسد هذه الامة شيء ، كما أفسدتها هذه المجلات .

والثالث : هذا التكشف بل هذا العري في الشوارع والاسواق ، لقد صار النساء يمشين بلا جوارب ، بثياب لاتكاد تنزل عن الركبتين ، والذراعان لايسترهما شيء الى الكتف ، مع ان الشرع والعقل والمدنية كل أولئك يدعو الى فرض لباس الحشمة ، ومنع التكشف والاختلاط ، ولا سيما بين الشبان والشابات .

ولو انا جنَّدنا لمحاربة الدعارة آلافاً مؤلفة من الشرطة ، ووضعنا لردع الفاسقين ، اقسى القوانين ، لما افادنا ذلك شيئا مع هذه المغريات ، اننا ننظف الأرض ولكنـا نترك السقف مثقوباً يقطر منه الوكف (الدلف) فلا تنظف الارض ابداً ... نداوي المرض ولكننا نعود فنعطي المريض جراثيم الداء مع الدواء !

* * *

أما الذي يعالج المرض ، ويستلُّه من مكمنه ، ويقطع أسبابه فهو الزواج ، وكل ماذكرت لكم الى الآن ، إنمـا هو علاج طارىء ، يقطع النوبات المؤلمة ، ويمنع تجددها ، وهذا هو العلاج الحقيقي .

لاتضحكوا ، وتقولوا ، ولكنك قـد اعترفت انت بصعوبة الزواج ، فكيف تعود إليه فتصفه ؟

أنا الآن طبيب ، ووظيفتي ان (أشخّص) المرض وقد شخصته في تلكم المقالة ، وان أصف الدواء ، وهأنذا أصفه اليوم ، عليّ ان أقول ، ان المرض هو الملاريا مثلا ، ودواؤه الكينين ، فاذا أخفى الصيادلة الكينين ، او رفعوا ثمنـــه ، أو أضربوا وأغلقوا صيدلياتهم في وجوه المرضى ، فليس يلام الطبيب ، ولكن تلام الحكومة التي تدعهم يتلاعبون بصحة الناس .

ولست أعني الصيادلة ولا الحكومة ولكن هذا مثال .

الدواء الزواج ، وعلى الحكومة ان تؤلف لجنة من أهل الخـبرة والاختصاص لتعمل عـلى درس مشكلة الزواج ، وتبحث عن طرق تيسيره ، وليس ذلك مستحيلا ، وقد ألّفت لجنة لذلك مرة ، وكنت أعددت لهـا مشروع قانون (تسهيل الزواج) لعلّه لا يزال موجوداً بين أوراقي ، ويتضمن بعث حملة للترغيب في الزواج في الصحف وعلى المنابر ، واصلاح عاداته ، وتقليل تكاليفه ، وتحـديد المهور ، وزيادة التعويض العائلي ، والزام كل موظف من المرتبة السادسة فمـــا فوق بالزواج ، وجعله شرطاً للدخول في الوظيفة ، وفرض ضريبة على العزاب ممن يقدر على الزواج ويمتنع عنه بلا عذر ، وتعديل برامج التعليم في المدارس الثانوية للبنات بحيث تخرج زوجات وأمهات ، لا أن تدرس البنت مايدرسه الشاب نفسه بلا تبديل ولا تغيير ، الى آخر مايخطر على البال في هذا الموضوع

وأنا أرى ان تؤلف هذه اللجنة من ممثل واحد عن كل من دائرة الفتوى والاوقاف والمحافظة ووزارة المعارف ووزارة الداخلية ووزارة الصحة والقضاء الشرعي وكلية الطب وكلية الآداب ووزارة المـــالية معهم ممثلان للمجلس النيابي وممثـلان لرجال الدين المسيحي ، وممثل للجمعيات النسائية .

وعلى من يهتم بأمر بناته وأبنائه واخلاق البلد وصحته ، ان يعمل مااستطاع على تحقيق تأليفها .

وكل مانصنعه لإصلاح هذا الفساد الخلقي ، ومحاربة الدعارة ، باطل في باطل ، اذا لم يكن معه تيسير الزواج ، واذا انت وجدت رجلا جائعاً ، وامامه أنواع الاطعمة في واجهات المطاعم ، وأردت أن لايسرق منها ، فعليك ان تقدم له بدلاً عنها ، عليك ان تشبعه فاذا تركته جائعاً ، تتهش شهوة الطعام احشاءه ، والطعام أمامه ، والقيت عليه مئة خطبة وموعظة كان ذلك كله كلاماً فارغاً .

واللهُ ماسدّ بابا إلا فتح الى جنبه بابا ، وما حرم شيئاً إلا احل في مقابلته شيئاً ، حرم الربا والميسر (١) وأحل البيع والتجارة ، وحرم الزنا وأحلّ الزواج ، فاذا منع المجتمعُ الحلالَ المشروعَ عمد الشبان والشابات الى الحرام الممنوع .

* * *

أما القسم الرابع من العلاج وهو الذي يقوّي الجسد ، ويعطي المناعة ، ويضمن الوقاية من العودة الى المرض ، فهو تربية النشء على خوف الله ، وعلى الاخلاق الفاضلة وعلى النفور من الرذيلة ، وليس المهم ان تدخل الدروس الدينية في الامتحان أو لا تدخل ، بل المهم ان نحسن اختيار المعلمين ، أعني معلمي الدين ، وان يكونوا من ذوي القلوب ، ومن المتمسكين بالدين حقاً ، فان المدرس الذي يأمر بالخير ويخالفه ، والذي يكذب فعلُه قولَه ، والذي يدعو الى الآخرة وهمه الدنيا ، هذا المدرس شرٌ مركب .

هاتوا المدرس العالم العامل ذا القلب الحاضر ولايهمني بعد ، هل

---

(١) وهو اليانصيب ، هو بذاته

دخل الدين في الامتحانات العامة ، أم لا ، ودليلي ان المدرس الذي يكون في الجامع ، ويبلغ من نفوس الناس اعظم المبالغ ، ويؤثر فيها أعمق الأثر ، ليس لديه امتحان ولا علامات ولا نجاح ولا سقوط ، ومع ذلك فقد صنع هذا كله ...

ولايفهم من كلامي أني لاارى دخول درس الدين في الامتحان ، لا ، وانا أصر على دخوله وعلى زيادة ساعاته [1] ، ولكن الاصل المعلم لاالمنهج ولا الكتاب ولا الامتحان.

واذا نحن حاربنا الدعارة ، ومنعنا المغويات ، وسهلنا الزواج ، ولم نجد في النفوس خلقاً وديناً لم يفدنا ذلك كله ، ونحن نرى في المتزوجين وممن لهم الابناء والبنات ، مَنْ هم مِنَ الفسّاق ، لم يمنعهم الزواج حين لم يمنعهم الخلق ولا الدين .

* * *

خوف الله هو الاصل ، فان ذهب لم تسدّ مكانه الاخلاق ولا القوانين ، لأن القانون يبقى مابقي الشرطي فإذا أمنت ان يراك الشرطي لم تبال بالقانون . والاخلاق تبقى مابقي الناس ، فان لم يرك الناس لم تبال بالاخلاق .

هذه هي الحقيقة ، فلماذا نكتمها ونفرُّ من الاعتراف بها ؟

ان النفوس فطرت على العمل ابتغاء المنفعة فمن من الناس يكون جائعا وليس معه إلا قرش واحد ، فيضعه في صندوق الصدقات حيث لايراه احد ولا يطلع عليه مخلوق ، ويبقى بلا طعام ؟

---

(١) والواقع انه ليس عندنا شيء اسمه علم الدين ، بل علم التوحيد وعلم الحديث وعلم التفسير وعلم التجويد وعلم الفقه - فيجب ان يكون لكل علم الساعات الكافية لتدريس مواده : انها علوم مختلفة وان جمعها اسم الدين ، كما يجمع الحساب والجبر والهندسة والمثلثات اسم الرياضيات والكيمياء والفيزياء والطبيعي اسم الطبيعيات والنحو والصرف والبلاغة اسم العربية .

أنا اقول لكم ، من !

المؤمن ، المؤمن وحده ، هو الذي يصنع هذا ، ويصنع اكثر منه ، لأنه يعتقد ان الله يعطيه بدلا من هذا القرش أضعافاً مضاعفة، ويعوّضه عما حمل من آلام الجوع لذائذ ليس لها حد[1] .

المؤمن الذي يخاف الله ، هو الذي يفعل الخير دائما ، ويمتنع عن الشر دائما ، سواء أكان وحده أم كان مع الناس ، لأنه يعلم ان الله معه دائما ، ومطلع عليه في كل وقت ، وان مايفعل من الخير ، وما يدع من الشر ، لن يذهب سدى ، بل هو سيجد مكافأته عاجلا او آجلا.

واذا ذهب خوف الله من النفوس ، لم ينفع بعده شيء .

لاتنتهي الأنفس عن غيّها   مالم يكن منها لها زاجر

★ ★ ★

---

(١) هذه هي فطرة البشر التي فطر الله الناس عليها ، وما يروونه عن رابعة وغيرها من المتصوفة من عبادة الله لاخوفاً من ناره ولا طمعا في جنته ، دعوى لادليل عليها ، والله قد وصف الانبياء بانهم يرجون ويخافون . فما هؤلاء بالنسبة الى الانبياء ؟!

الاذاعات العربية (١)

نشرت سنة ١٩٦٠

حديث اليوم انتقاد للاذاعة ، فهل سمعتم بأحد يتحدث في الاذاعة فينقد الاذاعة ؟

نعم . فلقد كانت محطة الشرق الادنى قديما ، تأتي بالادباء لينتقدوا برامجها ، وتدفع اليهم على ذلك الاجر الجزيل ، لانهم يخدمونها بهذا النقد وينفعونها وإذاعتنا الوطنية اولى بهذه الفضيلة ، من تلك الاذاعة الانكليزية ..

وأنا لاأنتقد القائمين على الاذاعة الآن . لا، وان أخانا الامير يحيى الشهابي واخوانه من أقدم وأقدر المشتغلين بالاذاعة العربية ، ولا انتقد اذاعتنا بالذات ، بل هو نقد عام لبرامج الاذاعات العربية كلها .

ذلك انها لاتجد ماتذيعه الا هذا الغناء ، تغني من الصباح الى الليل ، بلا استراحة ولا انقطاع .

وخبروني عن هذا الكلام الذي تلحنونه ؟ ماهو ؟

أهو شعر عامي ؟ أعوذ بالله !

أهو زجل رفيع ؟ اعوذ بالله مرة ثانية !

هل يسجل حالة من حالات النفس ؟ هل يعرض وضعاً من أوضاع

---

(١) هذا العنوان بخط المؤلف

المحبين ؟ هل يصوّر مجلى من مجالي الطبيعة ؟ هل يهزّ سامعه ، هل يسمو بخياله ، هل يحرك عاطفته ؟

هل هو فن ، نقبله من أجل الفن ؟

هل هو توجيه ؟ هل هو للوطن ؟

ان أكثر مانسمع من ألفاظ الاغاني ليس في شيء من ذلك كله ، ماهو الا كلام عامي ساقط ، لامعنى فيه ولا مبنى ، وان ثقله وغثاثته وبرده وسماجته يفسد حلاة النغم الحلو ، ان كان معه نغم حلو ، وأنّى ؟ ان اكثر الانغام اليوم مستكره ثقيل .

اقول اكثرها ، لا كلهـا ، لأن من الانصاف ان نقرر ان في الانغام ماهو عذب سائغ مطرب .

ولا أدري لماذا لايغني جماعة هذا الفن الجديد كما يغني الناس!

لماذا لاينطلقون بالغناء على سجيتهم .

ان العلم يكون عالمياً ، لان طرق التفكير واحدة في الامم كلها أما الفن فلا يمكن ان يكون عالمياً ابداً ، اننا يستحيل ان نطرب لاغاني الافرنج ، كما يستحيل ان يطربوا لاغانينا ، ولكنهم يصرّحون بذلك لقوتهم وشعورهم بانفسهم ، وننكر ذلك ونتظاهر بضده لشعورنا بالضعف ، هذا الشعور الذي وضعوه في نفوسنا في اوائل هذا القرن ، والذي حاولنا الآن أن نبرأ منه ونتخلص من بقاياه

فلماذا يقلد جماعة المغنين اوربة في غنائها ؟

وياليتهم يقلدونها ويأتون بفنها كما هو ، فلا يفسدوا الفنّين ، ويزوغوا عن الطريقتين ، ويأتوا بشيء لاشرقي ولا غربي ، ولا شمـالي ، ولا جنوبي .

كنت راكباً في الباص من أيام ، فخطر على بال السائق الطرب

ففتح الراد - ووضع الراد في الحافلات عادة شنيعة لأدري متى تبطل - فاذا رجل ، يخرج صوتا عجيباً ، لايشبه أصوات بني آدم ، صوت كأنه صوت مختنق يطلب النجدة ثم يمنعه الماء في فمه ان يفصح او يبين ، او كأنه صوت امرأة أخذها الطلق ، او كأنه صوت دجاجة علقت بها البيضة فلا تخرج ولا ترجع ، وسألت جاري مدهوشاً : ماهذا ؟

قال : هذا فلان (واحد من المغنين المشهورين) يغني ، يقول : آه

فلم اصدق . حتى جاء بأربعة شهود من ركاب (الباص) فشهدوا ان هذا الصوت الغريب ، هو غناء مغنٍّ يقول : آه

ونظرت فاذا هذه ال (آه) قد خرج ربعها فكان على لسانه ، وربعها علق في حلقه ، ونصفها أصابه الامساك المزمن فبقى في جوفه فلا يخرج الا بشربة زيت خروع .

فقلت : ولماذا لايغني كما يغني الناس ؟

قالوا : هذا هو الفن الجديد .

قلت : لعنة الله على هذا الفن الجديد .

اين هذا من آهات صالح عبد الحي وعبده الحمولي ؟

اين هذا من غناء الامس ؟

اسمعوا برنامج نشوة الماضي ان كنتم لاتعرفون تلك الاغاني ، ثم انظروا الفرق بين الاثنين .

بين ذلك الانطلاق وتلك الحرية ، وذلك الطبع وبين هذه التكلف وهذه القيود وهذه الحشرجات .

على اني لاأمدح أغاني الماضي فأكثر كلامها ، كلام فارغ أو بذيء ، ولكن اذكر هنا النغم ، فان لم يكن بدٌّ من الغناء ، فمثل هذا ..

واذا اردتم ان تطعّموا ألحاننا بألحان الافرنج ، فاصنعوا كما صنع

سيد درويش على الاقل ، اما هـذا الـ (قرف) الذي نسمعه من ذلك المسخ الذي اسمه عبد الحليم حافظ ، وامثاله من عجائب المخلوقات الذين لانعرفهم رجالاً لهم رجولة الرجال ، ولا نساء لهم انوثة النساء ، ولا ندري ماهم ، مانراهم الا مخانيث ، اما هذا فشيء لايطاق .

أين الملحنون الفحول ؟

أليس من العيب ان نجيء الى نشيد (الحمد لك والشكر لك) فلا نجد له الا هذا اللحن المائع ، من هذا الخنك المرخي ، وهـذه الرجولة المزورة ، فيمسخ النشيد من نشيد الرجولة الشاكرة الحامدة ، الى ..كاد يسبق لساني فأقول الكلمة التي لايقال هنا غيرها ، ثم ذكرت أني أتكلم في الاذاعة ، وانه لايجوز ان يقال فيها ذلك الكلام .

ومالنا وللغناء الافرنجي ؟ حضرت مرة فلماً غنائياً في السينما يغني فيه رجال ونساء مجتمعين ، ويصرخون فيه ذلك الصراخ فما شبهتهم الا بقطتين وكلبين ، ربطتها جميعاً ، ثم دست على ذنب القط مرة ، وعلى ذنب الكلب مرة فصرخا معا ، فكان هذا الغناء الافرنجي .

وأنا أعتذر الى من يدفعه التقليد الى الغيرة على هذا الغناء ، فأن هذا رأيي ، وأنا رجل لاأفهم الموسيقى الفرنجية فما أصنع ؟

ولقد فتحت الراد مرة ، وقلما افتحه ، فسمعت أصوات آلات متنافرة ، فقدرت ان الفرقة تصلح آلاتها (تدوزنها) قبل العزف ، وقلت ، في نفسي ، لماذا يذيعون الدوزان ، فلما انتهوا ، قال المذيع قدمنا لكم السمفونية كذا لبتهوفن .

حسبتها والله دوزان آلات ، وكل السامعين من أهل الشام ماعدا ثلاثمئة واحد عشر رجلا في سورية كلها ، لايفهمون منها أكثر مما فهمت وكنت اناقش أحد المدافعين عن موسيقى الغرب مرة ، فقال بان فهم هذه السمفونيات يحتاج الى علم خاص .

- قلت : قاتل الله موسيقى لاتفهم الا بعلم خاص ، أهذه موسيقى ؟ انها مسألة رياضيات .

ووعد بأن يذيع حديثاً موضوعه (كيف نفهم سمفونيات بتهوفن) واذاعه وسمعته ، وطلبت اليه ان يعد حديثاً آخر ، موضوعه (كيف نفهم حديث السمفونيات) لأني لم أفهم شيئاً مما قاله .

ولعلكم تقولون ، ان الناس كلهم ليسوا مثلك ، وفيهم من يعجبه الاطرش والاخرس ، وتلك التي لها مثل صوت القطة ، ولا ادري هل اسمها شادية أم شيء آخر .

صحيح ، ان اذواق الناس تختلف .

واذا كان الغناء الدائم يعجب ناساً فان آخرين ينزعجون منه .

انهم يملّون هذا التكرار ، لقد قلت عشرين مرة ، اننا نسمع الاغنية الحلوة فنطرب لها ، فنسمعها الثانية فنلتذ بها ، والثالثة فنستريح اليها ، فاذا سمعناها الرابعة والخامسة ، والحادية والستين بعد المئة طلعت ارواحنا منها ، خذ الفقير الذي يرى البقلاوة عند البياع فيشتهيها ويتمنى ان يأكل قطعة منها ، فاحبسه في غرفة عشرة ايام لاتطعمه فيها الا البقلاوة ، فانه يتمنى ان يتخلص منها الى الزيت والزعتر ..

فلماذا لاتجيء الاذاعات بخبراء من علماء النفس فتسألهم عن طاقة الانسان كم مرة تحتمل ترداد الاغنية الواحدة ؟

والطريقة سهلة ، تضعون هذا الخبير وحده ، وتغنونه (على العصفورية) كل ساعة مرة ، مثل العلاج الذي يعطى منه فنجان كل ساعة ، وتنظرون متى يكسر الباب ، ويخرج رأساً الى العصفورية ..

تقولون : ما العمل ؟

ياسادتي . ان الاذاعة جعلت لرفع المجتمع الى حياة اسمى لا لاقراره على حياته التي هو فيها .

وليس المطلوب منهـــا اللذة فقط بل اللذة والفـائدة وهناك فوارق مالية واجتماعية بين الناس يجب ان يعمل على ازالتها او تقليلها ، وهنالك فوارق فكرية وذوقية ، من المستحيل ان تزول .

والاذاعة تستطيع ان تعمل لها برنامجين ، كل برنامج على موجة من موجاتها ، برنامجاً للخاصة ، وبرنامجا للعامـــة ، واذا كان في ذلك كلفة فقللوا وقت الاذاعة فليس من الضروري ان تشتغل الليل والنهار لاتستريح ولا تريح ، ولا تنام ، ولا تنيم .

ثم ان الانسان يهتم بصحته ودينة وماله وعقله وقلبه فلتشمل برامج الاذاعة هذه الامور كلها ، واذا كان الغناء للقلب ، فليس معنى هذا ان نغني دائما ، ان الانسان كما قالوا : حيوان ناطق ، وليس حيوانا مغنيا ، مافي الحيوانات مايغني دائما الا الصرصور ، فهل نحن صراصير ؟

وبعد فلعلي ما آذيت بهذا الحديث الامن يستحق الايذاء ، ولا تؤاخذوني فانها شكوى .

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة   يواسيك او يسليك او يتوجع



صور دمشقية سوداء
من ربع قرن[1]

نشرت سنة ١٩٣٥

ذهبت أمس الى المدرسة الامينية[2] ، وهي المدرسة الأسلامية التي انحَطَمَتْ على جدرانها ثمانية قرون وهي قائمة ، وماتت من حولها ثمانمئة سنة وهي حية ، ونشأت دول وانقرضت ، وبدئت تواريخ وختمت وتبدلت الارض وتغيرت ، وهي ماضية في سبيلها ، عاكفة على عملها ، قد انقطعت عن الارض من حولها ، واتصلت بالسماء من فوقها فعاشت في سماء العلم والناس يعيشون في ارض المادة ..

---

(١) هذا العنوان بخط المؤلف

(٢) الأمينية : قبلي باب الزيادة المعروف بباب القوافين من ابواب الجامع الاموي ، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها (وبابها اليوم من سوق الحرير) وتعرف هذه المحلة قديما بباب القباب ، وهناك دار مسيلمة بن عبد الملك ، قيل انها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها اتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الاسلام أمين الدين كمشتكين بن عبد الله السفتكي المتوفى سنة ٥٤١ وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ الخ ... قلت : وجاء ذكرها في ترجمة الغزالي في طبقات السبكي لما زار دمشق ، ودرس بها ابن خلكان وغيره ، وكان لها شأن بين مدارس دمشق كبير . جدد عمارتها واستخلص بعض ماسرقه منها الجيران وجعلها مدرسة ابتدائية مدة اربعين سنة الشيخ شريف الخطيب قلت : وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٥٩

دخلتها فاذا هي صامتة ساكنة ، لايسمع في ابهائها صوت مدرس بدرس أو دارسين بتلاوة ، واذا في كل فصل من فصولها رهط من التلاميذ ، متفرقون في زوايا الفصل ، لاتنفرج شفاههم عن بسمة السرور ، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل ، واذا الاستاذ صاحب المدرسة قابع في غرفته ، يفكر حزيناً ، وينظر آسفاً ، وهو الذي لم يألُ العملَ جهداً ، ولم يسيء بالله ظناً ، فلما رآني قام اليّ يحدثني عن المدرسة ، ويعلمني علمها ، فاذا المدرسة قد زلزلت في مطلع هذا العام المدرسيّ ، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الاسلامية وزهدوا فيها ، وزاغوا الى المدارس الاجنبية وأقبلوا عليها ، وضنّوا على مدارسنا بدينار واحد في العام ، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار في الشهر .

وأفاض الاستاذ في البيان ، حتى امتلأت نفسي حَزَناً فخرجت حزيناً فمررت على (الكاملية)[1] فاذا هي في خطب أشدّ ، ومصيبة أفدح ، فجزت بـ (الجوهرية)[2] فاذا هي ماتت بعد شيخ الشام الشيخ عيد السفرجلاني ، واذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن ، فسلكت على (التجارية)[3] فاذا دارها الكبيرة في زقاق الفخر الرازي

---

(١) هي التنكزية الصغرى دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطة تنكز سنة ٧٣٠ . قلت : وسميت الكاملية الهاشمية لأن الاستاذ الشيخ كامل القصاب جدد بناءها وجعلها مدرسة ثانوية فكانت حينا من أرقى مدارس دمشق.

(٢) الجوهرية شرقي تربه أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة ٦٧٦ ، وكان بعضهم اواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور الخ ... قلت : وقد اعادها مدرسة وجدد بناءها الشيخ عيد السفرجلاني رحمه الله رحمة واسعة .

قلت : وقد هدمت سنة ١٩٥٨ وصار مكانها شارعا .

(٣) مدرسة مستحدثة أسسها طائفة من تجار دمشق وكانت قبيل الحرب وأوائله أرقى مدرسة ثانوية في دمشق وكان مديرها والدي الشيخ مصطفى الطنطاوي .

خلاء قواء واذا هي قد انقلبت الى الخيضرية فاتخذت فيها داراً ، ورأيت (الجقمقية) [١] القاعة التاريخية الجميلة ، والمدرسة الاثرية الجليلة فاذا هي قد اتخذت داواً ..

فذهبت وأنا أحسّ الألم يقطع في كبدي ، والاسى يحزّ في قلبي ووددت لو أن الله قبضني اليه قبل أن أرى مدارسنا الاسلامية ، لاتستطيع أن تعيش في البلد الاسلامي ، ولا تجد من يشد أزرها ويأخذ بيدها ... وأممت شارع بغداد ، أروّح عن نفسي بخضرة البساتين ، وجمال الكون ، وانطلاق الهواء ومنظر الجبل ، فما راعني الا افواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير ، كأنه قلعة من القلاع ، او قصر من القصور ، حتي لقد كادت تسد بكثرتها الشارع العريض - ماراعني إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك) ، يتدافعون ويتزاحمون ، كأنهم على باب الجنة ، فكل يطمع أن يسبق إليها ، وكلما فتح الباب لواحد ، لحظته العيون بالغيظ ، ورمقته بالحسد .. فسألت قوماً اعرفهم ينظرون كما انظر ، ماذا هناك ؟ فقالوا : هم المسلمون يريدون ان يسلموا ابناءهم الى رجال اللاييك ليصبوا في قلوبهم مايشاؤون من عقائد باطلة في الدين ، وعواطف زائفة في الوطنية ، وزهادة في اللغة ، وكره للتاريخ الاسلامي ، والقومية العربية ، ويدفعون إليهم الاموال الطائلة ، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم ، والزيغ والالحاد ، وحبّ الغريب ، وبغض القريب ، وما يشترون إلا أعداء

---

(١) هي شمال الجامع الاموي أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جقمق وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف اليها مدرسة للايتام وتربة وفي هذه المدرسة تخرج اكثر رجال دمشق المعروفين اليوم على يد الشيخ عيد رحمه الله

لهم ولأوطانهم ، يحاربونهم في دورهم ، ويغزونهم في أخلاقهم وعقائدهم ، وهم قد انحـدروا من أصلابهم ، وخرجوا من ظهورهم ؟ أفرأيت بلاء أشدّ ، وخزياً أكبر ، من ان يحاربونا بأبنائنا ، ويأخذوا على ذلك أموالنا ؟..

فقلت : لا والله ! وسرت ، اخشى ان يتمـزق والله من الالم كبدي ، فمررت على (مدرسة الفرير) فاذا الجموع اكثر ، والازدحام أشدّ ، والمسلمون يرجون الخوري .. ان يُنسي أبناءهم القرآن ، ليحفظهم الانجيل ، ويبغض اليهم محمداً وابا بكر وعمر ، ويحبب اليهم بطرس ولويس ونابليون ... فسرت مسرعـاً ، لايطول بي وقوف فتحرقني نار الحزن ، وأخذت طريقي الى مدرستي ، أسلك اليها شارع البرلمان ، فاذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة ، جمهور من المسلمين لايحصيهم عدّ ، يأخذون بأيدي بناتهم ، ليدخلوهن اليها ... فعدت ادراجي الى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواي) الى مدرستي في حيّ المهاجرين ، في لحف جبل قاسيون .

* * *

ولم يستقر بي في المدرسة مقام ، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين ، على رأسه عمامة بيضاء كأنها برج ، وحول يده كُمّ كأنه خرج ، تتدلى منـه سبحة لايفتأ يعدّ حباتها ويلعب بها ، وقد يخطىء مرّة فيسبّح عليها ، يجرّ بيده ولداً ، فخـذاه مكشوفتان وعلى رأسه كُمّة [1] فقلت له :

- ماهذا ياشيخ ؟ أعورة من أعلى ، وعورة من اسفل ؟

- قال : وما ذاك ؟

---

(١) الكمة هي (البيريه) وهي جنس من القبعات

ـ قلت : ألم يكفك ان تكشف عورته ، وانت تذكر الله ، وتتلو كتابه ، وتظهر منه ما أمر الله بستره ، حتى تضمّ الى العورة عورة أخرى تجيء من فوق رأسه ، فتلبسه القبعة ؟

ـ فقال : (ولوى لسانه وتفيق وتشدّق) : وماهي بعورة في مذهبنا

ـ قلت : وما مذهبك يامولانا ؟

ـ قال : مذهب الامام مالك

ـ قلت : ذاك لمن لايفرّق بين عورة الملتحي وعورة الأمرد ، هذ الذي في مذهب مالك ، لا مع مثل ابنك الذي لاتؤمن معه الفتنة .

* * *

وتركته وقمت الى قسم الشهادة الابتدائية ، أرى التلاميذ فجعلت أسألهم من هنا وهناك ، فقلت :

ـ ما شروط الصلاة ؟ من يعرفها منكم ؟

ـ قالوا : لانعرفها ، درس الديانة ليس من دروس الامتحان فلا نحفظه[1]

ـ قلت : فماذا قرأتم في السنة الماضية ؟

ـ قالوا : وماذا نقرأ ؟ عندنا ساعة واحدة في الاسبوع ..

ـ قلت : فلنبحث في التاريخ ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك أو القادسية ؟

ـ قالوا : ما قرأناهـا ... نحدثك عن سيرة نابليون ، ووقعة واترلو ... هذا ماقرأناه وسنقرؤه في هذا العام ...

* * *

وبعد ... فهذا طرف من الحقيقة ، وقليل من كثير من الواقع ، نسوقه بلا تعليق !

---

(١) هذا الفصل نشر من ربع قرن كامل .

رسالة

نشرت سنة ١٩٥٩

هذه رسالة شرعت بها ؛ لإرسالها الى صديق حبيب يدرس في بلاد الغرب ، ثم كسلت عن اكمالها ، فتركتها ، فلما قمدت اكتب مقالة هذا العدد ، أخرجتها فأتممتها ، وبعثت بها لتنشر لتعم منها الفائدة ، ويشمل النفع ، وليقرأها هـذا الصديق مقالة في المجلة (١) إن فاته ان يقرأها رسالة في البريد .

أتذكر مقالي لك يوم ودعتك ؟ لقد كنت خائفاً عليك من هذه البلاد ؛ لأني أخافها - والله - على نفسي ، وقد شارفت حد الكهولة الاقصى ، وقد أعلنت خوفي يوم سفرك ، أعادك الله بالسلامة والنجاح فلما وردت كتبك ، رأيت فيها لساناً فصيحاً ، وتفكيراً صحيحاً ، وكلام رجل مؤمن . فاطمأننت عليك الى حين - أقول الى حين ؛ لأني اعلم ان المرء كالنبات ، يعيش بنفسه ، وبالارض التي يمتص غذاءه منها ، والماء الذي يشربه والجو الذي يحيط به ، فإذا نقلته الى أرض غيرها ، بدلته التربة التي انتقل اليها ، والجو الذي صار اليـه ، ما لم يكن من النباتات التي أعطاها الله من القوة والتمكن ، مايمنع عنها هذا التغيير والتبديل ، وذلك اندر من النادر ، وأقل من القليل .

وليس يظهر هذا التبدل من أول يوم ، بل يحتـاج الى الزمن

(١) وانظر مقالتي (الى اخي النازح الى باريس) نشرت في الرسالة ٦ ديسمبر ١٩٣٧ وهي في كتابي (صور وخواطر) .

الطويل ، إنه مرض في النفس شأنه شأن الامراض كلها ، لابد لها من زمان تفرخ فيه (جراثيمها[1] ...) وتنمو وتسيطر ، فترى الرجل تحسبه صحيحاً وهو سقيم .

والمرء أبداً مابين ماضيه وبين آتيه ، يعيش بذكريات الماضي وبآمال المستقبل ، فإذا انتقل من مثل دمشق الى باريز أو برلين مثلا ، ورأى لوناً من الحياة جديدا ، وانطلاقاً ميسوراً بعد تقيُّدٍ بقيود الدين والخلق ، ولهواً ممكنا بعد جدٍّ دائم ، لم يَبْدُ لهذه الحياة الجديدة أثر فيه وهو يعيش فيها ، بل ربما تنبهت في نفسه الذخيرة الدينية ، فازداد تمسكاً . إنما يبدو ذلك ويظهر ، ويعمل عمله ، اذا عاد الى بلده ، ففتقد ذلك الانطلاق ، وحنّ اليه ، وضاق بهذه القيود ، وثقلت عليه .

وقد شاهدنا هذا في ناس من اخواننا عاشوا في باريز مثل عيش الزهاد والعباد ، فلما رجعوا الى دمشق هاموا على وجوههم ، كالحيوانات ، تسوقهم شهواتهم وحدها ، لايهابون حراماً ولا يخافون عاراً ، ولا يحفلون بشيء . ولولا أني لاأحب ان أعرض لأحد من الناس بعينه ، ولا يجوز لي ان أعرض لأحد ، لسميت لك رجالا بأسمائهم لتعرفهم .

وأنا ما سردت عليك هذه الفلسفة المزعجة ، إلا لتعلم انك لاتزال تعيش بذخائر الماضي في نفسك ، وبقايا آداب الصبا ، وأن الذي تدخره في نفسك الآن من ذكريات هو الذي ستحيا به بعد عودتك ، فانتبه ياأخي ، بل يا ولدي ، لما ينطبع فيها ... واعلم ان لكل رفيق ترافقه ، وكل مكان تحله ، وكل كتاب تقرؤه ، وكل رأي تسمعه ، لكلٍ من ذلك أثر في نفسك ، لاتحس به لكنه موجود كالبذرة الصغيرة في الارض . بذرة زيتون مثلا ، لا يراها احد ولا يلتفت اليها ، ولكنها تصير يوماً شجرة تضطر كل من يمر بها إلى ان يراها . وتبقى مئة

---

(١) الجرثومة في اللغة الاصل ، وجراثيم الامراض اصولها ، واطلاقها على (المكروبات) صحيح من باب التجوز .

سنة على حين يظن من ألقاها انه نبذها ورماها . لذلك قال ابن عطاء الله السكندري [1] .

« لا تمكن زائغ القلب من أذنيك ، فانك لاتدري مايعلق بها منه » .

وقد كنت عرضت لهذا المعنى ، في بعض ما كتبت ، ولكني أعيده عليك لأن من المعاني ما لابد فيه من الاعادة ، ولا يضر به التكرار .

ولقد ذهبت الى مصر وانا في مثل سنك ، وأين مصر يومئذ (سنة ١٩٢٨) من باريس اليوم ؟ وكنت في مصر مثلا مضروبا في التشدد والبعد عن كل مايحرم أو يشين ، وعدت منها وانا أحسب أني ازددت بسفري اليها ايماناً وتمسكا ، واذا المرض الذي داخلتني فيها عدواه قد تمكن مني ، حتى أني لا ازال الى اليوم أعاني أثر هذه الفترة في عواطفي وفي افكاري ، وما ذلك لفساد مصر بل لأنني غدوت فيها طليقاً ، ليس في الناس من يعرفني فيراقبني ، أو اعرفه فأتهيبه . وانت في بلد فاسد ، المحرمات فيه معلنة ، والمنكرات ظاهرة . وان إلف رؤية الحرام ، ودوام مشاهدته ، يهوّن على النفس اقترافه ، ويذهب منها هيبته ، نعرف ذلك من نسائنا المسلمات ، كان عهدنا بالواحدة من نسائنا ، أنها تضطرب وتجزع ، إن لمحها الاجنبي من فتحة الباب ، أو شق النافذة ، وتسرع فتتوارى . فصارت ترى الرجل فتقابل وجهه بوجهها ، وتثبت في عينيه عينيها ، وكان الرجل اذا رأى الاجنبي ينظر الى زوجه ، استكبر ذلك واستنكره ، وهاج في نفسه تصون المسلم ، ونخوة العربي . فتراخى الحبل حتى صار الرجل يماشي امرأته في الشارع ، ويضاحكها في الطريق ، ويرافقها الى السينما . وصار من العرب المسلمين ، من يقدم ابنته الى الاجنبي ليراقصها ، يدني صدره

---

(١) في (الحكم) وهو كتاب لايخلو من ضلالات ولكن هذه كلمة حق فيه .

من صدرها ، ويلف ذراعه على خصرها ، ويلامس بساقه ساقها ، وصار الاجنبي يأخذ الزوجة في هذه الحفلات الداعرة الفاجرة من زوجها ، ليرقص معها ، فلا تستعصم المرأة ولا تأبى ، ولا يغضب الزوج ولا يغار ، ولا يعجب الناس ولا ينكرون .

بل لقد سرى هذا الداء ، الى نساء العلماء والصلحاء ، فصرن يكشفن الوجه حيث تؤمن الفتنة وحيث تخشى ، فاذا كشفنه لم يتحرجن من مسامرة الاجانب من الاقرباء في السهرة ، ومسايرة الاجانب من الاصدقاء في السفرة . يفعلن ذلك أولا بحضرة الزوج واذنه ، ثم يفعلنه في غيبة الزوج وبلا علمه ، ثم يتبع الوجهَ الشعرُ ثم النحر ، والكفَّ الذراعُ ثم الصدر ، ثم يكون هذا الحسور وهذا الفجور .

وهذا كله إنما كان تقليداً للافرنج نفعله لانهم يفعلونه . ولان المستعمرين قد اغتنموا غفلتنا وهجوعنا ، في مئة السنة(١) التي مضت ، وتأخرنا عنهم في طريق الحضارة المادية ، فلم يدخروا جهداً ، ولم يألوا وسعاً ، في اشعارنا سبقهم الى هذه الحضارة وتأخرنا ، وعلمهم بهذه العلوم وجهلنا ، وقوتهم بهذه الاسلحة وضعفنا ، حتى صار تعظيمنا إياهم ، وهيبتنا لهم ، حقيقة راسخة في نفوسنا ، اعترفنا بها أو انكرناها .

وكان من نتائجها ان تركنا شريعتنا لقوانينهم ، واخلاقنا لعاداتهم ، وفضائلنا لرذائلهم ، وكان هذا كله تقليداً على السماع ونحن في بلادنا ، فكيف اذا رآه الواحد منا بالعيان ، وهو في بلادهم ، وكيف اذا كان الرائي شاباً ملتهب الغريزة ، متوقد العاطفة ، يحمل بين جنبيه نفساً قد حشيت بالبارود ؟

ماذا يصنع الشاب الذي كان في بلاده ، يفكر في المرأة ليله ونهاره ، صورتها أبداً في خياله ، وحديثها أبداً على لسانه ، يثيره مرآها

---

(١) هذا هو التركيب الصحيح .

على بعد مئة متر ، فصار الى بلد ، يرى فيـــه حينما تلفت أسراب الحسان المثيرات ، كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، لايكلفه نيلهن إلا أن يشير بيده ، فيترامين عليه ، لايحجزهن دين ، ولا يمنعهن عرف ، ولا يمسكهن حياء . في معشر يرون من المدنية ان تستباح الاعراض ، ويتسافح الفتيان والفتيات ، قــد هانت المرأة حتى صار عرضها يبذل في ملء بطنها وستر جسدها ، وصارت تنال بغذاء وكساء .

فماذا يصنع الشاب في هذه المحنة ؟

وكيف يغفل الآباء عن هذا البلاء ؟

لو سمع الاب أن في هذا البلد الذى يبعث إليه بابنه وباءً فتاكا ، وأن (احتمال) إصابة ولده به واحد في الألف لما أرسله اليه ولو كان فيه علم الأولين والآخرين ، فكيف يرسله الى بلد (احتمال) إصابته فيه بخلقه ، وتفريطه فيه بعفافه ، وتهاونه فيه بدينه تسعمائة وتسع وتسعون في الألف ؟

لقد حدثني الاستاذ الشيخ مصطفى السباعي عما رآه في أوروبا لما ذهب إليها للتداوي - شفاه الله وأتم عليه نعمة العافية - فسمعت والله شيئاً أعجب من العجب ، وأيقنت انه لو امتحن العجوز [1] العابد بما يمتحن به شبابنا هناك لخيف عليه والله السقوط .

ذلك لأن النفس البشرية مفطورة على ابتغاء اللذة ، وقصد الراحة ، وترك العناء ، ميالة الى الانطلاق ، ولأن الانحدار الى المعصية أهون من التسامي الى الطاعة ، كالماء أفلتَّه يتحدّر الى قرارة الوادي ، وأصعِده لايصعد إلا بمضخة ، لذلك قل في الناس الطائعون ، وكثر العاصون ، وكثرت جرائدهم ومجلاتهم وأماكنهم ووسائلهم الى ماهم فيه ، إن الرجل الفاسد يلوّح للشاب الصالح بالجميلات وما يقدّر من اللذة بقربهن ،

---

(١) كلمة عجوز في اللغة خاصة بالمرأة ولكننا استعملناها تجوزا .

والخمر ومايتوهم من اللذة بشربها ، والقمار وما يؤمل من الربح بتعاطيه ويأخـــذه الى المراقص والمشارب وكل مكان لذة فيفسده . فإلى أين لعمري يأخذه الرجلُ الصالح ليصلحه ، وما الذي يغريه به ، إلا ان يعده الآخرة الغائبة بدلا من الدنيا الحاضرة ، وذلك مطلب عال لايصعد اليه إلا بجهد دونه جهد السجن والضرب والقتال . لذلك جعل الله هذه المنزلة لمن يؤمن بالغيب ، وكرر الثناء عليه في القرآن ، ولذلك أخبر النبي ﷺ بأن سبعة يظلّهم الله بظل العرش يوم لاظل إلا ظله ، يوم الحشر للحساب ، منهم الشاب الذي نشأ في طاعة الله ، وقاوم مغريات الشباب ، ومنهم رجل دعته امرأة ذات جمال حتى اذا تمكن منها ، ذكر الله فقام عنها .

* * *

إن سفر الشاب وحده الى اوربة ، خطر مؤكد ، ولكن الآباء، لاينتبهون اليه ، ولا يفكرون فيه .

إنهم يربون الولد على العفاف ، ويحمونه من فتنة النساء ، حتى اذا ما ظنوا انه استقام وصلح ، ووطن نفسه على العفة والتقى ، وطوى جوانحه على مثل النار الآكلة من لذع الشهوة . نقلوه الى بلد كل شيء فيه مباح ، الفتن فيه تحف به من كل جانب ، وقد زالت الموانع ، وسقطت الحدود ، فليس دون المعصية حد ، لاحد الدين في بلد لايدين بدين الاسلام ، ولا حد العار في بلد لايرى العار عاراً .

فهلا فكر الآباء ، في مصير أولادهم حين يبعثون بهم ليدرسوا في ديار الغرب ؟ .

* * *

وبعد ، فقد ذهبت - انت يا أخي - وقضي الأمر ، فاجعل خوف الله بين عينيك ، وتصور دائماً ذهاب لذة المعصية وبقاء عقابها ، وذهاب ألم الصبر عنها وبقاء الثواب عليه .

واسأل الله العون ، واستمد منه القوة ، والسلام عليك ورحمة الله وأستودع الله دينك وخلقك .

★ ★ ★

صور من تاريخنا العلمي

نشرت سنة ١٩٥٩

هذه صور من تواريخ علمائنا ، أبعث بها اليكم وحدها ، لا أبعث معها بتعليق ولا بيان ، ولتحدثكم هي حديثها ، ولتعلقوا أنتم عليها ، ولتذكركم بأشباهها ، أو بأضدادها ، من سير من تعرفون ، فتكون كالمعيار لهم ، والمقيـاس لاخلاقهم ، ولتكون كالصنجات في موازين حكمكم عليهم ، ترجح بها كفة قوم وتطيش كفة آخرين ...

ولو أخذت هذه الصور ، من تواريخ الصدر الاول ، والقرون الماضية حيث الدين غضٌّ ، والزمان مقبل ، والعلم في شبابه يتوثب من النشاط ، ويتفجر بالقوة ، لرأيتم والله عجباً من العجب ، وعندي من ذلك الكثير ، ولكنى آثرت أن آخذها من الامس القريب ، والعلم في كهولته يمشي مشية العاجز ، يتلمس الجدران ، ويقارب الخطو ، لا يستطيع أن يجانب الطريق المسلوكة خشية ان يتعثر أو يضل ، لتروا أن الارض لا تخلو من قائم لله بحجة ، وان أمة محمد الى خير ، وانها لا تزال طائفة منهم على الحق الى قيام الساعة .

- ١ -

نحن في صحن الجامع الازهر في مصر ، بعد المغرب ، وكان شيخ الازهر الرجل العظيم بعلمه ، العظيم بمنصبه ، الشيخ الباجوري (المؤلف

المشهور) وقد قعد على عادته كل عشية ، وأقبل العلماء والطلبة يقبلون يده[1] .

وكان الشيخ مصطفى المبلّط أكبر منه سناً ، وكان قد نازعه مشيخة الازهر ، وزاحمه عليها ، ولم يدّخر في سبيل الفوز بها جهداً ، فلما صارت للباجوري ، صار يعظمه ويرعى له حق منصبه ، فلما أقبل الناس هذه العشية على الشيخ لتقبيل يده ، اندس بينهم وقبل يده معهم ، فانتبه له الباجوري وعرفه ، فوثب قائماً وأمسك بيده ، وجعل يبكي ويقول : حتى أنت يا شيخ مصطفى ؟ لا ! لا !

فقال الشيخ مصطفى : نعم ، حتى أنا . لقد خصك الله بفضل وجب ان نقرّه وصرت شيخنا فعلينا ان نوقرك .

- ٢ -

وهذه صورة أخرى من الازهر في ساعة الظهيرة ، وقد خلا من المدرسين ولم يبق فيه إلا طلاب لبثوا قاعدين يتراجعون مسألة من مسائل الدرس ، أو ينظرون في كتاب من الكتب ، او يحفون بشيخ من المشايخ يسألونه فيجيبهم ، او يرقبونه من بعيد وهو جالس يعد درساً ، او يتلو سورة ، ينظرون اليه نظر تجلّة وإكبار ، لأن المشايخ كانوا علماء عاملين ، صادقين مخلصين ، فكان الطلاب يرون تعظيمهم من الدين .

ودخل شيخ الازهر ، وكان يومئذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني العالم المصنّف الذي كان من مزاياه أنه لم يتزلّف الى كبير قط ،

---

(١) تقبيل يد العالم لم يكن يعرفه السلف ، ولا بأس به ، ما لم يطلبه العالم ويحرص عليه ، ويمد يده لكل من يسلم عليه ليقبلها .

فقام الطلبة كلهم احتراماً له ، ووقف المشايخ يحيونه ، فحياهم وأراد ان يمضي فلمح في طرف المسجد شيخاً مسناً في ثياب خشنة ، مضطجعاً على جنبه ، يظنه من لا يعرفه فلاحاً قـدم الساعة من بلده ، فجاء يستريح في المسجد ، فوضع شيخ الازهر حذاءه بعيداً ، وأقبل يمشي على أطراف أصابعه مترفقاً حتى وصل اليه ، فقعد وأخذ يده فقبلها .

فانتبه النائم فرآه ، فما زاد على ان قال له :

ايش زيك[1] يا عبد الرحمن

ففرح شيخ الازهر بهذه التحية فرح من حيته الملائكة !

وكان النائم هو الشيخ الاشموني العالم المعروف .

- ٣ -

ونحن الآن في قصر حاكم مصر ، وقد زاره الشيخ الامير (المتوفى قبل مئـة وخمسين سنة) وهو صاحب الحواشي المعروفة في النحو ، والشروح في فقه المالكية ، وكان بينه وبين الشيخ القويسني الذي ولي مشيخة الازهر بعد ذلك خصومة معروفة ، فسأله الحاكم عنها ، وكان يحب أن يقف على حقيقتها ليوفق بينهما ، فقال الشيخ الامير : ليس بيننا إلا الخير ، وما أظن الشيخ القويسني حدثك بشيء من هـذا ، ومدح القويسني وأثنى عليه ، ثم خرج فمر على القويسني وخبره بما دار بينه وبين الحاكم ، فقال القويسني : صدقت ، ما قلت له شيئاً ، فقال الامير : هكذا يكون أهل العلم ، يسوُّون ما بينهم في خاصّتهم ، أما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة في التآلف والخير إمساكاً على عروة الاسلام ، وحفظاً لكرامة العلم .

---

(١) ومن هنا جاءت كلمة (ازيك) المصرية .

- ٤ -

على انهم لم يكونوا يبتغون الصداقة إلا من طريق الحق والصدق والتعاون على الخير ، فان جاءت من طريق الباطل تركوها وأعرضوا عنها ، لأن العالم الذي يتزلف ويرائي ويحب أن يمدح بما ليس فيه ، وان يذكر بما لم يعمل ، يخالف عن سبيل العلماء .

أروي لكم قصة وقعت في مدرسة القضاء الشرعي في مصر ، وكان مديرها يومئذ محمد عاطف بركات ، وكان من المحافظين على الصدق ، والمتمسكين به ، وقد خلت وظيفة في المدرسة ورغب فيها استاذان : شيخ من المشايخ ، واستاذ من الافندية ، فلم يحب أن يرد أحداً منها ، وسعى حتى وجد لكل منها عملاً ، وأراد أن يسعفها معاً ، ولكن الوزارة قدمت الشيخ وخصته وحده بالوظيفة ، وجاء يشكر المدير فقال له : ان المسألة ليست في يدي ، ولو كان الامر في يدي ما عينتك .

- ٥ -

أما صدعهم بالحق ، وجهرهم به ، فاني أروي حادثاً واحداً شاهداً عليه . لما توالت الهزائم على مصر في حربها مع الحبشة ، ووقع الخلف بين قوادها ، قال الخديوي اسماعيل لوزيره شريف باشا : ماذا ترى ان نصنع ؟ قال نجمع العلماء ليقرؤوا صحيح البخاري .

كأن صحيح البخاري ورد أو تميمة ، وكأن المهم تحريك اللسان بألفاظه ،لا حمل القلب والجوارح على العمل بما فيه ...

فجمع العلماء في الجامع الازهر ، وجعلوا يقرؤونه والهزائم تتتالى ، فجاء الخديوي بنفسه الى الازهر ، فصاح بالعلماء وبالشيخ العرومي شيخ الازهر وقال لهم بلهجة المغيظ المحنق : اما ان هذا ليس البخاري ، او انكم لستم العلماء !

فوجموا وصمتوا ، ولكن عالماً من آخر الصف ، لم يصمت ولم يَجِم ، بل صاح به : منك يا اسماعيل !! فانا روينا عن النبي ﷺ أنه قال : « لتأمُرُنّ بالمعروف ، ولتَنْهَوُنّ عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » . فزاد وجوم المشايخ واضطربوا وجزعوا . ووقف الخديوي لحظة لا ينطق ووجهه يتمعّر من الغضب ، ثم استدار فانصرف ومعه شريف باشا . وأخذ العلماء يؤنبون الشيخ المتكلم ، شأن الناس مع كل من يصدع بالحق وينادي به ، كأن الأصل هو المسايرة والمداراة ، وكأن الصراحة خلاف الاصل ، ويقولون : ماذا صنعت بنفسك ؟ ولماذا عرضتها للتهلكة ؟ وهو لا يبالي بهم ، ولا يرد عليهم ، وما كان لمن يقوم بمثل ما قام به أن يبالي بلوم اللائمين . ولم تمر ساعة حتى جاء الشرطة يدعونه لمقابلة الخديوي ، فقال الناس : قد ذهب ! وعدّوه مع الموتى .

وحُمل فأدخل على الخديوي فاذا هو وحده ، ليس معه أحد فقال له : أعد عليّ ما قلته ؟ فأعاد عليه . قال : وما الذي صنعناه ؟ قال : يا أفندينا ! أليس الزنا مباحاً ؟ أليس الربا مباحا ؟ أليس ؟ أليس ؟ ومضى يعدد المنكرات قال : وماذا نعمل وقد اقتبسنا مدنية أوربا وهذه عاداتها ؟ قال : فما ذنب العلماء ؟

- ٦ -

وكانوا زاهدين في الدنيا ، لا زهد المغفلين المجاذيب ، الذين يعيشون في الزوايا المظلمة مثل الخفافيش ، يفزعون من ضوء النهار ، بل الزهد الحقيقي ، زهد الصحابة والتابعين ، زهد من يعرف الدنيا ويسعى لها سعيها ، ولكن الدنيا لا تتملك لبه ولا يسكن حبها قلبه ، ومن يعمل للاصلاح ، ويشتغل للعلم ، ويكون له في نهضة أمته أبرز الأثر ،

ويكون أكبر همه رضا الله ، والنجاة في الآخرة ، لا رضا الناس ، ولا متع الدنيا . ومن زهد في الدنيا لم يعظم أهلها ، ولم يخضع لهم ؛ وجاهرهم بالحق ، وبيّن لهم حكم الله ، وقام فيهم مقام الدليل الهادي ، لا السائل الطامع . دخل اللورد كرومر جبار مصر وحاكمها يومئذ على الشيخ الأنبابي شيخ الجامع الازهر ، فلم يقم له الشيخ ، ورد عليه السلام ومد يده فصافحه وهو قاعد ، فاستعظم ذلك اللورد ، وقال له : ألست تقوم للخديوي ؟ قال : نعم . قال : فلم لم تقم لي ؟ قال : إن الخديوي هو ولي الامر منا ، واللورد ليس منا ، والله يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم .

وهذه هي عزة الايمان ، وهذه هي الوطنية الخالصة . وما كان من اللورد إلا ان أكبر فيه هذه الصراحة ، وصار يعظمه ويجله أكبر الاعظام والاجلال .

- ٧ -

وانظروا الى موقف الشيخ محمد عبده مع اللورد كرومر . زار الشيخ اللورد مرة ، فقابله (السكرتير) الناموس ، ولم يعرفه ، فقال له : ان اللورد غائب ، فترك بطاقته وعاد ، فلم يبتعد خطوات حتى أحس اللورد ، فبعث الناموس يدعوه ويعتذر اليه ، فقال الشيخ : في فرصة أخرى . ولم يعد .

- ٨ -

وأخبار الشيخ طاهر في زهده في الدنيا وانصرافه عنها ، أشهر من أن تذكر . من ذلك أنه لما قدم مصر ، واحتاج ، جعل يبيع من كتبه ، وكتبه أعز شيء عليه وكان قد أنفق في شرائها كل ما تملك يداه ، لاسيما المخطوط النادر منها . وكان يرضى ان يبيع الكتاب لدار الكتب المصرية بعشرين ولا يرضى أن يبيعه للمتحف البريطاني بمئة ،

ليبقى الكتاب في أيدي المسلمين ، حتى لم يكد يبقى عنده من الكتب إلا القليل .

فقال احمد تيمور باشا للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد (كما يروي خالي الاستاذ محب الدين الخطيب) :

ألا ترى يا أستاذ ان من الواجب على مصر أن تعرف لهذا العالم الجليل قدره فتستفيد من علمه وفضله في دار الكتب مثلا ، وهو اليوم أعلم الناس بالكتب الاسلامية وقد كان هو المؤسس للمكتبة الظاهرية في دمشق ؟

فوعده الشيخ علي بالسعي في ذلك . وكانت له منزلة معروفة في المعيّة الخديوية وفي وزارات الحكومة ، وكل وزير يتمنى أن تكون له يد عند الشيخ علي يوسف ليقابله بمثلها عند الحاجة .

ولكن الشيخ لما بلغه الامر اعتذر بأنه اعتاد المطالعة في الليل الى الفجر وليس من السهل تغيير عادته وهو في سن الشيخوخة .

فسعى له الشيخ علي فرتب له معاش من الخديوي ، وذهب تيمور باشا يبلغه ذلك ، فقال له الشيخ طاهر :

- كأني كنت معك لما كلمت الخديوي بشأني ، وقلت له ، أنك سمعتني أثني عليه لعنايته بالكتب العربية ، ولكن من الذي يضمن لك أني لا أقف منه عكس هذا الموقف اذا صدر منه ما يناقض ذلك العمل ؟ الاحسن يا أستاذ ألا تعرض نفسك لما قد يسودُّ به وجهك بسببي ، واني بحمد الله في سعة ولا حاجة بي الى الرواتب ولا الى الوظائف فأرجو ان تعمل لقطع هذا الراتب .

- ٩ -

وروى الأب انستاس الكرملي انه رأى عالم العراق الشيخ الالوسي

يلبس بعد الاحتلال حذاء من أحذية الجنـــد البريطاني وكانت تباع رخيصة ، فقال له :

ـ يا مولاي . أراك تلبس في رجلك مالم يرد أن يلبسه جنـــد الانكليز أنفسهم لضخامة هــذه الاحذية وشكلها القبيح ولصوتها المزعج عند المشي .

ـ قال الشيخ : اني أقنع بما تيسر .

ولم يزد على ذلك .

وكان قد وصل الى حالة من الفقر لا مزيد عليها . فلما عرف ذلك المعتمد الانكليزي برسي كوكس ، أهدى اليـــه ثلاثمئة ليرة ذهبية انكليزية ، وكلف الكرملي بتقديمها اليه ، فرفضها رفضاً قاطعاً ، وقال :

ـ خير لي أن أموت جوعاً من أن آخذ مالا لم أتعب في كسبه لا سيما وهو من عدو بلادي .

فألح عليه الحاحاً متواصلا ، فقال له :

لاتكثر من الحاحك لئلا أطردك من بيتي طرد من لاعودة له اليه .

فسعى له هو وجماعة من اصدقائه وتلاميذه ، حتى صـــدر الامر بتوليته قضاء بغداد .

فلما جاؤوه بالتولية ، قال :

ـ ان هذا المقام يستلزم علماً زاخراً ، وذمة لاغبار عليها ، ووقوفاً تاماً على الفقه ، وانا لا أجدني مستكملا هــذه الشروط ولا أصلح للقضاء . ورفض .

- ١٠ -

وحدث الاستاذ محمود زناتي ، وهو من تلاميـــذ الامام اللغوي الشيخ سيد المرصفي شارح الكامل انه دخل عليه يوماً وقـــد سكن

داراً باليـــة من حي قديم . فرآه قد جلس على حصير وسط الغرفة يكتب ويطالع وحوله الكتب ، ومن حول الحصـير خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يحيط به .

فسأله : ما هذا ؟

قال : هذا خندقي من هجوم البق !

وعلى هذا الحصير شرح الكامل ، هـذا الشرح العظيم الذي يفاخر به عصرنا العصور الخوالي .

- ١١ -

ولما قدم الشيخ سليمان النوري الازهر كان شيخه الشيخ ابراهيم الباجوري ، فسأله ان يوصي به مدير الدقهلية ، والمـدير في اصطلاح المصريين هو المحافظ عندنا ، فكتب له ورقة بمساحة اصبعين هذا نصها :

ولدنا مدير الدقهلية ، رافعه من طلبة العلم يجب اكرامه .

خادم العلم والفقراء

ابراهيم

فرفعت هذه الورقة عن الاسرة كلها ظلم تلك الايام ، وخلصتهم من السخرة والمعونة ، ورفعت من شأن الشيخ .

هكذا كانت منزلتهم عند الحكام .

وكان الخديوي عباس الاول يجيء الازهر ويحضر درس الشيخ الباجوري ، ولا يستطيع التربع على الارض لعلّة فيه ، فكان الشيخ يأمر بكرسي قش صغير فيجلب له من قهوة بلدية امام باب المزينين ، فيجلس عليه الخديوي بين الطلبة والمستمعين .

وكانت العادة في مصر أيام الاستقبالات الرسمية في الاعياد أن يقف

الخديوي فيمر بـــه المسلمون فيسلمون وهم وقوف وينصرفون ، إلا الامراء من اسرة الملك والعلماء فكان يقعد لهم وتقدم لهم القهوة ، وكان يجلس للعلمـاء كل يوم سبت من كل اسبوعين جلسة تسمى (التشريفة الصغرى) يكلمهم ويسمع منهم .

- ١٢ -

وكان الشيخ حسن الطويل استاذاً في دار العلوم ، فزار المدرسة يوماً رياض باشا ، وكان رئيس الوزراء ووزير المالية ، ومعـه وزير المعارف علي مبارك باشا ، فدخل غرفة الاساتذة ، فلمـا رآه الشيخ حسن قال له : يا باشا ، اما آن لكم ان تجعلوني معكم وزيراً ؟

فدهش رياض باشا ، وقال له :

- ما هذا يا شيخ حسن ؟

- قال : ما تسمع يا باشا ؟ قال : فأي وزارة تريد ؟

- قال : المالية ؟

- قال : لماذا ؟

- قال : لاستبيح أموالها

فغضب الرئيس وقطع الزيارة وخرج ، وقال لمبارك باشا :

- لا بد أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة فوراً .

قال علي مبارك باشا : وماذا أصنع مع علماء الارض وهو عالم عالمي ؟!

وجاء الشيخ حسن الطويل يوماً ليدخل على الخديوي ، فكلفوه ان ينزع عنه عباءته ، ويدعها في البهو ، فأبى وقال : أقف بها في صلاتي وأقابل بها ربي ، ولا أقابل بها الخديوي ؟

- ١٣ -

وأختم بقصة الشيخ سعيد الحلبي عالم الشام في عصره ، وقد كان

في درسه ماداً رجله فدخل عليه جبار الشام ابراهيم باشا ، ابن محمد علي صاحب مصر ، فلم يتحرك له ولم يقبض رجله ، ولم يبدل قعدته . وتألم الباشا ولكنه كتم ألمه ، وذهب فبعث اليه بصرّة فيها الف ليرة ذهبية .

فردها الشيخ ، وقال الرسول الذي جاءه بها :

- قل للباشا ان الذي يمد رجله لا يمد يده !

* * *

الطلاب والعطلة

اذيعت سنة ١٩٥٩

لم تكن في دمشق كلها في أيامنا إلا اربع مدارس ابتدائية فقط ، فكان اكثر التلاميذ في المدارس الاهلية فلم يكونوا يعرفون هذه العطلة الصيفية لأن هذه المدارس تفتح ابوابها في الصيف وفي الشتاء ، وكان تلاميذ المدارس الاميرية (إلا الاقل منهم) يقضون مدة الصيف في هذه المدارس فاذا كان آخر إيلول وفتحت مدارسهم عادوا اليها ، ولم يكن يعرف الدمشقيون قضاء الصيف في الجبال ، فكانوا يكتفون بالصبحية والمسوية في صدر الباز أو الميزان أو الربوة أو الشاذروان . ومن أراد الاستجمام أمضى أياماً في دمر أو الهامة ، ثم ابعدوا النجعة فصار مجمع الناس في الجديدة والاشرفية وبسيمة والفيجة ، تستأجر الاسرة داراً من دور الفلاحين أو غرفة من دار تقضي فيها ليالي القمر ، وان اطالت أمضت فيها شهراً ، فتبدلت الحال الآن ، فصارت المدارس الابتدائية الرسمية عشرات ، وازداد الاقبال على الاصطياف وصار كثير من الناس يقضي الصيف كله في الزبداني ومضايا وبلودان ، فصار من نتائج الاصطياف وانتشار المدارس الاميرية أن بقي التلاميذ مدة الصيف بلا مدرسة . وكان من نتائج ذلك ان نشأت مشكلة جديدة ، هي

مشكلة الأولاد ، ماذا تصنعون بهم في الصيف ؟

هل تنوون ان تحرموهم حقهم في اللعب والحركة والانطلاق وتكلفوهم ان يقعدوا طول النهار صامتين جامدين في هذه الطوابق المغلقة فتكون العطلة سجناً عليهم وهي ما وجدت إلا لتكون راحة لهم ومتعة لأنفسهم ؟

أم أنتم تنوون ان تطلقوهم على هواهم . تذهبون الى اشغالكم وتتركونهم في البيت للأم المسكينة يقفزون من حولها من الصباح الى المساء ، ويزوغون منها يوسخون ما نظفته ، ويفسدون ما أصلحته ويكسرون الآنية ، ويمزقون الستائر ، فتطلع روحها منهم أو تضيق بهم ، فتقذف بهم الى الشارع ، يجتمعون فيه بأولاد الجيران ، فينطون ويثبون ، ويصيحون ويزيطون ، ويتضاربون ويترامون بالحجارة ، فيزعجون المريض ، ويوقظون النائم ، ويضايقون العباد ، وتكون لهم الطرق مدارس شيطانية تعلمهم كل بذيء من القول ، وقبيح من الفعل ، ثم لايعودون الى الدار إلا بثياب وسخة وملابس ممزقة ، وربما عاد أحدهم الى بيته محمولا قد شج رأسه حجر أو كسرت رجله وقعة أو لطمته دراجة أو ضربته سيارة ، فلا يكون لعب الاولاد في الطريق إلا شراً عليهم وعلى الناس .

فما العمل ؟

أما الاولاد الذين يذهبون مع أهليهم الى المصايف فلا كلام لنا الآن فيهم ، وان كانت لنا عودة ان شاء الله الى الكلام عنهم ، بقي الذين لايصطاف أهلوهم ، وهؤلاء هم موضوع المشكلة ، لأن من يمضي الصيف كله في الجبال هم الاقل عدداً والكثرة من الناس تبقى في دمشق فماذا يصنع هؤلاء ؟

لقد كنت كتبت في جريدة الايام من اسابيع أعالج هـذا الامر من الجهة الجماعية وبينت مايصنع القوم في أميركا وفي غيرها من هـذا الباب ولست اعيد هنا ما قلته هناك[1] ، وانما أعالج الامر اليوم من الوجهة الفردية بعد أن عالجته أمس من الوجهة الجماعية .

ان علينا ان نجد للتلميذ في العطلة اعمالاً تقوم خلقه وتزيد ثقافته ، أو تقوي جسمه وتحسن صحته ، أو تدربه على مواجهة الحيـاة وتمكنه من اكتساب بعض المال .

وقبل ان افيض في الشرح أبيّن للسامعين ان العمل ليس عيباً ، وان من أبنـاء الموسرين الكبار في اميركا وغيرهـا من يعوده أهله اكتساب المال في الصيف من أي طريق حلال ، وان طلاب الجامعات يشتغلون في المطاعم بغسل الصحون ، ويعملون في بيع الجرائد ، ولا يرون في ذلك بأساً ، لا عن حاجة للمال ، فمن آبائهم من يملك الملايين حقاً ، بل لتعويدهم الكسب والاعتماد على النفس .

وانا لا أريد من كل اب ان يبعث بابنه ليشتغل بجلي الصحون أو بيع الجـرائد ، بل أريد ان يفكر الاب أولاً ، فان كان ولده مقصراً في درس من دروسه ، أو كان عليه اعادة الامتحان في مادة من المواد ، فأول مايجب عليه هو ان يراجع درسه ويستعد لامتحانه ، واذا حرم راحة العطلة فبذنبه ، ولو لم يسترح وقت الشغل لما اضطر ان يشتغل وقت الراحة ، ولعله يعتبر فلا يخدع بحلاوة الذنب بعد ماذاق مرارة العقوبة .

وإن كان الولد ناجحاً وليس عليه امتحان يعيده ولا درس يحضره كان على أبيه ان يعدّ له قبل كل شيء ، مجلساً من مجالس أهل العلم ، أو كتاباً من كتب الاخلاق والدين ، ليتعلم من مطالعـة الكتاب ومجالسة العالم كيف يكون مؤمناً يخاف الله ويرجو ثوابه ، ويحب

---

(١) مر ذلك في هذا الكتاب .

للناس ما يحب لنفسه ، ويبتعد عن الكذب والغش والعقوق وسائر المحرمات .

ثم يفتش له عن عمل يشغله ، فإن كان الأب مكفي المؤونة ، ميسور الحال ولم يكن يريد أن يعلم ابنه صناعة او يعوده التكسب ، علمه التردد على المكتبة العامة للمطالعة وسأله عما قرأ ومن صاحب ، واختار له باشرافه نادياً رياضياً موثوقاً بأهله والقائمين عليه فعوده الرياضة وصب فيه روحها .

ومن أراد لولده خيراً من ذلك علمه صناعة من الصناعات ، كصف الحروف في المطبعة أو الضرب على الآلة الكاتبة أو الميكانيك ، او وضعه عند خطاط او رسام يتعلم منه على ألا يشتغل بذلك نهاره كله بل نصف النهار فقط ، ويبقى النصف الآخر لراحته ، وإن كان الاب تاجراً صحبه معه الى دكانه ، فعلمه البيع والشراء وجعل له أجرة على عمله ، او اتخذ له بسطة فيها من السلع الصغيرة ما يشتغل هو ببيعه ويأخذ هو ربحه يتصرف فيه على ما يريده ، وان كان الاب زارعاً أخذه معه الى حقله ورغبه في حياة الزراعة وكلفه من الاعمال ما يطيق وجعل له عليه أجراً .

ولو أن المدرسة تصنع ما يصنع القوم في البلاد الاخرى فتسجل أسماء من يريد العمل وتعده هي لهم ، فتجد لهم بعض الاعمال المهنة ، وتدفع اليهم أجرها ، كأن تجعل من الاولاد الصغار فرقة لتوزيع الخبز صباحاً على بيوت الحي او توزيع الحليب او الجرائد على مشتركي الحي ، او تشغلهم بموافقة آبائهم في المتاجر او المعامل او المطاعم على أن تتخذ الاسباب الكافية لسلامة أخلاقهم وحفظ كرامتهم .

والتلميذات المحتاجات يستطعن ان يعملن في البيوت أعمالاً يكسبن منها مالا ،

من ذلك ان أكثر ربات البيوت تجد المشقة في اعداد الخضر للطبخ ، او يضيق عن ذلك وقتها ، ولو أن بعض التلميذات اتفقن على أن يجتمعن ساعتين كل يوم في بيت واحدة منهن فيعددن الخضر للطبخ ، كأن يأخذن الفاصوليا فيقطعنها وينزعن خيوطها ويغسلنها ويضعنها في أكياس من النايلون كل كيلو بكيس . ويقشرن البطاطا او الباذنجان ويحفرن الكوسا او يقطعنه ، ويأتي أولاد المدرسة فيوزعوا ذلك على البيوت ، يباع بزيادة خمسين او ستين في المئة ويتقاسم الاولادوالبنات الربح ، ويكن قد تعلمن شغل البيت .

وهذا أمر واحد خطر على بالي أسوقه على سبيل المثال . وهناك أمور كثيرة يمكن أن تعمل في الدار ويكون منها مكسب ويكون خدمة للناس ، كأن يؤخذ البن مثلاً فيحمص ويطحن ، وفي كل دار محمصة ومطحنة ، ويوضع في أكياس ، او تشتغل البنت بصنع زهور صناعية ، او أنواع من الحلويات والكاتو أي الفراني والبسكويت او اعداد المواد التي يصنع منها الزعتر ومزجها ووضعها في أكياس . او ترويب اللبن ووضعه في كؤوس . او اعداد انواع المربيات والمعقدات كمربى المشمش والكباد والنارنج والجانرك والخوخ والسفرجل والتين والجوز واليقطين والجزر ، او خياطة ألبسة بسيطة للاطفال ويتولى الاولاد توزيع ذلك .

وأنا أعلم ان هذا الكلام يبدو غريباً ، ولا يستطيع أكثر الآباء أن يقبله ، وأنا كذلك لا أستطيع أن أقبله اذا سمعته من غيري وهو يبدو غريباً عليّ وانا أقوله الآن ، لأن الاخلاق التي نشأنا عليها والتربية التي ربينا عليها تعد مثل هذا العمل عيباً لا يشتغل به إلا المحتاج ، وهو حين يشتغل به يستحي منه ويتمنى أن يستغني عنه مع أن الافرنج ولا سيما الاميركان لا يرون بذلك بأساً .

ونحن نقلدهم دائماً في كل شيء ضار ، فلماذا لا نقلدهم مرة واحدة في هذا الشيء النافع ؟

ان القصد ليس المال وحده بل الاشتغال في العطلة والتعود على العمل والتمرن على مواجهة الحياة والاعتماد على النفس .

وربما قال أحد الآباء : أنا أشغل ولدي أجيراً ؟ أعوذ بالله ، إنني أعطي ولدي ثلاث ليرات خرجية في اليوم فلماذا أكلفه أن يشتغل طول النهار ليحصل نصف ليرة ؟

وإني أقول لهذا الاب الغني ، ان روكفلر لم يكن يعطي ولده شيئاً إلا مقابل عمل ، وقد جعل له نصف بنس (أي أقل من نصف فرنك) مقابل كل ثغرة في سياج الحديقة يكشف حاجتها الى الاصلاح ، ثم جعل له عن كل ساعة يعملها في اصلاحها سبعة بنسات ونصف ، وروكفلر إن كنت لا تعلم يا أيها الأب الغني كان يدخل عليه كل دقيقة أكثر من مئتي ليرة ، وله أعمال خيرية هائلة منها مؤسسة الصحة التي تنفق كل سنة مايعادل ثمانية ملايين ليرة سورية ، فلم يكن بخيلاً ولا فقيراً وكان يستطيع أن يجعل خرجية ولده الف ليرة في اليوم ولا يحسّ بدفعها ، ولكنه ضيّق عليه فجعل منه رجلاً مثله ، وانت بتدليلك ولدك وبهذه التوسعة عليه تجعله مخنثاً ، لا يعرف للمال قيمة ، ولا يدري سبيل الاعتماد على النفس . ثم إن الليرة الواحدة التي يكسبها الولد بعمله يكون لها من القيمة ويكون له بها من اللذة ما لا تعدله قيمة مئة ليرة يأخذها من أبيه ولا لذتها ، وهذا شيء لا يعرف إلا بالتجربة .

وبعد ، فهل استطعت بهذا الحديث أن أجعلكم تفكرون في هذه المشكلة ، مشكلة العطلة الصيفية ، وهل وفقت الى اقناعكم بان تعويد أبنائكم على العمل ليس بعيب بل هو مكرمة وفضيلة ؟

إذا كان الجواب بالايجاب ، فأنا سعيد .

في الزّواج

أذيعت سنة ١٩٥٩

زارني من يومين شاب من اقربائنا ، يحمل شهادة عالية ويملك مرتبا كبيراً ، وهو صحيح الجسم ، حسن الخلق ، قد قارب الثلاثين من عمره ، ولا يزال عزبا ، فقلت له وانا احدثه .

لماذا لاتتزوج[1] .

قال : لاني وجدت كل المتزوجين من اخواننا يشكون الخلاف الزوجي ، ويقاسون آلامه ويتجرعون غصصه ، ويتمنون لو انهم ما كانوا قد تزوجوا . فعلمت ان الزواج في هذه الايام وجع رأس وتعب دماغ ، وانا لاأحب ان اشتري الاوجاع والمتاعب لنفسي ، وادفع في ثمنها مالي .

قلت : وهل العشرة من اخوانك الذين سألتهم هم الناس ؟ واذا كانوا هم في تعب وعناء كان المتزوجين كلهم كذلك ، وكان الزواج وجع رأس ، وتعب دماغ ؟ ولماذا سألتهم ولم تسألني انا ؟ اني اعرف منهم ، واذا كان الرجل الذي يحضر خمسة مجالس عائلية ليفصل فيها بين الزوجين المختلفين يعد نفسه خبيراً ، فانا قد حضرت في المحكمة اكثر من ثلاثين الف جلسة ، سمعت فيها من الزوج وسمعت من الزوجة ، وأنا فوق ذلك اشتغل بالتحليل النفسي ، والدرس الاجتماعي ، واذا انا يوما احلت

(١) اذا اكثرت الكلام عن الزواج ، فذلك لأن تشجيع الزواج اساس الاصلاح في الاخلاق والعادات

على التقاعد ولم اشتغل بالمحاماة ، ولا بالكتابة والتأليف ، فاني افتح مكتباً للدراسات العائلية ، اقوم فيه بحل المشاكل الزوجية فانا خبير في الموضوع ، فاسألني .

قال : الا ترى ان اكثر المتزوجين في خلاف مستمر ؟

قلت : احب اولا ان احدد معنى الخلاف ، فاذا كنت تريد ، وكان اخوانك الذين سألتهم يريدون ، حياة زوجية خالية من كل اختلاف في الرأي بين الزوجين ، وان يكون العمر كله شهراً من شهور العسل ، وجلسة واحدة من جلسات روميو وجوليت ، او قيس وليلى ، فهذا لايكون ، وماذا في مجالس الحب الا هذا الكلام الفارغ تقول له (أحبكَ) ، ويقول لها : (أحبكِ) ، ويعيدان هذه الكلمة حتى لايبقى لها معني ، ثم يملان ويسكتان ، فهل يمكن ان تكون الحياة كلها أحبكَ وأحبكِ ، كما يتوهم الفتيان الصغار ؟ ولو ان قيساً تزوج ليلى واقتصر على حديث الحب ، لوقع الخلاف بينهما من أول الشهر الثاني ، ولسمع الجيران خصامها في الشهر الثالث ، ولا قيمت دعوى التفريق في المحكمة الشرعية قبل نهاية السنة .

فلا يمكن ان يكون في الدنيا زوج وزوجة يعيشان هذه الحياة الخيالية العاطفية ، التي لاتكون الا في القصص . وكل زوجين يختلفان احيانا . ولا يخلو بيت في العالم من هذا الاختلاف ، حتى الرسول ﷺ لم يخل بيته مما يكون بين النساء ، ، وهذا هو القرآن فاقرؤوا (سورة التحريم) . والصحابة كانوا يختلفون هم ونساؤهم ، ولقد جاء رجل يشكو زوجته الى عمر ، فلما قرع الباب سمع زوجة عمر ترفع صوتها عليه وهو ساكت ، وهو عمر العظيم الذي كانت تخافه صناديد الرجال ، فولى الرجل منصرفاً فخرج عمر يناديه ، فرجع ، قال له عمر : مالك ؟ قال : ياامير المؤمنين جئت اشكو اليك سوء خلق زوجتي ، وانها تتجرأ

عليّ ، فوجدتك مثلي . فضحك عمر ، وقال : أحتملها لحقوق لها عليّ .

والله عز وجل لم يخلق اثنين على صورة واحدة حتى التوأمين اذا وقفا معا وجدت بينهما فروقاً دقيقة . ولم يخلق كذلك اثنين بطباع واحدة واذا اراد الزوجان والشريكان والرفيقان ألا يختلفا فلا بد لاحدهما ان يساير الآخر ، وان يخالف رأي نفسه ، ليتبع رأيه . واذا وقف كل عند رأيه لايمكن ان يتفقا ، واذا كنت انت على الرصيف الايمن من الشارع ، ورفيقك على الرصيف الايسر ، واردت ان تصافحه لم تستطع ولا بد ان يمشي احدكما الى الآخر او تمشيا معاً حتى تلتقيا في منتصف الطريق .

وكل شركة لابد لها من رئيس والرجل هو بلا شك رئيس الشركة الزوجية ، فيجب ان يكون رأيه هو المقدم ، بشرط الا يتدخل في الصغيرة والكبيرة ، ويدس انفه في الكنس والطبخ وترتيب الدار ، فان هذا من حق المرأة فهي (وزيرة الداخلية) وله هو الاشراف العام كإشراف رئيس الوزراء ، فاذا كانت المرأة مثلا وسخة لاتبالي بتنظيف الدار ، او تسيء اعداد الطعام نبهها ، واذا كانت مصابة بجنون النظافة تنسى نفسها بلا طعام ، وتنسى حق زوجها وحق ولدها ، لتمسح البلاط وتنظف الدار ، فلا تراها إلا راكضة من هنا الى هناك رأسها يسبق رجليها ، كان عليه ان ينبهها ، وان أكثر الرجال لايهمهم الامعان في النظافة ، ولا لمعان البلاط ولا ترتيب المقاعد ، بل يهمهم ان يجدوا شريكة لحياتهم ، توافقهم وتذهب مذاهبهم ، وتكون على رأيهم ، ومن النساء من يزيد معها هذا المرض (مرض النظافة) حتى تترك غرف الدار المفروشة للشياطين لايستعملها أحد وتقعد في زاوية ، وتلزم زوجها ان يقعد فيها ، فاذا قعد على المقعد المريح صرخت به :

قم لقد أفسدته اما رأيتني أشتغل به من الصباح ؟ وربمـــا نامت على (الطراحة) لتبقي السرير مرتباً ، مع انه لا يدخل أحـد ليراه ولا يوضع في معرض .

والمرأة العـاقلة هي التي تنظر ماالذي يرضي زوجها فتفعله ، وعلى الرجل كذلك ان يبتغي مسرتها ورضاها ، وألا يغتر بهذه السلطة ، ويحسب انه صار كسرى انو شروان ، فـلا يعرف إلا الأمر والنهي والا يكون ظرفـه ولطفه للناس فقط . فإن في الناس من يكون خيره للغرباء وشره للأهل .

ولقـــد كان في دمشق رجل معروف بطرافته النادرة ، وسرعة البادرة ، يحفظ من النكات العجيبة والوقائع الغريبة مايضحك الثكلى ، التي فقدت وحيدها ، يتسابق الناس الى دعوته والاجتماع به ، ويرونه زينة المجالس ، ان حضر مجلساً لم يتـكلم غيره ، ولم يتكلم بكلمة إلا ضحك لها الحاضرون من قرارات قلوبهم .

وهو مع ذلك ، أثقل الناس على اهله ، لايكاد يبتسم في بيته ولا يكاد يكلم احداً . اذا دخل الدار دخلت الكـآبة وحل الوجوم ، لأنه لاينطق ولايدع احداً من اهله ينطق في حضوره .

وأعرف رجلًا ما يذهب في رحلة او نزهة إلا تولى هو بنفسه خدمة اخوانه ، كلهم ، ان كانوا في مخيم اشترى لهم اللحم والخضر وأوقـد النار وطبخ لهم ، ووزع عليهـم ، وان كانوا في مجلس تولى هو صنع الشاي ، وخدم بنفسه ، وان احتاج واحد من اصدقائه ، او من معارف اصدقائه ، الى شيء قام به عنه .

وهو مع ذلك اكسل الناس في بيته ، وأشدهم تحكماً على اهله ، وتكليفاً لهم ، لايقوم ليملأ لنفسه كاس ماء ولا يسحب لنفسـه كرسياً

ولا يتناول رداء من الخزانة إلا ان تكون زوجته او بنته قائمة بين يديه تملأ له الكأس وتعد له الكرسي وتناوله الرداء .

وأعرف رجلا ليس في الناس اكرم منه على اخوانه ، يواليهم الهدايا الثمينة ، ويمنحهم المنح ، ولا يمسك عنهم مالاً ، ولا ينفرد دونهم بشيء وهو في بيته ابخل البخلاء يضن على أهله بالقليل ، ويحرمهم مالا بد منه من الضروريات .

وأعرف نساء ان كن في استقبال او كنّ بين أيدي الضيوف لاتبدو من احداهن كلمة نابية ، ولا تسمع منها لهجة حادة ، ولاتمحي عن وجهها الابتسامة العذبة ، وكلما رأت منهن من قبيح تغاضت عنه واحتملته ، حتى يقلن : « ماشاء الله ماأشد تهذيبها وأكرم خلقها وأحلى حديثها » وان كانت مع زوجها لم تلقه الا بالتقطيب والعبوس وبوجه مقلوب كأنه وجه عجوز أكلت ليمونة بقشرها .

ثم ان اكثر النساء إذا خرجن لزيارة أو جولة ، او تهيأن لمقابلة قريبة او صديقة ، استعدت احداهن استعداد عروس لعرسها ، فتزينت وتنظفت ، ولبست اجمل اثوابها ، وتطيبت بأعطر طيوبها ، فـاذا لم يكن الا زوجها خرجت عليه من المطبخ منفوشة الشعر ، كالحة الوجه تسبقها رائحة السمن والزيت والبصل والثوم .

مع ان حق الزوج عـلى زوجته اكبر من حق الغريب . والعقل والدين يوجبان عليها ان تتزين (ان تزينت) له هو لا للناس ، وان تلقاه باحسن احوالها ، وتكلمه باحلى لهجاتها ، وان تدخر له ابتسامتها ولطفها وايناسها . والعقل والنطق يوجبان عليه هو (ان تكرم) ان يكون كرمه لاهله لا للنـاس ، وان عمـل ان يعمل لهم ، وان يخدمهم لا أن يدعهم ويخدم الناس ، وان كان خفيف الروح ، حاضر النكتة ، سريع البادرة بالخير ، ان يكون لأهله الحظ الاوفى ، من

خفته ، ونكتته ، لأن يخص بذلك الناس وحدهم .

فكيف انقلبت الحال ، فصار القريب هو المستحق للشرور كلها ، وصار الغريب هو الذي ينال المحاسن كلها ؟

أنا أعرف السبب أيها السامعون والسامعات .

السبب هو الافراط في رفع الكلفة ، وأنا أعرف ان الالفة تزيل الكلفة ، وان من العجيب المضحك بلا شك ان يتعامل الزوجان بالرسميات بالـ (بروتوكول) الذي يكون في وزارة الخارجية ، وان تكون حياتهما كلها على (الاتيكيت) . ولست أقصد هذا ، ولكن أقصد أن رفع الكلفة بالمرة ، يؤدي الى أن يعرض كل واحد على الآخر ما لديه من عيوب ونقائص ، لا يحاول إخفاء شيء منها. مع لكل إنسان أشياء لا يحسن أن يظهرها حتى لأقرب الناس اليه ، وزيادة القرب حجاب (كما يقول العرب) . قرب وجهك من رفيقك حتى لا يبقي بينك وبينه إلا شعرة فانه لا يراك وإنما يرى مكان الأنف جبلا قائماً في مقدمته مغارتان . وارسم خطين مستقيمين ، واجعلهما متعرجين وباعدهما تُرهما متوازيين ، فاذا قربتهما حتى التصقا بدت الفجوات بينهما ، وكذلك الناس ، كان لي صديق استمرت صداقتي إياه ثلاثين سنة وأنا لا أرى منه إلا خيراً ، وأجده موافقي في كل شيء . ثم سافرنا واضطررت ان أبيت معه في غرفة واحدة فرأيت منه في حالات أكله وشربه ونومه ووضوئه ما أيقنت معه أن بيننا من الاختلاف أكثر مما بين الليل والنهار .

بهذا وبمثله ، يسعد المتزوجون ، ويرغبون الشباب العزاب بالزواج .

حديث العيد

أرأيتم الجيش يوم العرض ؟ حيث يمر الجنود متتابعين متشابهين ، مشيتهم واحدة ، ولبستهم واحدة ، لايمتاز فرد منهم عن فرد ، ثم يأتي ضابط أو رئيس ، يختال في مشيته ، ويزهى بأوسمته ، فينتبه الناس اليه ، وتنصب الانظار عليه ؟

كذلك الايام يا أخوان

انها تمر متتابعة متشابهة ، لايكاد يختلف يوم منها عن يوم ، ثم يأتي العيد فتراه يوماً ليس كالأيام ، وترى نهاره اجمل ، وتحس المتعة به أطول وتبصر شمسه أضوأ ، وتجد ليله اهنأ ، وما اختلفت في الحقيقة الايام في ذاتها ، ولكن اختلف نظرنا اليها ، نسينا في العيد متاعبنا فاسترحنا ، وأبعدنا عنا آلامنا فهنئنا ، وابتسمنا للناس وللحياة فابتسمت لنا الحياة والناس ، وقلنا لمن نلقى اطيب القول : كل عام وانتم بخير ، فقال لنا أطيب القول : كل عام وانتم بخير .

كنا كالمسافر يجتاز بالدنيا مسرعاً ، فيبصر الدور والمساكن ، وكل ماعلى الطريق يجتاز به مسرعاً ، فلما تمهلنا تمهلت لنا الدنيا ، فرأينا جمالها ، واستمتعنا بحسنها . وما الحياة إلا سفر ، وما نحن إلا ركب الحياة ، ولكننا نغمض عيوننا عن جمال الروض ، وبهاء الينبوع ، وفتنة الوادي ، ولا ننظر إلا الى الغاية .. والغاية المال ، المال ، فنحن ابداً نركض وراء المال ، نفيق فنسرع الى الديوان أو الى السوق نفتش عن المال ، أما النفس فلا نخلو بها ، أما الطبيعة فلا ننظر اليها ،

ثم إنا نقطع أجمل مراحل الطريق ، وهي مرحلة السحر من كل يوم ونحن نيام . ويوم العيد ، هو اليوم الذي ننسى فيه المال ساعات معدودات لنفتش عن الجمال ، فلذلك كان هذا اليوم عيداً ، ولو فعلنا ذلك كل يوم لكانت أيامنا كلها أعياداً .

والاعياد اما أن تكون أعياداً للدين ، لذكريات دينية ، تتصل بالعقيدة ، وتنبثق عن الايمان ، وتكون ذكراً وعبادة ، يتوجه فيها الناس الى ربهم ، ويقيمون شعائرهم في معابدهم ، ويتبعون فيها أوضاعاً واحوالا ، أمرهم بها دينهم ، أو حسبوا أنه أمرهم بها ، واكثر اعياد الناس أو كلها ، انما كانت من الاعياد الدينية ، سواء في ذلك الامة التي تدين الدين الحق ، والامم التي تدين أديان الباطل .

واما ان تكون أعياداً وطنية ، ذكريات أحداث جسام كان لها في حياة الامة اثر ، او معارك مظفرة ، او اعمال لهذه الامة باهرة ، كأعياد الاستقلال ، وأعياد اقامة الدول .

وأعياد للفن والرياضة يحتشد لها الناس ، ويتبارى فيها ارباب الألسن والفصاحة واصحاب القوة والبراعة . وربما صحب ذلك بيع وشراء وربح وتجارة ، كأعياد الاولمبياد عند اليونان ، وسوق عكاظ عند العرب .

وأعياد رجال عظام يجتمع الناس لاحياء ذكراهم ، وتلاوة سيرهم ، والحج الى بقاياهم وآثارهم ، ولكل أمة من ذلك ايام غُرٌ مشهَّرات .

وأعياد هي مواسم للطبيعة ، كأعياد الربيع في كل بلاد الغرب ، حيث تلبس المدن حلة من الورد وتعرض فيها مواكب الزهر ، قد جمعت في هذه المواكب زهرات الحقول ، وزهرات البيوت والقصور ، وربما فرشوا الشارع كله ببساط من الفل والزنبق والياسمين والنسرين ، مُزخرف منقوش ، ومن ذلك يوم النيروز أيام بني العباس ، وعيد شم

النسيم في مصر ، وقد كانت بلدان الشام تعنى في القرن الماضي بمثل هذا العيد ، فتبتغي فيه المتع المباحات والمسرات ، من غير أن تكشف العورات ، ولا أن تأتي المحرمات .

واعياد للهو واللعب ، كأيام المساخر (الكرنفال) .

والافرنج يمزجون هذه الاعياد كلها مزيجاً عجيباً ، فلا يخلو عيد الدين كيوم مولد المسيح عليه السلام من أن يبدأ بالكنيسة ، وينتهي في الملهى ، ولا يخلو عيد الوطن من مظاهر الدين ، وكل شيء عندهم يدخل فيه الدين ، حفلات تتويج ملكة الانكليز تكون في الكنيسة ، وتتم عن يد الاسقف الاكبر ، وحفلة الربيع يباركها الخوري ، وكل شيء لابد له من هذه البركة ، حتى انزال السفينة الجديدة الى البحر ، أو حفلة توزيع الشهادات في اوكسفورد .

هذه هي اعياد الناس ، فما هو مكان عيدنا من هذه الاعياد ؟

ان لنا في الاسلام عيدين ، لاثالث لهما ، وان لم يكن ما يمنع من الاحتفال بذكريات الهدى والمجد بيوم المولد مثلا ، احتفالا يخلو من البدع والمحرمات ، ومن تلاوة هذه الاكاذيب التي اشتملت عليها الموالد ، وبيوم الهجرة وبيوم بدر ، على أن لاتعد اعياداً دينية ، لان الدين لم يشرع لنا إلا هذين العيدين ، عيد الفطر ، وعيد الاضحى ، هذا احتفال بنزول القرآن واكمال الصيام ، وذاك احتفاء بانهاء الحج ، واتمام الدين .

واعيادنا لله اولا ، لانها اعياد عبادة وتبتل ، وتوجه الى الله بالشكر والحمد ، والطلب والرجاء .

وهي للوطن ، (ووطن المسلم كل أرض تعلو فيها كلمة الله ، وتحكم شريعته) لانها ذكرى أعظم حادث في تاريخ البشرية كلها : نزول القرآن في ليلة القدر من رمضان ، وتمامه في حجة الوداع من ذي الحجة ،

وإذا كانت الامم تحتفل بيوم الدستور ، وتجعله عيداً ، فان يوم الدستور الآلهي ، الذي أنشأ حضارة تفيأت ظلالها الامم كلها ، حقيق ان يكون عيداً انسانياً ، يحتفل به كل من استفاد من حضارة القرآن .

وهي من اعياد الرجال ، لانها ذكرى اعظم رجل مست قدمه ظهر هذه الكرة : محمد ﷺ .

محمد الذي جاء بالصيام ليعلم الاغنياء بهذا الجوع الاختياري ، ان في الدنيا من يجوع جوعاً اضطرارياً ، ولولا هذا الصيام ما كان يتصور الاغنياء كيف يكون الجوع ، والذي قرر المساواة في رمضان حتى صار الغني الذي يملك الملايين يشتهي كسرة الخبز وقطرة الماء ، كما يشتهيها الفقير المسكين .

والذي قرر المساواة مرة ثانية ، حين جعل من له من كنوز الاموال ، يقف مع السائل الذي لايجد عشاء ليلة ، وهو يلبس لباساً مثل لباسه ، ويقف من عرفه موقفاً مثل موقفه ، وينام على الارض في المزدلفة مثل منامه ، ويرمي الجمار في منى وسط الزحمة مثل رميه ، وهنالك في هذا الموقف الاكبر ، الذي لاتعرف البشرية في كل عصورها نظيراً له ، وقف محمد ﷺ يقرر الحرية الشخصية ، وحرية الرأي ، وحرية المسكن ، ويعلن المساواة بين الناس ، فلا امتياز لجنس على جنس ، ولا لون على لون ، ولا اسرة على اسرة ، كما يمتاز الناس في اميركا (الهمجية) في قرن العشرين ، وفي جنوب افريقية ، وانما يتفاضلون بالمزايا الشخصية : بالايمان والعلم والتقى والاخلاق .

لقد قرر ذلك في خطبته التاريخية الخالدة ، في حجة الوداع ، قبل أن تعلمنه انكلترا ، وقبل الثورة الفرنسية ، وقبل مبادىء نلسون ، وقبل ميثاق الاطلنطي الذي كتبوه على الماء - باكثر من الف سنة !

أعلنه اعلانا حقيقيا ، تؤيده وقائع الحيـــاة الاسلامية ، واوضاع المجتمع الاسلامي ، لا الاعلان الغربي الذي تكذبه شواهد الواقع ، ومظاهر الحياة في ديار الغرب !

وهي اعياد بطولة ورياضة ، وما الحياة الرياضية إلا حياة الصبر والاحتمال والا يزدهي صاحبها النصرُ ، ولاتهدّه الهزيمة ، وان يستشعر الاخوة الاخوة الرياضية لشركائه في هذا الكفاح ، وكل ذلك يتحقق على أتمه وأكمله ، في صيام رمضان ، وفي شعائر الحج .

وهي أعياد فرحة ومسرة ، ولهو شريف ، ومتاع حلال ، والاسلام ليس دين تزمت ، ولايحارب طبيعة النفوس التي طبع الله الناس عليها ، ولا ينافي الفطرة ، ولكنه يمنع المحرمات فقط ، فكل لهو لامحرم فيه ، مطلوب شرعاً ان كان باعتدال وقصد ، والى الحد الذي يقوي النفس على الخير ، وينشطها للقيام بما يجب .

* * *

بقيت عليّ "كلمة" واحدة هي ان حكمة رمضان ، لاتتم في عيد الفطر إلا اذا شاركتم الفقراء في الاكل والشرب ، كما شاركتموهم في الجوع والعطش ، وكنتم معهم في لذة الوجدان كما كنتم معهم في لوعة الحرمان ، وان لاتملؤوا ايدي اولادكم باللعب والسكاكر ، وفي ابناء جيرانكم ، اولاد مثلهم ، ينظرون اليهم ، وايديهم خالية ، وان تعلموا ان مما رميتموه (زهداً به) من ثياب اولادكم مايكون ثوب العيد ، وفرحة العمر ، لهؤلاء الاولاد ، وان كل غني يجد من هو اغنى منه ، وكل فقير يلقى من هو افقر منه ، والمسائل نسبية ، والعصفور نملة ان قيس بالفيل ، ولكنه فيل ان قيس بالنملة ، فاعط من هو افقر منك عشر ليرات ، هي عنده مئة ليرة وعندك ليرة ، يبعث الك من يعطيك

خمسة الاف وهي لك خمسون الفاً ، وهي عنده عشر ليرات ، واذا فرّحت اخاك بعطيتك ، فرّحك الله بعطية من عنده لاتحتسبها ولاترقبها وثواب الآخرة أكبر . فاختاروا ، يا أيها القراء ، بما يفضل من ثيابكم وما يزيد من اللعب والسكاكر والحلويات عن اولادكم ، فارسلوه الى الى أولاد الجيران الفقراء ، دعوهم يعيشوا يوماً واحداً من السنة ، كما تعيشون انتم كل يوم ، ولاتعطوا اعطاء الكبر والترفع ، اعطاء الصدقة، بل اعطاء الصداقة ، ورب بسمة في وجه السائل ، او شَدَّة على يده أحب اليه من المال الذي تضعه في كفه ، لان المال يحيي جسده وحده والمال مع الابتسامة يحيي جسده وروحه

وحينما تخرجون من بيوتكم ، فتجدون هؤلاء الاطفال الصغار ، الذين كسوتموهم واعطيتموهم الحلويات واللعب ، ينظرون اليكم بعيون تبرق بالشكر والحب ، ويبسمون لكم بافواه تشرق بالسعادة والفرح ، وتسمعون امهاتهم يدعون لكم بطول العمر ، ولاولادكم بكمال النعم ، حينئذ تعلمون ان اعظم لذة في الدنيا هي لذة الاحسان .

أليس هذا خيراً من أن تجدوا في عيونهم نظرات الحسد ، وعلى ألسنتهم دعوات الموت والخراب ؟

وهنيئاً لكم بعدُ ، قبول صيامكم ، وهنيئاً لكم افراح عيدكم ، وكل عام وانتم بخير .

مجنون

نشرت سنة ١٩٥٩

قال لي صديق في مصر يوماً :

هل لك في زيارة مجنون ؟

قلت : وهل فرغنا من زيارة العقلاء حتى نزور المجانين .

قال : انه مجنون عاقل .

فضحكت وقلت :

ـ هذا قياس فاسد لانه ان صح ان يكون هذا المجنون عاقلا ، تكون انت ايها العاقل مجنوناً .

قال : دعك من هذه الفلسفة ، واذهب معي ، تر رجلا يندر ان ترى مثله في الرجال .

قلت : ماصفته ، ماشأنه ؟

قال : كهل يعيش هو وزوجه العاقر ، كان موظفاً فهبط عليه الغنى فجأة ، مات قريب له موسر ، واورثه ماله كله ، فاعتزل العمل وعاش متبطلاً .

قلت : ان الغنى سبب واضح للجنون ، ولكن ماجنونه ؟ هل يضرب ؟ هل يخنق ؟ هل يخوض في حديث طويل مع سائق الاتوبيس فيعرض اربعين روحاً للخطر ؟ هل يعتقد ان مايكتبه السباعي وعبدالقدوس ادب رفيع ؟ هل يطرب لأغاني الاطرش وحافظ؟ هل يضع أولاده في المدارس الأجنبية ؟ هل يؤمن بديمقراطية اميركا التي تشنق الزنجي ان قبل امرأة بيضاء قد تكون من البغايا ؟

قال : انه على الطريق ، لم يصل بعد الى هذه الدركة من الجنون.

ومشيت معه فاخذني الى عمارة ضخمة في حي الاكابر (جاردن سيتي) فيها مصعد وتدفئة عامة وهواء معدل وأدخلني بيتاً فيها ، فخماً مفروشاً فرشاً افرنجياً ، ما اظن اني رأيت آنق منه ولا احكم وضعاً ولا احسن ترتيباً . ووجدت الرجل حليق الوجه ، غربي اللباس ، يدخن السيكار ويرطن بالفرنسية ، ووجدته حلو الحديث ، سريع البادرة ، حاضر النكتة وقضينا معه ساعة استمتعنا فيها حقاً .

فلما خرجنا قلت لصاحبي :

- اين جنونه ؟

قال : ستراه بعد شهرين :

وعاد بعد شهرين وقد نسيت القصة كلها فقال لي :

- هلم لزيارة المجنون

ومشى بي في غير الطريق الذي سرنا فيـــه اول مرة . ومازال ينتقل بي من الترام الى السيارة ، ويسلك بي من حارة الى حارة ، حتى صرنا عند الجبل ، فأدخلني ازقة ضيقة ومسالك معوجة ، حتى وقفني على دار قديمة طرق بابها ففتح ، واذا الرجل ذاته ولكنه في ازار عربي وعباءة رقيقة ، وله لحية خفيفة لم تكن له من قبل ورأيت داراً شرقية قديمة مزخرفة الجدران خالية من الكهرباء فيها المصابيح المدلاة والسُرُج المحلاة وحمالات الشموع . ووجدت فرشاً عربياً غير الفرش الاول ، البُسُط والنمارق والوسائد والمتكآت ، وليس في الدار كلهـــا كرسي واحد ولانضد ، ووجدت الرجل هو الرجل ، ولكن مكان السيكار النارجيلة ، وبدل الرطانة بالفرنسية الحديث باللهجة البلدية ، وسَوْق أعرق الامثال في العامية ، وكانت جلسة ساعة .. فلما خرجنا قلت لصاحبي :

ما هذا ؟

ـ قال هذا جنونه انه لايطالع ولا يعمل ويخاف الملل ، فهو يتنقل هذا التنقل المفاجيء ليشعره بلذة التغير ومتعة التجدد ، وينفق على هذا جل ماله ، فهو ينتقل في البلدان . يعيش في القاهرة حينا وفي الاسكندرية حينـــا وتارة في اوربا وتارة في الريف . وينتقل في الحالات فهو يوماً شرقي ويوماً غربي ، وآنا يعيش عيش الفلاحـين يلبس لباسهم ويأكل طعامهم ويأوي الى مساكنهم ، وآنا يحيا حياة لورد من لوردات الانكليز ولايفتأ يبدل ترتيب الغرف ونوع الاثاث وطريقة الفراش ، فان كان السرير في غرفة النوم على اليمين جعله بعد ايام على الشمال ، وان كانت مائدة الطعام بالطول اقامها بالعرض ، فان مل الجديد عاد الى القديم .

قلت : هذا والله من كبار العقلاء . ان العادة كما يقول علماء النفس تضعف الحس وتبطل الشعور ، ان الموسر الذي يركب الكاديلاك كل يوم ، وينام على السرير الفخم ، ويأكل على المائدة الحافلة ، لايحس لذلك كله بعشر اللذة التي يحس بها الفقير اذا جربه مرة ، بل ان الغني ليمل الترف ويشتهي لونا آخر من الوان الحياة ، خبرني الشيخ عبـد الله ابو الشامات ان احمد باشا الشمعة الذي كان وجه دمشق في ايامه ، جاءه مرة واشتهى عليه اكلة فول مدمس مع البصل على ارض الحديقة ، وانت تعرف مائدة احمد باشا الشمعة . بل تعال قل لي انت أما مللت وضع غرفة الاستقبال في بيتك وغرفة النوم ؟ اما تشعر بلذة اذا بدلت غرفة بغرفة ، وانزلت هذه اللوحة التي علقتها منـذ زواجك من قبل ثلاثين سنة ، وجئت بغيرها ؟ انها قد تكون لوحة فنية جميلة ولكن ثق انه لم يبق من يشعر بجمالها لا انت ولا ضيوفك الذين شبعوا منها وعافوها . اما تحس بحياة جديدة اذا تركت هذه الدار التي تسكنها وانتقلت

الى حي جديـــد تشغل نفسك مدة بدراسة احواله ومعرفة اهـله وكشف اسراره وخفاياه .

ان التبديل والتجديد حياة ، والجمود والركود موت . وان علة الحياة الزوجية خاصة هي الاستمرار ، وفقد الجديد ، وانا ارى ان يأخـــذ الرجل الموسر اهله واولاده ليلة اوليلتين الى الفندق يبيتون فيه اذا لم يستطع السفر بهم الى بلد آخر ، ليجد في التجدد ماينبعث في نفسه وفي انفسهم الشعور بالحياة ، وليكون من ذلك مادة للحديث والتذكر .

المهم هو التبديل ، وإلا فلماذا نصطاف في الجبال؟ ما الاصطيـاف ؟ اذا كان فعل ذلك الرجل في تبديل المساكن جنوناً فكل واحد منا يجن مرة في السنة حين يذهب الى الجبـال ليصطاف فيها . ان له من وسائل الراحة في بيته وفي بلده، مالا يجد مثله في المصيف ، ولكنه حب التبديل .

والموظف في الزبداني ينتظر يوم العطلة لينزل الى دمشق ، ونحن في دمشق نرقب يوم العطلة لنذهب الى الزبداني ، هو يجد المتعة في دمشق ونحن نجد المتعة في الزبداني ، وما اختلفت النفوس ولكنه حب التبديل ، والكشافة الذين يتركون القطار المريـح والسيارة السريعة ، ويحملون احمالهم ، ويصعدون الجبـــال ، ويؤمون المدن والقرى ، يدعون البيوت وينـامون في الخيام ، ويهجرون الاسرّة ويهجعون على الارض ، انمـــا يريدون التبديل .

بل ان الحج نفسه انما هو لون من ألوان التبديل في نمـط المعيشة انه معسكر كشفي تدريبي لابد فيــه من تحمل المشاق ، والصبر على المتاعب ، ولو كانت حجة يمكن أن تخلو من تعب لـكانت حجتنـا التي حججناها سنة ١٩٥٤ . كنا ضيوف الحكومة ، النزول في فنـدق بنك مصر الفخم ، والسيارة على الباب ، وكل شيء ميسر ، وقاسينا مع ذلك من

مشاق الزحام في الطواف والسعي والرمي ، والسهر ليلة منى ، والامتناع عما يحرم على المحرم ، مالاننساه . كأن تلك المشاق من مقاصد الشريعة في الحج ليكون معسكراً تدريبياً إلزامياً .

وان من اسباب التوفيق في الزواج ، ان يبتكر فيه الزوجان اسلوباً للتجديد ودفع الحياة النَمَطية المتشابهة . اعرف رجلاً من ارباب النكتة كان يعد لزوجته كل يوم مفاجأة فهو يتصيد الاخبار ليقصها عليها ، ويخترع من النكات العملية انواعاً عجيبة تكون في أولها جداً كالجد ، ثم تكون مادة للضحك منها والحديث عنها شهراً .

جاء هذا الرجل يوماً فوجد زوجه منفردة في الدار تشكو الملل وكانت امرأة عامية فأحب أن يشغلها بشيء فجعل يلوي وجهه ويظهر الألم فارتاعت وسألته :

مالك ؟.

قال : لاشيء .. لاتهتمي .

قالت : مالك ؟ قل لي مم تتألم ؟.

قال : لاأدري رجلي كلها ، أحس كأن النار تمشي فيها .

وجعل يفتش ويتحسس رجله كأنه يفتش عن موضع الالم حتى اهتدى اليه فقال : هاهو ذا انه هنا في خنصر رجلي ، انها علة مخيفة قرأت عنها . ان خنصر رجلي مغموس في اللحم .

ولم تنتبه المسكينة من خوفها عليه الى ان كل خنصر مغموس في اللحم ، وانطلقت الى الهاتف لتدعو الطبيب .

فقال : لا ، لا ، فتشي في الدليل عن طبيب مختص بمرض الخناصر وامضى في ذلك نصف ساعة . ثم ضحك فعرفت النكتة وصارت لها مناراً للضحك ومادة تحدث بها جاراتها .

وأنا لاأطلب من كل زوج أن يمثل مثل هذه الرواية السخيفة بل اريد من الازواج ان يعلموا ان من أكبر اسباب الشقاق بين الزوجين هذه الحياة الراكدة التي تمر ايامها متشابهة متماثلة ، كل يوم مثل أمسه وشبه غده ، وكل شيء فيها ازلي لايتبدل ، توزيـع الغرف . ووضع الاثاث والوان الطعام ، واسلوب الأكل .

وما أدري ماالذي يمنع ان نأخذ الحكمة من هذا المجنون ، فنعمد أبداً الى التغيير والتبديل الذي تحتمله أموالنا ، ولاتسوء به أحوالنا ، فتذهب الزوجة الى دار اهلها فتقضي فيها أياماً ويبقى الرجل وحيـداً يعالج أمره بنفسه ، او يكون ضيفاً معها عند اهلها ، فيجد من تبدل الحال مايجدد نشاطه ويشحذ شعوره ، ثم يدعو أهل المرأة ليقضوا عنده أياماً مثلها . أو يأخذ زوجه وأولاده فيأكلون يومـاً في المطعم ، او يحملوا الطعام فيتعشوا على صخرة في الجبل او عند ساقيـة في البستان . ولست أريد هذا بالذات بل أضرب الامثال على مايمكن به دفع الملل وتجديداسلوب العيش .

وما أدري أجئت بشيء معقول ، اما أنا لاأزال في جو المجنون الذي زرته فأنا لذلك اتكلم كلام المجانين .

الحب والزواج

جوابي على سؤال « الايام »

نشرت سنة ١٩٥٩

تطلع علينا (الايام) كل يوم باستفتاء أو سؤال ، تحرك به ماجد من العقول ، وتوقد به ماخمد من القرائح ، تدفع الكتاب الى إعمال العقل واجراء القلم ، فيستمتع القراء بثمرات عقولهم ، وحصاد اقلامهم .

وكان من آخر ماطلعت علينا به السؤال عن الزواج . هل يمكن أن يبنى على الحب وحده ؟ وعن سن الزواج : متى يحسن بالرجل أن يتزوج ؟

وبدت طلائع الاجوبة فكان منها ماهو عجب من العجب ، وانا لا أحب أن اجادل أحدا ، ولا أن أرد على أحد ، وانما ادلي بالرأي الذي اراه ، فمن كان يثق بي واتبع رأيي ، فَبِهَا ونِعِمّت . ومن خالفني وعصاني فلست مسؤولا عنه ، ولا أنا عليه بوكيل .

وقبل الجواب على السؤال الاول ، احب ان افهم ماهو هذا الحب الذي تسألون عنه ؟

ان الله خلق في الانسان غريزتين ، غريزة لبقاء ذاته ، وغريزة لبقاء نوعه ، فبالاولى يدفعه لذع الجوع الى ابتغاء الطعام ليدفع بالشبع الموت عن نفسه ، وبالثانية يسوقه وَقْدُ الشهوة الى الاقتراب من الانثى ليمنع بالنسل الانقراض عن جنسه .

وقد يكون الطعام بين يديك في المطعم ، وثمنه في جيبك ، تفكر فيه فتراه امامك ، ويكون الجنس الآخر في متناولك ، ويكون حلالا لك ، قيدَ طلبك ، فلا تشغل بتصوره ذهنك ، ولا تكدّ بانتظاره أعصابك .

وقد يكون الجوع موجوداً ، والطعام مفقوداً ، فانت كلما قاسيت مرارة الجوع ، ازدادت في تصورك حلاوة الطعام ، فاذا طال الامد ، صار لك (كما يقول علماء النفس) فكرة ثابتة، فأنت لاتفكر الا فيه ، ولا تحن الا اليه .

وتكون الرغبة الجنسية موجودة ، والجنس الآخر مفقوداً ، فيكون عندك من التفكير فيه مثل تفكير الجائع في الطعام ، وهذا هو الذيَ نسميه الحب ، وهو اشد من تفكير الجائع بالطعام ، لانه حين يطلبه لا يفكر في لونه ولا في جنسه ، والجائع الجنسي قد تستقر رغبته في امرأة بعينها تنحصر دنياه كلها فيها .

انه يطلب أن ينظر اليها ويحدثها فهل ترونه يكتفي ان رآها بالنظر ؟ هل تظنون ان حدثها قنع بالحديث [1]؟

انه كالجائع ، فهل يكفي الجائع ان يرى الطعام ويشمه وينظم في وصفه الاشعار ، ويصوغ القوافي ؟

لا يا اولادي ، لا والله العظيم ، انه لايريد جمالها لعينه ، ولا حديثها لاذنه ، ولكن يريد قفلهـــا لمفتاحه [2] ، انها غريزة النوع لايرويها الا مايتم به النسل .

وما الحب (مهما زخرفه الشعراء وزوقه الادباء) الا رغبة في الاتصال الجنسي لم تجد طريقها ، ان الحب العذري الشريف حديث خرافة لاتروج سوقه الا على المجانين والشباب .

---

(١) انظر تفصيل القول في (الحب) في كتاب (صور وخواطر)

(٢) وانتم تفهمون ماهي الحكاية !

هذه حقيقة من انكرها وجد الرد عليه في نفسه ، ان في كل نفس الدليل على انها حقيقة لاسبيل الى انكارها فهل يصلح الحب اذن وحده اساساً للزواج.

ان الحب جوع نفسي ، فهل يستطيع الجوعان ان يحكم على جودة الطعام؟ الا يزين له جوعه المجدرة حتى يحس لها تحت لسانه طعم الخروف المحشي . فاذا زالت لذعة الجوع عادت المجدرة مجدرة ، وتبين انها لم تكن خروفاً الا في اوهام الجوع.

كذلك المحب انه يسبغ من حبه على المحبوب ثوباً براقاً يراه به اجمل الناس ، فاذا تزوجها لهذا الثوب الذي يغريه بها ، ثم زال عنها لما زال الحب ، لم يبق بينهما زواج ؛ لانه ماتزوج بها ولكن تزوج الثوب الذي اسبغه خياله عليها وما دام الحب في حقيقته اشتهاء للقاء الجنسي فلا بد ان يزول إن زالت هذه الشهوة ، ولابد أن يعقل المجنون فتعود ليلى في نظره امرأة كسائر النساء ، فلا تبقى له فيها رغبة ، كما تذهب رغبة الجائـــع في الطعام اذا ملأ معدته منه ، انه رباط مؤقت ينقطع من الملامسة الاولى وانتم تفهمون ما معنى الملامسة ! والزواج صلة دائمة تحتاج الى رباط دائم يقوى بالملامسة ويشتد ، ولايزداد على الايام الاقوة واحكاماً .

وأنا من مد مني النظر في آداب الامم كلهـا ، ولااحصي القصص التي قرأتها لكبار الادباء ، في موضوع الزواج الذي يبنى على الحب ، ونهايتها كلها الشقاق والفراق ولاتغتروا بأمثال آلام فرتر ورافائيـــل وماجدولين وبول وفرجيني وكرازيجلا وجوسلان والاجنحة المتكسرة فهذه كلها صور لمرحلة الرغبة التي تكلمت عنها ، ولو تزوج كل واحـد من أبطالها بالتي يعشقها زواج حب فقط ، لكانت خاتمة القصة الطلاق .

لا ؛ لايصح أن يبنى الزواج على الحب وحده الا ان صح أن تبنى العمارة الضخمة على أساس من الملح ، في مجرى الماء .

انما يبنى الزواج على التوافق في التفكير والسلوك والوضع الاجتماعي والحالة المالية ، وبعد هذا كله تأتي العاطفة ، فينظر اليها وتنظر اليه اي ينظر الى وجهها وكفيها فقط بحضور وليها او احد محارمها : لا كما افتى ذلك الشيخ الخبـاص [1] الباقوري ، فان القى الله في قلب كل منهما الميل الى الآخر صار هـذا الميل مع الزواج حبـاً هادئاً مستمراً وان احسا نفرة او عزوفاً اغنى الله كلا منهما عن الآخر هـذا جوابي على السؤال الاول .



(١) الخباص اي الخلاط ، كلاهما من العامي الفصيح .

السن المناسبة للزواج

نشرت سنة ١٩٥٩

أما الاجابة على السؤال الآخر ، فان كان يكفي فيه أن ينطق المسؤول بأول عدد يخطر على باله لايطالب بدليل ولابتعليل ، قال قائل (ثلاثين) وآخر (أربعين) ، وان كان يجب في الجواب أن يكون موافقاً لفطرة الله التي فطر عليها النفوس ، وطبيعة الكون التي طبع عليها الاشياء ، فلا بد لي قبل الاجابة من تقديم هذه المقدمة . قد قلت لكم ان الله وضع في نفس الانسان غريزتين : غريزة حفظ الذات التي تدفع الى الاكل ، وغريزة حفظ النوع التي يكون بها النسل ، وما يصح في احداهما يصح في الاخرى ، فخبروني متى يأكل الانسان أخبركم متى يتزوج !

متى يأكل ؟

تقولون ، عندما يجوع

فليتزوج اذن عندما (يشتهي) . أي عندما يبلغ مبلغ الرجال ، أعني في الثامنة عشرة من العمر .

تقولون : واذا لم يجد أسباب الزواج مجتمعة له ، وهو في هذه السن ، فماذا يصنع ؟

فأقول : يصنع ما يصنعه الجائع الذي لايجد الطعام ، يصبّر نفسه حتى يجد الطعام .

تقولون : فان لم يستطع الجائع أن ينتظر ، ورأى الطعام أمامه فسرقه وأكله ، وارتكب في سبيله الجرائم ، فماذا نصنع نحن ؟

فأقول : ان على المجتمع أن يمهد لكل جائع سبيل الوصول الى الطعام ، لئلا يسرق أو يجرم ، فان منعه من الاكل مانع اضطراري وخيف منه السرقة ، وجب ان يحفظ الناس اموالهم منه .

فهو من جهة محق لأن المجتمع حرمه الطعام وهو حق له ، وهو من جهة مبطل لأنه أخذ ماليس له .

وهذا هو القول في الزواج :

الوقت الطبيعي للزواج ، هو وقت البلوغ ، ولكن الشاب يكون في هذه السن في المدرسة ، لامورد له ولا مال في يده ، ويستمر في الدراسة الى سن خمس وعشرين على الاقل ؟ أي أن الظروف الاجتماعية التي اصطلح الناس عليها جاءت مصادمة ومناقضة لطبائع النفوس وحقائق الاشياء . فماذا نصنع ؟ ماذا يصنع الشاب وهو مضطر أن يمضي هذه السنين العشر بلا زواج ، مع أن هذه السنين العشر هي أشد سني العمر شدة في الشهوة واحساساً بها ؟

ان الله وضع بين جنبيه ناراً متقدة ان لم يطفئها بالزواج احرقت بالالم نفسه ، أو أحرقت بالزنا بيوت الناس ، وهاهنا تستقر المشكلة وهذا مايجب أن يكون فيه البحث .

وان من أسهل السهل على من يكتب في هذا الموضوع أن يستلقي على كرسيه ويأخذ نفساً عميقاً من دخينته ، ويقول ببطء وتمهل :

- ان رأيي أن سن الزوج المناسبة هي الثلاثون ولكن هـذا لايحل المشكلة .

ان الكلام بالمجان ، والحاكم الذي ينطق بحكم الاعدام ، لا يكلفه ذلك من التعب الا ان يفتح فمه ويحرك لسانه ، ولكن المصيبة إنما تقع على رأس المحكوم عليه . والمحكوم عليه هنا هو الشاب .. والشابة أيضاً.

واذا كانت طبيعة الشـاب وغريزة نفسه ، توقظ في نفسه الجوع الجنسـي في سن الخامسة عشرة . واخونا المفكر المحـترم يحـكم عليـه بألا يتزوج الا في سن الثـلاثين ، فماذا يعمل في هـذه الخمس عشرة سنة ؟

لاسيما وان هذا المجتمع الذي يمنعه من الزواج فيها ، لايترك وسيلة لزيادة هذه النار اشتعالا في نفسه الا عمد اليهـا ، وكلما نسي المسكين هذه الشهوة ذكرناه بها ،بالصور العارية ، والافلام الخليعة ، والعورات البادية ، والاختلاط المتفشي . ان مشي في الطريق وجد المغريات، وان دخل الكلية وجد المغريات ، وهو يجد المغريات في كل مكان ، ونحن نوجب عليه ان يحمل ذلك العبء خمس عشرة سنة ونقول له بعد ذلك انصرف الى دروسك، والى مطالعاتك، واياك أن تفكر في الفاحشة، أو تقترب منها .

أقسم بالله أن من يحـكم عليه بالسجن خمس عشرة سـنة ليس أشد حالا من الشاب الذي تكلفه بهذا كله ؟

فما العمل ؟

العمل أن نعود الى الطبيعة ،ونتبع حـكم الفطرة، فانه لايستطيع بشر أن يحارب فطرة الناس وطبيعه الاشياء . وان نرجع الى عادة

أجدادنا فنزوج الشاب في الثامنة عشرة،والبنت في السادسة عشرة ، فان لم يمكن فلا أقل من أن نربي أولادنا على خوف الله ،وعلى متانة الخلق ، وان ننظف مجتمعنا من كل مايذكر الشاب (الذي اضطررناه الى العزوبة الجبرية) بما نسي من شهوته،وأن نمنع منعاً باتاً كل مايغريه بالمعصية ويسوقه اليها ، وأن يحمي الآباء بناتهم من أن يسرق أحد أعراضهن كما يحمون أموالهم من اللصوص أن تمتد أيديهم اليها .

هذا هو الجواب ، وانا واثق أن كل من يقرؤه سيقول أنه صحيح ولكن لن يعمل به أحد ، مع الاسف .

★ ★ ★

موضوع انشاء

نشرت سنة ١٩٣٤

احسبوا معي ياقرائي الاعزاء . لأني كما تعلمون أو كما لاتعلمون لاأحسن الحساب ، ولاأعلم أن خمسة وستة ثلاثة عشر إلا بعد ساعة كاملة أقضيها فى حل هذه المسألة ... وربما خرجت بعد هذا التفكير ، ومعي فيها قولان : فهي على قول اثنا عشر ؛ وعلى قول هذه الثلاثة عشر المشئومة ، والله أعلم بالصحيح .

احسبوا معي ياسادة : مئتان وخمسون ورقة في كل ورقة خمسة حمير ، وخمسة أفراس ، فكم هو الحاصل ؟ لست أدريه على التحقيق ولكنه من غير شك أكثر من ألف حمار ، وألف فرس !

وليست هذه الدواب في اصطبل ولافي خان ولافي مزرعة ولكنها في ... رأسي ولامؤاخذة !

نعم في رأسي فقد دعوني الى لجنة الفحص ، وجعلوا موضوع الانشاء حواراً بين حمار وفرس (١) ، وأرادوني وأرادوا زملائي الكرام على قراءة مئتين وخمسين مقالة في هذا الموضوع (الحماري) فجعلوني أحس أن في رأسي الف حمار والف فرس تتعادى وتترافس وتصهل وتنهق ، وتضرب بأرجلها جوانب رأسي ، وتدخل في اذني وأنفي وأراها في أحلامي طائرة من حولي تضاحكني وتباسطني بنهيق من نغم

(١) كان هذا موضوع الانشاء في امتحان الشهادة الابتدائية تلك السنة ولا ندري متى ينتهي مدرسو الانشاء من هذه الموضوعات (الخنفشارية) !

الصبا الحماري أو بعناق على الطريقة الحمارية ، ولست ألوم في اختيار هذا الموضوع لانهم أكدوا لي أن الموظف لايحق له أن يلوم رؤساءه ولو بدا له ان هذا اللوم حق ، ولكني أقول أن هـذا الموضوع لم يعجبني . ولايعنيهم ان يعجبني أو لايعجبني مادمت في نظر القانون لايمكن أن أفهم شيئاً في هذا الباب لاني معلم الف باء تاء ثاء . . في مدرسة زاكية الحورانية ! وأقول انه أضحكني كثيراً ، وأضحك زملائي ان أحد الطلاب كان رقيقاً أكثر من اللازم فجعل الفرس والحمار يتعاتبان عتاباً رقيقاً . . ثم يعتذر أحدهما للآخر ويصافحه ويعانقـه ويقدم له (بردونا) حمارياً - وأن أحد الطلاب كان سمجـاً أكثر من اللازم فجعل بين الحمار والفرس حواراً أودع فيـه كل مايعرف من الفاظ السباب والشتائم البلدية موجهة الى حضرات الاساتذة الكرام أعضاء اللجنة.. وحجته بأن الحمار رفس الفرس فقتله - وأن أحـد الطلاب اراد أن يتفاصح ، فجعل الفرس الاصيلة فرساً قصيلة ، ولها يدتان ورجلتان وعينتان .

* * *

لا ألوم أحداً ، ولكني كتبت لاتنفس الصعداء ، بعد هـذا العناء الطويل ، والبلاء المستطيل ، ولاهنىء اخواني الطلاب لابنجاحهم وحملهم الشهادة فليس هذا بالامر المهم ، وليس يعنيني كثيراً ان تزيد قائمة المغترين مائة اسم او مئتين ، ولكني اهنئهم بأنهم لايزالون تلاميذ ، لايعرفون بعد ما هو عناء الفحص . والتلميذ يوم الفحص يحسب انه وحده الخائف الحذر في حين أن هؤلاء التلاميذ الكبار ، هؤلاء الفاحصين ، أشد منه خوفاً وحذراً ، هو يخاف من السقوط ، والسقوط أمر تافه مادام التلميذ قد حفظ دروسه وقام بالواجب عليه ، وهم يخافون من الظلم ، والظلم أمر خطير لايستطيع الرجل الشريف أن يقدم عليه .

والتلميذ يكتب ورقة واحدة ، يصب فيها ماشاء من هراء وهذيان ثم يذهب الى بيته فيؤمن ، ويؤمن أبوه وامه ، أنه قد أجاد وأحسن وبذ الكاتبين ، وهم مجبورون على قراءة هـذه الاوراق كلها ، وحشو ادمغتهم بهذا الهراء وهذا الهذيان وفهمه وادراكه ، وتقديره بعلامة من علامات الأمتحان ، وهو إذا سقط يزعم ويزعم أهله أنه قد ظلم وان الفاحصين قد تحاملوا عليه ، وانتقموا منه ، وهم اذا اسقطوا تلميذاً سقطت عليهم اللعنات والشتائم ، ورفعت أكف العجائز في ظلمة الليل تدعو الله ان ينتقم ممن كان سبب سقوطك ياولدي ، الله يخرب بيته ، الله يعدمه أولاده ، الله يبعث له العمى والكساح . أي أن جزاء هـذا الفاحص المسكين الذي أجهد نفسه وأتعب ضميره وأضاع وقته ، أن يخرب بيته فيبقى في الشارع ، ويموت أولاده فيغدو منفرداً ثاكلًا حزيناً ، ويذهب بصره فلا يعرف عـدواً من صديق ولايعرف أين الطريق ، ويصبح مقعداً لايقدر على حراك ...

والغريب أن هذا السخف لم يختص به العجائز ، بل تجاوزهم الى مدير مدرسة بيني وبينه بعض الجفاء وتلاميذه مقصرون جداً فسقطوا في الفحص ، فلم ير سبيلًا الى ستر تقصيرهم واخفاء عجزهم الا بأن ينسب الي الخطأ . وأغرب من هذا أن كثيراً من أصدقائي قد سألوني أن أضمن لهم نجاح طائفة من الطلاب ، ولم يروا في هذا بأساً ، وغضبوا حين لم لم ينجح هؤلاء الطلاب ... مع أنني أحق بالغضب منهم ، وأولى أن أثور لكرامتي التي يعبثون بها بهذا الطلب الذي لايختلف في شيء عن قولهم لي لوقالوا : أنت رجل خائن قد تعودت الخيانة ، فنرجو أن تخون أمانتك هذه المرة ايضاً من أجل خاطرنا .

على أن الذي جرأ الناس على هـذه الطلبات وعودهم عليها ؟ هو

اصغاء بعض المعلمين ومن بيدهم أمر الفحص اليها ، واستجابتهم لها ، ولو رفضوها واستنكروها ، وغضبوا منها ، لتراجع الناس وفهموا أن المعلم ليس لصاً ولاخائناً ، ولايختص زيداً بالخير ولا عمراً بالشر ، ولواضطرته الى ذلك الصداقة المتينة او العداء الأكيد .

* * *

والخلاصة اني أحمد الله على نجاتي من هـذا العناء وعلى عودتي الى نفسي وهدوئي ومطالعاتي ، وأرجو أن تكون هـذه آخر مرة ادعى فيها الى مثل هذا العناء واحسب أنهم لن يدعوني كرة اخرى ، واحسبني قد أتعبتهم كما اتعبوني .

* * *

وبعد فاني احمد الله على انتهاء هذه المفازة الامتحانيـة ، واهنىء من فاز من الطلاب ، وأرجو لمن سقط نجاحاً قريباً ، وليغفر الله لمن ملأ رؤوسنا خيلًا وحميراً .

* * *

طريق السعادة

أذيعت سنة ١٩٥٨

ورد علي في بريد هذا الاسبوع كتاب من أخ من اوساط الموظفين كتب الي ثائراً فائراً ، يذم الدهر ، ويشكو الزمان ، لان مرتبه وهو الذكي العالم المستقيم ، (كما يقول عن نفسه) لايبلغ ربع مايناله زميل له ، ليس له ربع ذكائه ولاعلمه ، وكلما طالب منعوه ما هو حق له ، وحرموه منه ، فكان تحكّم بشر مثله في رزقه اشد عليه من ضيق الرزق - الى آخر ما قال ،

ولقد مرّ بي ، انا ، مثل هذه المحنة ، حين خطبت ايام الحكم العسكري في الشام من بضع سنوات ، تلك الخطبة التي حملها المذياع من منبر مسجد الجامعة السورية الى آفاق الارض ، فاغضبت عليّ الحكومة حتى نال مني الحاكمون في منصبي وفي رزقي ...

وقعدت عشية مغيظاً محنقاً ، لالنقص المرتب وضياع المنصب ، بل غضباً لحريتي وكرامتي ، وأنفة من ان يتحكم فيّ انسان مثلي ، ويُملّك التصرف في عملي وفي رزقي ، وأظلم عليّ الليل ، وأنا مستغرق ، ذاهل ، اداري من نفسي غضبة اخشى أن تتفجر تفجّر القنبلة ... وكان في غرفتي شعبة من الرادّ ، فسمعت القارىء يقرأ ، حتى بلغ قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيـاة الدنيا » فتنبهت اليها ، كأني

ما سمعتها قط ، وكأنما نزل بها جبريل الساعة على قلب محمد ﷺ ، وأحسست أنها جاءت برداً على كبدي ، وسلاماً ، فسكت عني الغضب ، وامّحت عن عيني الغشاوة ، ورأيت حقيقة القدر رأي العين . وقلت :

يارب إن كنت أنت الذي قدر وقسم ، وانت الذي اعطى ومنع فأنا راض بما قسمت لي .

* * *

أسمعت ؟ أسمعت يا أخي ؟

هو الذي قسم المعاش ، وهو الذي قدر الارزاق ، وما يملك هؤلاء الناس عطاء ولا منعاً ، ما الناس الا وسائط ، فهل تغضب على محاسب الدائرة في اول الشهر إذا اعطاك مئة واعطى الرئيس مئتين ؟ وماذنبه حتى تغضب عليه ؟ أهو الذي وضع الملاكات ، وحدد الرواتب ، أم هو منفذ لما قرر من قبل وامضى ؟

هذا هو مثلك ومثل من تظن أنهم أعطوك أو منعوك ، وأنهم قدموا غيرك وأخروك ، إن هم إلا محاسبون ، أما الذي قرر جداول الارزاق من الأزل ، وحدّد مقاديرها ، فهو الله رب العالمين ، فما كان لك فسوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ، أتستطيع أن تنال ليرة من راتب زميلك ، مهما كنت قوياً وكان ضعيفاً ؟ ولو اجتمع أهل الارض على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف ، فإذا لم يكن لك كل ماتريد ، فلماذا لاتريد كل مايكون ، فتستريح وتريح ؟ وهذه هي نعمة الايمان بالقدر وليس معنى الايمان أن تستلقي على ظهرك ، وتنتظر أن ينزل عليك رزقك من السقف فإن السماء (كما قال عمر) لاتمطر ذهباً ولافضة ، بل أن تجدّ وتسعى وتعمل للدنيا ، كأنك تعيش فيها

ابداً ، وان تجمع المال من كل وجه حلال ، وأن تضرب في آفاق الارض ، وتأخذ بأسباب الرزق ، ولا تدخر جهداً هو في طاقة البشر لاتبذله للغني . فإن لم تصل بعد ذلك كله الى ماطلبت فلا يدفعك اليأس الى الانتحار ، ولايسلمك الغم الى المرض ، بل تعزّ وارض ، وقل : لقد عملت ما عليّ ، ولكن الله لم يكتب لي النجاح ، وأنا راض بقضاء الله .

هذه هي حقيقة الايمان في دين الاسلام . ليست تسيبياً وكسلاً كما يظنها العوام وأشباه العوام . وأنت تعرف قصة الرجل الذي ترك ناقته على باب المسجد ودخل على الرسول ﷺ ، فلما خرج لم يجدها فرجع فقال : يارسول الله ناقتي ! تركتها وتوكلت على الله ، فضلّت ، فقال رسول الله ﷺ : قيدها وتوكل على الله .

هذا هو الايمان ، إن الله جعل الكسب منوطاً بالعمل ، والنبات مقروناً بالحرث والزرع ، والشفاء موقوفاً على الطب والعلاج . فمن قعد وطلب الربح لم يربح ، ومن اراد الحصاد ولم يزرع لم يحصد ، ومن طلب الشفاء ولم يتداوَ لم يُشفَ ، والله لايبدل قوانين الكون وسنن الوجود ، إرضاء لكسول أو خمول . فاعمل وادأب ، وخذ وطالب ، ولاتسكت عن حقك ولاتقصر في ابتغائه ، ولكن لاتدع اليأس يدخل عليك ، والحقد الاسود يأكل قلبك ، ولاتقل مالفلان وفلان ، فلقد كنت يوماً مثلك ، اجد من هم دوني ، ومن كانوا تلاميذي ، قد حازوا الجاه والمال ، وبلغوا أعلى المناصب ، فاتألم ثم قلت لنفسي : يانفسُ ويحك ، ومن اعطاك العهد على أن تكوني ابداً فوق الناس ، أو ليس خيراً لك يانفس أن أدخل على وزير أو كبير فيجلني ويراني مثله ،

من أن ادخل على من يستصغرني ويراني دونه ، أو لستُ في خير ؟ أولا أتقلب في النعم ؟

وبرئت من مرض الحسد فاسترحت ، وصرت انظر الى نعم الله عليّ ، فأراني لا استحق بعضها ، وهأنذا اليوم لا اشكو شيئاً وأعبّ السعادة والله عباً .

وليس في الدنيا أحد لايجد من هو أفضل منه في شيء ، ومن هو أقل منه في اشياء . ان كنت فقيراً ففي الناس من هو افقر منك ، وإن كنت مريضاً او معذبا ففيهم من هو اشد منك مرضاً ، وأكثر تعذيباً فلماذا ترفع رأسك لتنظر من هو فوقك ، ولاتخفضه لتبصر من هو تحتك ، إن كنت تعرف من نال من المال والجاه ، مالم تنله أنت وهو دونك ذكاء ومعرفة وخلقـــاً ، فلم لاتذكر ، من انت دونه او مثله في ذلك كله ، وهو لم ينل بعض مانلت . وفلسفة الرزق أدقّ من أن تدرك ، وابعد من أن تنال ، وانظر الى الناس تر منهم الغواصين الذي جعل الله خبزهم وخبز عيالهم في قرارات البحار فلا يصلون اليـــه حتى ينزلوا الى اعماق الماء . والطيارين الذين وضع خبزهم فوق السحاب فلا يبلغونه حتى يصعدوا الى اعالي الفضاء . ومن كان خبزه مخبوءاً في الصخر الاصم فلا يناله إلا بتكسير الصخر . ومن رزقه في مجاري المياه الوسخة او المناجم العميقة التي لاترى وجه الشمس ولابياض النهار . ومن يأخذه بيده أو برجله او بلسانه او بعقله ومن لايصل الى الخبز إلا ببذل روحه وتعريض مهجته للهلاك كلاعب (السيرك) الذي يترصده الموت في كل مكان ، فإن لم يدركه ساقطاً على راسه ، ادركه وهو بين انياب الاسـد ، او تحت ارجل الفيل

فاحمد الله ان جعل ، رزقك على مكتبك ، تصل اليه وانت قاعد

على كرسيّك لم يجعله في رؤوس الجبال ، ولا في اعماق البحار ، ولا في مواجهة الاسد والنمر .

وهذه المزايا التي تقول إن الله اعطاكها : مزية الفهم والجد والدأب والاستقامة والامانة ، أليست نعماً تستحق ان تحمد الله عليها ؟ أو ترضى أن تزداد مالا ، وأن تكون عيياً غبياً ، أو جاهلا او خاملا، او لصاً او مجرماً ؟ فلا تأسف إذا أعطيت هذه النعم كلها وحرمت المال الوفير ، بل ائْسَف إن حُرِمتها وأعطيت اموال قارون .

وهل السعادة يا أخي بالمال ؟ ما المال ان لم تشر به متعة عيش ، او لذة نفس ، او مكرمة يبقى ذكرها ، او صالحة ينفع اجرها ؟ المال وسيلة ، فإن لم يتوسل به الى نعيم الدنيا ، او سعادة الآخرة ، كان ورقاً مصوّراً ، او معدنا براقا . كالذي زعموا أنه كان له دعوتان مستجابتان ، فدعا ربه ان يجعل كل شيء تمسّه يده ذهبا ، فأعطيها فكاد يطير عقله من الفرح ، وانطلق يلمس كل مايجد فيحوّله ذهبا ، حتى جاع فأخذ الصحن ليأكل ، فصار مافيه من الطعام ذهبا ، وعطش فحمل الكأس ليشرب ، فصار مافيها من الماء ذهبا ، فقعد جوعان عطشان فأقبلت ابنته تواسيه ، فعانقها،فصارت تمثالا من الذهب ، فدعا ربه الدعوة الثانية ، أن يعيد كل شيء كما كان ، لانه ادرك أن الرغيف للجائع ، والكأس للعطشان ، والبنت للأب ، خير من ملء الارض ذهبا .

وأنت تستطيع بمرتبك القليل ، ان احسنت التصرف فيه ، واستشعرت الرضا به ، ان تكون اسعد ممن له الآلاف المؤلفة من الليرات . وأنا اعرف رجالا يدخل على الواحد منهم في يومه ، مالا يدخل عليّ في السنة والسنتين من المال ، وأنا أعيش عيشا أرفه وأرغد مما يعيشون :

لا آكل اطيب مما يأكلون ولا البس افضل مما يلبسون ، ولا أمتع نفسي اكثر مما يتمتعون ، ولكني أرضى اكثر مما يرضون .

ولي بعد ذلك لذائذ هم محرومون منها : لذة المطالعة امام المدفأة في ليالي الشتاء ، ولذة التفكير الحالم في الفراش قبل النوم ، ولذة المناظرة في مجالس العلم والادب ، ولذة المحاضرة في النوادي والاذاعات ، وهم يحتاجون الي ؛ يسألونني فأعلمهم ، ويجيئون إلي فاحكم بينهم ، وأنا لا أحتاج الى واحد منهم لأنهم إنما يفضُلونني بالمال ، وأنا لا أطمع في أموالهم ، ولاأرضى أن آخذ منهم وأنا ان أردت القناعة والرضا ، وجدت من المال ما يكفيني ، وان لم أقنع ولم أرض لم تكفني أموال الدنيا .

ومايصنع بالمال من يدخل عليه في شهره العشرة الآلاف ، والعشرون والخمسون ، من كبار التجار والموسرين ؟ أيمكن أن يلبس الرجل عشر بذلات معاً ؟ أو أن يأكل عشرين رغيفاً في غداء ؟ أو ينام على خمسة أسرة في وقت واحد ؟ الا أن يكون الانفاق في السرف والترف ، والفسوق والعصيان ، وهذا شيء ليس له حدود ، ويمكن أن ينفق المرء في ليلة واحدة على الخمر والعهر ، ماجمعه في عشر سنين ... ويمكن أن يشعل دخينته (سيكارته) بورقة أم مئة ليرة ، ولكن هذه كلها أفعال السفهاء المجانين ، ونحن نتكلم عن العقلاء من الناس .

ولقد بقيت مرة وحدي ، في المحكمة الشرعية القديمة ، فقعدت أمام البحرة[1] وأردت أن تمتلىء حتى يفيض الماء من جوانبها ، ففتحت (السباع) كلها ، فتدفق الماء ولكنها لم تمتلىء ، فعجبت وقمت افتش ، فوجدت (المارب) الكبير مفتوحاً ، فسددته ففاض الماء ...

---

(١) البحرات البرك التي تكون في بيوت الشام القديمة ، فيصب الماء اليها من تماثيل من النحاس على هيئة السباع ، لذلك يسمى مصب الماء (السبع) ، ومجراه (المارب) .

فعلمت أنه ليس العبرة بفتح (السبع) ولكن بسدّ (الهارب) ، العبرة بتقليل المصروف لابتكثير الوارد ، فلا تأسَ على نفسك ان قل مرتبك وارض فان الرضا هو السعادة ، يفتش عنها الناس ويبحث عنها الفلاسفة ، ويهيم بها الادباء ، وهي تحت أيديهم ، كالذي يفتش عن نظاراته في كل مكان ويسأل عنها في الدار كل انسان ، والنظارات على عينيه !

السعادة بالرضا والايمان .

* * *

واعلم بعدُ أن كل حال الى زوال ، فلا يفرح غني حتى يطغي ويبطر ، ولاييأسْ فقير حتى يعصي ويكفر ، فانه لافقرٌ يدوم ولايدوم غنى ، وكم من رجال نشؤوا على فرش الحرير ، وشربوا بكؤوس الذهب ، وورثوا كنوز المال ، وأذلوا أعناق الرجال ، وتعبدوا الاحرار ، فما ماتوا حتى اشتهوا فراشاً من صوف يقي الجنب عَضّ الارض ، ورغيفاً من خبز يحمي البطن من قرص الجوع ، وآخرون قاسوا المحن والبلايا ، وذاقوا الألم والحرمان وطووا الليالي بلا طعام ، فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم ، وتكاثرت الخيرات ، وصاروا من سراة الناس ، وهل في الدنيا غني لم يكن يوماً ، أو لم يكن أبوه أو جَدّه فقيراً ، وكم في الدنيا من فقير صار أو صار ولده أو حفيده ربّ الملايين !

فلا ييأسْ أحد ، فربما صار ابن آذن المحكمة رئيسها ، وصار ابن الرئيس آذنها ، وغدا ولد الفلاح صاحب الارض ، وولد صاحب الارض فلاحاً يشتغل بطعام يومه ...

وإنما هي الايام يداولها الله بين الناس ، ككرة الملعب ، ماتكون بيدك إلا ريثما تنتقل الى غيرك ، والعمر كله ماضٍ ، فهل يبقى لك المال ان ذهبت الحياة ؟

وسيسوّي الموت بين الاحياء جميعاً ، الغني والفقير ، في نظر الدود سواء ، والمالك والأجير ، والصعلوك والامير ، والكبير والصغير ، كلهم يصير الى البلى والانحلال ، ثم يلقى السعادة الدائمة ، أو الشقاء الخالد .

قم في المقبرة تَلْقَ قبراً ، يشمخ بأنفه كبراً على القبور ، يُزْهى بالرخام المجزّع المنقوش ، ويضحك بالزهر والورد ، وآخر متعثراً بالطين يئن تحت أقدام السائرين ، وقبراً ثالثاً قد مات كما مات من فيه فعاد القبر تراباً في الارض ، تفاوتت المظاهر ولكن اتحدت البواطن ، فما فيها كلها إلا رمم بالية ، وعظام نخرة ، لاتختلف رمة عن رمة ، ولا عظام عن عظام ، ولاتميز جمجمة الملك من جمجمة الصعلوك ، ولا ساق القاضي الذي حَكم ، من ساق المجرم الذي حُكم ، وما ردّ قبرٌ الحياةَ على ميت ، ولو كان قبر الأمبراطورة شاهجهان (تاج محل) اجمل بناء شيد على ظهر هذه الارض .

مايبقى للميت الا الذكر في الدنيا ، والعمل للآخرة ، وما الذكر ان حققت وما الشهرة الا خدعة كبرى ليس وراءها شيء سراب . والعمل الصالح هو وحده الباقي .

من عبث التلاميذ

نشرت سنة ١٩٣٢

كنت في الصف وكان موضوع الدرس شيئاً لانعرف نحن معشر المعلمين ، ولايعرف من هم فوقنا ، مدلوله إلا بالتقريب ، ذلك الشيء الذي يحويه ثبت الدروس الرسمية ويهمل في الواقع هو ... « المحادثة » وقد زعمت مرة أني فهمت موضوع هذا الدرس ، وافترضت أني مجنون حقيقة (إذ أن كل معلم مجنون مجازاً ولا مؤاخذة ... جنون عبقرية لاجنون مارستان) ورحت أتحـــدث أنا وتلاميذي ؛ أسخر منهم ويسخرون مني ، وأســـألهم ويسألونني . ولم لا ؟ .. أليس الدرس درس محادثة .. هلم فلنتحدث !

سألتهم ماذا يختار كل واحد منهم من المهن إذا هو بلغ مقبل أيامه وصار رجلًا – أعني بحسب الظاهر – وهـذا السؤال على مافيه من سخف بين ، شائع فينا معشر المعلمين نلقيـه في اوجه التلاميذ كلما لاحت لنا مناسبة او أخرجنا هذه المناسبة من جيوبنا !

فقال واحد منهم :

– أما أنا فأريد أن أكون مختاراً ..

– حسن ، إن المختارية غاية مايطمح اليه تلميذ في قرية وهذه همة عالية

ولاشك ، ولكني احببت - أو أن موقفي اقتضى - ان أسأله : لماذا ؟

فارتبك ساعة ثم قال (والعبارات كلها مترجمة من لغات الاطفال التي لايفهمها الا نحن الى اللغة العامة) :

- ان المختار ينال المال بلا تعب ولا مشقة فليس عليه الا أن يختم بخاتمه كل ما يعرض عليه .

- لا . . . ليس كل مايعرض عليه ، قد يعرض عليه أشياء مخالفة للقانون .

- نعم ياسيدي ، ولكنه يختمها اذا أجزلوا له الأجر .

- لا ، لا .. إن القانون يمنعه .

- والله العظيم يختمها ، لقد ختم لـ (فلان) بعد أن أخذ منه ورقتين ...

- اسكت ، لاتذكر أسماء .. أقول لك أن هذا لايكون ، وان ختمه لايقبل .

- كيف لايقبل ؟ إن أبي يقول ان الحكومة تقبل ختم المختار في كل شيء وتعد كل ماشهد به حقاً ، وكل حق لم يشهد به باطلا .

- هذا لايهمنا .. انت اذن تريد أن تكون مختاراً ، سأعود للكلام معك ، وانت ؟ تكلم :

- أنا اريد أن أكون دركياً .

- وأي شيء يعجبك من الدركي .

- اعجبني أنه فوق المختار ، يأمره أمراً ، ويدعوه اليه متى شاء وينزل به هو وأصحابه ، وفرسه وأفراس أصحابه ، فيأكلون ويشربون ويقيمون ماطاب لهم المقام ، والمختار لايستطيع أن يعارض في شيء ،

ثم ان الدركي هو الحاكم المطلق في القرى لاقوة فوق قوته يحترمه الناس ويقومون له اذا جاز بهم ، والا وجد سبيلا الى اتهامهم بتهمة من التهم ، وتقطيع أرجلهم بالضرب .

– إن ضرب المتهمين ممنوع ، اسكتوا لماذا الصياح ، ليتكلم أحدكم ، قل أنت :

– انهم يضربون يااستاذ ، يضربون حتى الأبرياء ، اقسم بالله .

– لاتقسم

– يضربون لم يمنعهم أحد ، وقد سمعت دركياً يقول ، ان هذا المعلم متكبر ، وان شاء الله سأرميه في ورطة .

فأسررتها في نفسي ، وقلت :

– خرجت عن الموضوع .. يكفي .

من منكم يريد أن يكون معلماً ؟ معلم .. لاأحد ؟ ويحكم لماذا ؟ ..نعم .. قل : فقال مامعناه :

لأن المعلم يتعب نفسه فلا يعلم بتعبه أحد ولايجزيه خيراً ، ويقذف به الى انحس القرى ولوكان أحسن معلم [1] فلا يحس به أحد ولايؤبه له ، وينظر اليه الناس نظرة ليس فيها من الاحترام مايكون للجابي أو الدركي ، وقد قال أبو فارس ، ان الجابي يستطيع ان يعزل المعلم .

– ان هذا كذب .. ان المعلمين أشرف الناس وأحسنهم اخلاقاً و . . .

– دائماً ياسيدي ؟

– دائماً ، طبعاً .

– كيف إذن يكون في « . . . » معلم ليس أحسن الناس أخلاقاً ، ولكنه ...

– اسكت ، قليل الأدب ..

وقرع الجرس . فانتهى الدرس وانتهت القصة .

---

(١) كان من معلمي القرى في تلك الايام سعيد الافغاني وانور العطار وحلمي اللحام وجميل سلطان وامجد الطرابلسي وعلي الطنطاوي .

الى لبنان

نشرت سنة ١٩٣٧

لقيني الاستاذ عز الدين التنوخي ، وكنت قادماً من سفر . فقال لي : هلمّ!

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى الجبل نزور أمير البيان ، ورجل الاسلام شكيب أرسلان

قلت : ما أعـدل والله بزيارته شيئاً ؛ ولكني آت من سفر ولم أبلغ داري

قال : اطمئن فان الدار في محلها لم تطر ، وما عليك أن تراها غدا؟

قلت : صحيح . وسرت معه .

ولم أعد أرى السفر شيئاً ، لأني أصبحت في هذه السنين الأواخر كذلك الذي كان (موكلاً بفضاء الله يذرعه) فلا أكاد ألقي عصا التسيار وأحط الرحال من سفر ، حتى أتهيأ لآخر . اطوّف ماطوّف، ثم آوي إلى هذه الغرفة الصغيرة ، أجلس بين ركام الكتب ، أحسب ما كسبت من هذا العناء الطويل ، فلا اجدني كسبت إلا صورة في الذاكرة أضمها إلى صورة ، وذكرى في النفس اقرنها بذكرى ، وصفحة في دفتري أضيفها إلى صفحة . أسعد بتدوينها ، وأسرّ ببقائها ، وإن كنت لا أدوّن إلا الأقل مما أراه وأشعر به ، ولا اذكر إلا التافه مما يمر بي. وإن كنت أعلم أن صور الذاكرة إلى امحاء ، وذكريات النفس إلى

ضياع ، وقصص الدفتر إلى السكين والنار لايزهدني ذلك فيها ، ولايصرفني عنها ، لعلمي أن الحياة نفسها ستموت ، والوجود سيعدم ، ولايبقى في الوجود إلا الموجد

* * *

وكنا خمسة في السيارة : الأستاذ التنوخي ، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والأستاذ الشيخ بهجة الأثري ، والشيخ ياسين الرواف معتمد المملكة السعودية في دمشق سابقاً وأنا .

خرجنا من دمشق مع الغروب . وكان اليوم جمعة ، وكانت ليلة قمراء ، فسالت الطرق بالدمشقيين على عادتهم في مثل هذه الليالي فامتلأت جوانب بردى ، والمرجة الخضراء ، والربوة ، ووادي الشاذروان (أجمل أودية الدنيا واحلاها) بخير الفتيان ، وأجمل الفتيات ، وأحلى الأطفال ؛ فلم يكن أمتع للعين ، ولا أشهى للقلب ، من ذلك المشهد.

فسرنا في هذا العالم الساحر ، مترفقين متمهلين ، لأننا لانمشي في طريق وإنما نمشي في بحر من العيون والقلوب والمفاتن جمع كل جميل بارع أخاذ ، حتى بلغنا دمّر :

والحور في دمّر أو حول هامتها حور تكشف عن ساق وولدان [1]

فوقفنا نمتع الأنظار بحُورِها وحورها ، وشموسها وبدورها ، وأنت مهما عرفت دمشق لاتزال ترى فيها ابداً جمالا تجهله ولا تعرفه ، ففي كل يوم جمال جديد ، وفي كل مكان فتنة جديدة ؛ فلا تدري أين تقف ، وماذا تنظر . وأيا تفضل ؟

أوادي الشاذروان أم جنائن الغوطة ، أم جبال بلودان ، أم عين

(١) شوقي

الخضراء ، أم سهول الزبداني ، أم العيون التي لا يحصيها عدد ؟

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسن ... يحنّ إليها كل قلب ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
سلام على تلك المعاهد إنها ... محط صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقضت بقربها ... فما كان أحلاها لديها وأمراها[1]

* * *

خلينا الهامة وجمرايا بلدة ابن واسانة[2] والوادي كله عن أيماننا ، وأسندنا الى الجبل ، نستقبل الصحراء الى ميسلون بلاط شهدائنا ، ومشهد أبطالنا ، ومبدأ تاريخنا الحديث ، ومثوى الأسد الرابض يوسف العظمة ، الذي وقف هو وأشبال دمشق العزل الأقلاء في وجه ثاني دولة قوية ظافرة ، فما ضعفوا ولا استكانوا ولا جبنوا ، ومازالوا يقاتلون ويدافعون عن العرين ثابتين ماثبتت الروح في أجسامهم ، حتى أعجزهم أن يعيشوا أشرافاً فماتوا أشرافاً ؛ فكان موتهم حياة لهذه الامة التي حفظت العهد وحملت الامانة ؛ وكانت قبورهم مناراً أحمر في طريق هذا الشعب المجاهد المستميت لن يقف او يتباطأ حتى يأخذ (الكل) الذي (أعطى) الآن[3] (بعضاً) منه ، ولن ينام حتى يرى هذه الصحراء قد آضت جنات ألفافاً ، تحمل الزهر الذي لا يسقى إلا بالماء الاحمر الملتهب تحمل أزهار الحرية .

---

(١) ابن النقار

(٢) ولابن واسانة هذا قصيدة طويلة جداً ، من اعجب الشعر القصصي الواقعي يصف فيها جماعة دعاهم الى قريته ففعلوا معه الافاعيل ، وهي قصيدة نادر مثالها على بذاءة فيها واوصاف مكشوفة يستحيا منها .

(٣) أي سنة ١٩٣٧

سيبقى هذا المجد لتمر عليه الاجيال الآتية ، الاجيال الحرة العزيزة ، فتذكر جهاد أسلافنا ، وتعرف الثمن الذي دفعوه ، ولتعلم ان القوة إن غلبت الحق حيناً ، فان الحق يصنع القوة التي يغلب بها دائماً .

مقيم ما أقامت ميسلون　　يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه　　وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا　　تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى　　فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالي　　ووسد حيث جال وحيث صالا
إذا مرت به الاجيال تترى　　سمعت لها أزيزاً وابتهالا [1]

* * *

ثم أخذت السيارة تصعد بنا في مسالك ملتوية مستديرة تزيغ الابصار من استدارتها وعلوها ، حتى إذا ظننا أننا بلغنا قنة الجبل تكشفت لنا قنن فاذا نحن لانزال في الحضيض ، ومافتئنا نعلو ونتسلق وندور حتى حاذينا « بلودان » درة المصايف الشامية ، وبدا لنا فندقها الفخم الذي بنته الحكومة ليملأ الخزانة مالاً ، والجيوب ذهباً ، فملأ النفوس فساداً ، والأخلاق انحطاطاً ، لما أنشؤوا فيه من بلايا وطامات زعموها حضارة ورقياً .

ثم عدنا نهبط ، وهذه سنة الحياة : « ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع » ولا علا رجل إلا هبط ، إلا رجلاً علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه ، فذاك الذي لايهبط أبداً بل يزداد رفعة ، لأن علمه لن

---

(١) شوقي

ينسى ، وأخلاقه لن تذهب ، ومواهبه لن تضيع ، أما من علا على قوائم الكرسي وأعناق الشعب ، فأحرِ به أن يسقط مهما استمر علوُّه وطال بقاؤه .

اقول : إننا مازلنا نهبط حتى انتهينا الى سهل البقاع الخصب الأفيح الجميل ، الذي يفصل لبناننا « الشرقي » الأجرد المهيب الرهيب الذي ادرّع المهابة ، واتشح بوشاح الخلود ، ولاحت عليه سمات الجلال ، والجد والوقار ، ولبنانهم « الغربي » المرح الفرح الأخضر الجميل ، الذي اتزر بالسحر ، وارتدى رداء الشعر ، وكلاهما أخّاذ فاتن ، ولكن الاول جليل والثاني جميل ، والجنات الخالدات والفراديس الباقيات في دمشق ، على سفح لبنان الشرقي .. قال شوقي :

نبئت لبنان جنات الخلود وما نبئت ان طريق الخلد لبنان

وأنت حين يحتويك لبنان الغربي تحسّ بجماله وروعته ولكنك تشعر أنك أنت له ، وأنك جزء منه ، ولكنك تحس حين تكون في لبناننا أنه هو لك ، وأنه جزء منك ، وشتان بين ماتكون أنت في قلبه ومايكون هو في قلبك ، وأنت حين تكون في لبنان الغربي تجد يد الانسان لم تبق من جمال الطبيعة إلا قليلا ، وتجد ما تجد أكثره في المدن الكبرى ، ولكنك حين تكون في لبنان الشرقي تجد الطبيعة الحلوة الفاتنة التي لم تبدلها يد الانسان ، وإنما أحاطتها باطار يحفظها ويظهر جمالها .

ثم ان الجبلين كانا جبلا واحداً ، صدعته حوادث أرضية « جيولوجية » من زمن قديم ، والأمتين فيها أمة واحدة ، ولكنك واجد في هذه

المسافة التي لاتتجاوز الساعتين جمهوريتين مختلفتين ، وعلمين متباينين ، وحدوداً كحدود المانيا وفرنسا .

ألقاب مملكة ...

وسبحان خالق الهر ، وخالق الاسد ، وخالق كل شيء !

* * *

وأنخنا رواحلنا (أعني وقفنا سيارتنا ، ولم يكن معنا رواحل ولا رحال) في شتورة ، عروس السهل ، نستريح فيها قليلا قبل أن نتسلق بالسيارة الجبل الذي لاتبلغ الطير ذراه ، وإذا أنت شئت أن تتصور مبلغ مانعلو ، فتصور شارعاً طوله قرابة كيلين اثنين ، قد وقف على رأسه ، وكنت أنت فوقه تطل على الدنيا من عل ...

علونا في جبال شجراء ضاحكة ، نجتاز القرى المتناثرة على السفوح والذرى ، ونرى الينابيع تتدفق من أعالي الصخور ، وتسيل في بطون الاودية حالمة سكرى . ومازلنا في علو والتف ودوران ، حتى بلغنا (ظهر البيدر) حيث صرنا فوق السحاب ، لاعلى المجاز أو المبالغة كما يقول الشعراء ، بل على الحقيقة التي يشاهدها الناس كلهم فقد كان السحاب يمس الذرى التي تحتنا ، ويلفح وجوهنا ، ويحجب عنا السهل والسفوح وكنا نعلو عليه أحياناً فلا يبلغنا ولايمسنا ، ونراه يمر من تحتنا ، أشبه شيء بالغبار الابيض تحمله الريح ، حتى درنا تلك الدورة الكبيرة ، وأشرفنا على وادي (صوفر — حمانا) العظيم أوسع أودية لبنان وأجملها ، وقد ازدهى بالصنوبر وانتثرت على سفوحه عشرات القرى ولاحت مبانيها العظيمة وقصورها الشم .

والروابي توسدت راحة السحب ونامت على وشاح مرقق

والذرى البيض في العلاء نسور   حومت تكشف الخفي المغلق
نشرت في الفضاء أجنحها الزهـــر فأسنى بها الوجود وأشرق
والقرى غلغلت بأخبية الغيـــب وضاعت بين الغمام المنمق
والينابيع ضاحكات من الزهـــو ترامى فيها السنا وتألق
وتراءى البحر البعيد كحلم   مبهم راجف الخيال ملفق
سرقته السماء في الافق النا   ئي فمن أبصر الخضمات تسرق[1]

* * *

تمر على الانسان ساعات بل لحظات ينسى فيها هذا العالم المادي ، وهذه الحياة القصيرة الناقصة ، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجمل ، تخالط نفسه مشاعر لاعهد له بها ، ولايقدر على وصفهـا ، وتغمر قلبه لذة لايعرف أي شيء هي ، فيشعر أنه انتقل الى عالم سحري جنى عجيب ، كهذه اللحظات التي تمر علينا في غمرة التأمل النفسي ، او في هزة الموسيقى ، أو في نشوة الحب ، أو حين الاستغراق في العبادة والمناجاة .

هذه هي اللحظات التي تمرّ عليك حين تشرف على وادي (صوفر - حمانا) أو تجلس في الشاغور ، أو تصعد الى عين الصحة في فالوغا .

لست أريد الدعاية للبنان ، وما لبنان في حاجة الى دعاية ، ومافي لبنان سرير في فندق ، أو غرفة في دار إلاّ وقد امتلأت حتى اننا لم نجد في صوفر وقد وصلناها ليلا مكاناً نبيت فيه ، وكلما دخلنا فندقاً خرجنا منه بخفى صاحبنا حنين الاسكاف ... حتى قادنا المطاف الى فندق

---

(١) انور العطار

لطيف معتزل ، قاعد في منتصف الطريق بين صوفر وبحمدون ، ولم يكن بعده فندق نأوي اليه . فتعلقنا بصاحبه ، وتوسلنا اليه وأطمعناه حتى رضي أن يعد لنا مكاناً في الردهة (الصالون) فقبلنا ، ووضعت سرر صغار كسرر الجند وطلبة المدارس الداخلية جاء بها من بيته ، فحمدنا الله عليها .

* * *

ولما دخلنا الاوتيل : عمامتان عاليتان على رأسي البهجتين ، بهجة العراق وبهجة الشام ، وعقال نجدي نخم على هامة أمير من امراء نجد ونحن الاثنان (المطربشان) الاستاذ عز الدين وأنا ، تعلقت بنا الانظار ودارت حولنا الابصار ، وحفّ بنا شباب يسلمون علينا . فقلنا : وعليكم السلام يا إخواننا ... فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون ...

فقلت لاحدهم : من فضلك قل لي ، لماذا تضحك ؟

هل تجد في هيئتي مايضحك ياسيدي ؟

فازداد الخبيث ضحكا ، فهممت به فوثب الحاضرون وقالوا :

ياللعجب ! أتضرب فتاة ؟

واذا هي (فتاة) بثياب الرجال

وفررنا ونحن مستحيون . نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى

ولما خرجت في الليل لمحت في طريقي واحدة من هؤلاء النسوة فحيتني ، فقلت لها : مساء الخير يامدموازيل .

فقالت : مادموازيل إيه ياوقح ؟

قلت في نفسي : انها متزوجة وقد ساءها ان دعوتها بالمدموازيل (الآنسة) . وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت : بردون مدام .

قالت : مدام في عينك قليل الادب ، بأي حق تمزح معي أنا (فلان) المحامي

قلت : بردون ، بردون

ووليت هارباً ، فذهبت الى صاحب الأوتيـل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة ، فدهش مني ووجم لحظة ؛ ثم قدر أني أمزح فانطلق ضاحكا

قلت : إني لا أمزح ، ولكني أقول الجدّ وقصصت عليه القصة ...

قال : وماذا نعمل ؟

قلت : لوحات صغيرة مثلاً من النحاس ، كالتي توضع على السيارات لبيان رقمها ، أو على الدراجات ... يكتب عليها (رجل) . (امرأة) تعلق في الصدر تحت الثدي الايسر . أو تتخـــذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا ودجاجة ، أو ... أو شاة وخروف أو شيء آخر من علامات التذكير والتأنيث ...

فراقه اقتراحي وقبله على أنه نكتة ، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق مادام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين ؟

* * *

ولم نطل الاقامة في صوفر ، لأننا لم نجد الامير فعدنا أدراجنـــا الى دمشق ، نحمد الله على أننا لانزال نعيش في بلد فيه النساء نساء ، والرجال رجال (١) .

---

(١) كان هذا سنة ١٩٣٧ قبل ان (تستجمل) الناقة ، وتسترجل المرأة ، وتقعد مقعد الرجل من كرسي التدريس في الجامعة ، ومكتب الوظيفة في الديوان ، وستكون غـداً هي (النائبة) ، ثم تكون (القـاضية)

وقبل ان (يستأنث) الرجل فلا ينكر منكراً ولايمنع ممنوعاً !

الفهرس

٥ حديث عن دمشق
١٢ نحن المذنبون
١٧ أحسن كما أحسن الله اليك
٢٤ كل شيء للناس
٣٠ ابراهيم بك هنانو قال لي
٣٧ لصوص الوقت
٤٢ رمضان
٤٨ مزعجات رمضان
٥٣ أين أرباب الاقلام
٦٠ الوظيفة والموظفون
٦٥ الوعد الشرقي
٧٢ شغّلوا الطلاب في عطلة الصيف
٧٧ مشكلة الزواج
٨٣ أسباب المشكلة
٩٠ لاتؤجل
٩٦ من حديث المزعجات
١٠٢ في الفندق
١٠٧ بين المعلم والتلميذ
١١٠ الى الطلاب
١١٦ الوصايا
١٢٢ نساؤنا ونساء الافرنج
١٢٩ صناعة المشيخة
١٣٥ هذا نذير للناس
١٤٢ هذا هو الداء
١٥٢ الاذاعات العربية
١٥٨ صور سوداء
١٦٣ رسالة
١٧٠ من تاريخنا العلمي
١٨١ الطلاب والعطلة
١٨٧ في الزواج
١٩٠ حديث العيد
١٩٩ مجنون
٢٠٥ الحب والزواج
٢٠٩ السن المناسبة للزواج
٢١٣ موضوع انشاء
٢١٧ طريق السعادة
٢٢٥ من عبث التلاميذ
٢٢٨ الى لبنان

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
٧	١٧	يزهدون الدنيا	في الدنيا ؟
١٦	٨	كل ينسى	كل من ينسى
١٩	٢٢	ويضاعف	والله يضاعف
٤٣	١٨	تصفوا	تصفو
٤٧	١١	للعالم	للعام
٥١	٨	والسبعين	والسبعون
٥٥	٢٣	اعزاز	عَزاز
٦٢	٢	أفهل	فهل
٦٢	١٦	أفهل	فهل
٦٣	١	أفهل	فهل
٦٣	٣	أوهل	وهل
٦٣	١٢	أوهل	وهل
٧٦	١٩	الاختلاط	للاختلاط
٨٠	١٣	العراقل	العراقيل
٩٤	٢٢	ماذا	مـــا
٩٩	١٩	ولايبال	ولايبالي
١٠٩	٢	ارائك	اراءك
١١١	١٩	والاثاث	والا فأنت

ص	س	خطأ	صواب
١١٦	١١	خير	خبر
١٢٣	٧	عندما تقول	كما تقول
١٣٧	١٦	ان هو	وان هو
١٤١	٢	الاصباغ	من الاصباغ
١٥٤	١٩	هذه التكلف	هـذا
١٥٧	٨	ودينة	ودينه
١٦١	٥	يتمزق	تتمزق
١٦٦	١٠	الذراع	ثم الذراع
١٩٧	٦	الاخوة الاخوة	الاخوة
١٩٨	٤	الى الى	الى
٢٠٤	١١	فيأكلون	فيأكلوا
٢٠٧	١٨	كرازيجلا	كرازيلا
٢١٨	١٨	قد كتبه الله عليك	قد كتبه الله لك ولو اجمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الابشيء قد كتبه الله لك

آثار المؤلف

كتب نفدت

١- رسائل الاصلاح ١٣٤٨ هـ
٢- بشار بن برد ١٣٤٨ هـ
٣- رسائل سيف الاسلام ١٣٤٩ هـ
٤- الهيثميات ١٣٤٩ هـ
٥- في التحليل الادبي ١٣٥٣ هـ
٦- عمر بن الخطاب جزآن ١٣٥٢ هـ
٧- كتاب المحفوظات ١٣٥٥ هـ
٨- في بلاد العرب ١٩٣٩ م
٩- من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م

كتب صدرت حديثاً

١- أبو بكر الصديق (طبعة ٢) ١٣٧٢ هـ
٢- قصص من التاريخ ١٩٥٧ م
٣- رجال من التاريخ ١٩٥٨ م
٤- صور وخواطر ١٩٥٨ م
٥- قصص من الحياة ١٩٥٩ م
٦- في سبيل الاصلاح ١٩٥٩ م
٧- دمشق ١٩٥٩ م
٨- أخبار عمر ١٩٥٩ م
٩ - مقالات في كلمات ١٩٥٩ م
١٠- من نفحات الحرم ١٩٦٠ م
١١- سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠ م
١٢- كفتار رمضان (أحاديث رمضان) ترجمها الى الفارسية أحمد آرام
١٣- هتاف المجد ١٩٦٠ م
١٤- من حديث النفس ١٩٦٠ م
١٥- الجامع الاموي ١٩٦٠ م

تحت الطبع

١- صور من الشرق (في اندونيسيا)
٢ - فصول اسلامية
٣- صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)
٤ - فكر ومباحث

